رواية
ساحر
بني أمية
رحلة البحث عن المخطوط
محمود أيمن
ساحر الكتب

الإهداء

إلى ذلك الرجل الذي أحبني أكثر من أيّ شيء آخر، ولم يخبرني بذلك يوما، ظننتك صلبا من الداخل - أيضا - حتى حدثني صديق لك كم تحبني وتفخر بي، هذه الرواية لك وحدك علّك تخبرني أنك تحبني يوما ما، إلى أبي.. وكلِّ أبٍ لا يبوح بما في داخله تجاه أبنائه.

من هنا بدأ كل شيء !

الرابع من أبريل عام ألف وتسعمائة وستة وتسعين..

أحد البيوت المهجورة بمنطقة وسط البلد – القاهرة:

بيت كبيرعتيق من ثلاثة طوابق، نوافذه جميعها محطمة وزجاجها مكسور، يطل على باحة صغيرة على جانبيها عدد لا بأس به من الأشجار، ورد وحشائش خضراء وبعض الريحان، في المنتصف هناك طريق حجريٌّ يؤدي لباب البيت، يحيط بالبيت من الخارج سور يصل ارتفاعه للمترين تملؤه الكثير من فوانيس الإضاءة التي يعمل بعضها بينما تكسر البعض الآخر، بداخل البيت يغطي الغبار كل شيء، أثاث مهترئ، وممرات خالية من الحياة وشبه متهالكة، صوت لقطرات مياه تتساقط، بداخل قاعة المنزل تعلوا أصوات غريبة غير مفهومة ومتداخلة عدا كلمة «طفل» يمكن تمييزها بوضوح بين الحين والآخر، هدأت الأصوات تدريجيًّا تزامنا مع أزيز باب البيت الخشبي الكبير الذي يفتح ببطء شديد، يدخل منه رجل عجوز يحمل في يمناه فانوسًا زجاجيًّا في داخله فتيل مشتعل للإضاءة، في صوت خافت تحدث قائلًا:

- لكم مني السلام أهل البيت، ولي منكم مرور آمن، ما جئت

إلا طالبا رؤيته فلدي ما أخبره به.

علت الأصوات مجددًا، ولكن هذه المرة بِلُغَةٍ عربيّة واضحة ومفهومة، تحدث أحدهم متسائلًا:

- هل جاء العجوز مبشرا هذه المرة؟!

تبعه آخر وهو يضحك ساخرا:

- سوف يقتله إن لم يكن كذلك، فهو عجوز أخرق.

دخل العجوز - متجاهلا ما قيل بخطوات واهنة أظهرت مدى انحناء ظهره وكبر سنه - إلى قاعة البيت التي يغطي أثاثها ونجفها قماش أبيض تغير لونه بفعل التراب والزمن، ومنها إلى ممر مظلم يؤدي لغرفة مغلقة في نهايته، مع إضاءة الفانوس الذي يحمله في يده يمكن رؤية معالم الباب، في المنتصف هناك وجه عابث مخيف لتيس يخرج لسانه، قرنان ضخمان على الرأس، محفور تحتها بحروف غريبة بدأت فى التحول للعربية مكونة جملة «لا تدخل ما لم يسمح لك بذلك» على جانبي الباب توجد الكثير من العظام الصغيرة المترابطة معا بالخيوط، تمتم العجوز بكلمات غريبة وكأنه يلقى تعويذة ما لتبدأ العظام التي تملؤ جانبي الباب في الاهتزاز للحظات لينفتح بعدها مباشرة، ما إن دخل العجوز الغرفة انغلق الباب من خلفه، وهبت ريح كريهة أطفأت فتيل

الفانوس المشتعل، ساد ظلام دامس حيث لا فرق بين أعمى وبصير، فجأة ظهرت بقعة من الضوء في منتصف الغرفة على إثرها ظهرت معالم عرش ضخم يصل حتى سقف الغرفة، تزينه الجماجم البشرية والحيوانية وبعض النقوشات الغريبة، لم تكن إضاءة كافية لرؤية ملامح وجه الطيف الجالس على العرش، رفع العجوز رأسه وراح يحدق بخوف إلى ذلك الطيف الذي ما لبس أن جاء صوته غليظا مخيفا:

- بشرني بما أريد سماعه يا هذا.

خر العجوز ساجدا على ركبتيه فور سماع الصوت من شدة الرهبة، ثم أجاب في صوت مرتعد متقطع:

- أحمل لك البشرى التي تنتظرها بفارغ الصبر يا سيدي، ولكن شيئا غريبا قد حدث.

سكت العجوز لبرهة ليبتلع ريقه ويلتقط أنفاسه بصعوبة وكأنه يختنق ثم عاود:

- لقد ولد الطفل المنتظر منذ ساعات، واختفى بعدها مباشرة لنفقد أي أثر له! حتى إن أقوى خدمي لم يستطيعوا العثور عليه!

انتفض الجالس على العرش غاضبا، فاشتعلت النيران فى أرجاء الغرفة التى اختفت حوائطها ومعالمها وكأنهم أصبحوا

في وسط أرض مشتعلة لا حدود لها من حولهم، علا صوت الطيف ليهز أرجاء البيت بالكامل:

- كيف حدث ذلك أيها الغبي الأخرق؟! يبدو أنك فقدت قدراتك، ولم تعد ذا قيمة.

توسل العجوز لحياته باكيًا ذليلًا:

- أرجوك.. ابق على حياتي.. أعطني فرصة أخيرة وسأجده.. صدقني.

لم يجدِ توسله وبكاؤه نفعا، واشتعلت النيران فيه على الفور، صاح الجالس على العرش مجددا في صوت يملؤه الغضب مهددا ومتوعدا:

- جدوا لي بديلا لهذا العجوز الضعيف، واعثروا على الطفل وإلا أحرقتكم جميعا بدون رحمة.. ابدأوا بالمكان الذي ولد فيه الطفل.. يستحيل أن يكون قد ابتعد كثيرا، لو وصل الأمر لدخولكم كل بيوت القاهرة بحثا عنه.

خمدت النيران تدريجيًّا مع اختفاء العرش وصاحبه، لم يبق سوى رماد العجوز والظلام الذي أصبح المسيطر من جديد، وعاد البيت لسكونه السابق كأن شيئا لم يكن.

*****

الفصل الأول

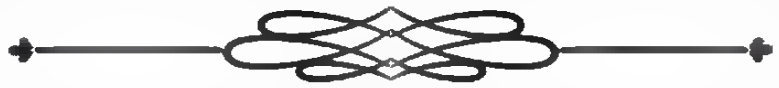

الثامن من يناير عام ألفين وعشرين..

محطة قطارات أسيوط

وسط زحام المحطة المعتاد يمكن تمييز شاب أسمر طويل في العشرينات من عمره، يرتدي ملابس أنيقة على الرصيف رقم ثلاثة، ويحمل لافتة مكتوب عليها «د. لورين التميمي» الوحيد في المحطة بالكامل الذي يحمل لافتة انتظار لأحدهم، تمر القطارات ذهابا وإيابا وبين الحين والآخر يتفقد ساعة يده ويخرج هاتفه الجوال ليجري مكالمة، يبدو أن الشاب لم يعتد تلك الوقفة والتأخير المقدس للقطارات فى هذا البلد، والذي قد يصل لساعة أو اثنين وربما أكثر، في غضب وتأفف أخرج الشاب هاتفه الجوال مجددا لإجراء اتصال:

- مرحبا.. لم يصل القطار بعد! مرت قرابة الساعة وأنا واقف في مكاني.. من المفترض وصول القطار منذ دخولي المحطة.. لا أفهم لم كل هذا التأخير! هاتفتها مرة قبل تحركها وما إن تحرك القطار هاتفها غير متاح.. لم أجد أمامي سوى

أن أكتب اسمها على لافتة، وأنتظر حتى أن الجميع هنا يرمقوني بنظرات غريبة وكأني من بلد أجنبي.. عندما تصل سآخذها للفندق ثم أعود للبيت.. حسنا سأهاتفك عند عودتي يا أمي.. لا تقلقي.

ما هي إلا لحظات من انتهاء المكالمة حتى علا صوت مذياع المحطة: «يصل بعد لحظات على الرصيف رقم ثلاثة القطار رقم تسعمائة وثمانية وسبعين القاهرة - الأقصر المتأخر عن ميعاد وصوله ساعة واحدة»

في تأفف حدث الشاب نفسه:

- عظيم! أخيرًا وصل القطار، يا لها من بداية مشرقة في هذا العمل!

وصل القطار - أخيرا - على الرصيف رقم ثلاثة، وبمجرد التوقف اندفع الناس نزولا منه ليتجهوا خارج المحطة، بقي الشاب ثابتا في مكانه لعدة دقائق منتظرا هدوء الزحام ليبدأ البحث عن ضالته، بدأ في النظر يمين ويسار مكانه محاولا رؤيتها، كانت قد أرسلت له صورة لها قبل قدومها حتى يسهل عليه التعرف عليها، جاءته رسالة نصية على الهاتف بأن هاتفها أصبح متاحا الآن، هاتفها سريعا:

- أين أنت؟

تبع سؤاله بوصف مكانه في المحطة لتجيبه بدورها:

- على بعد ثلاث عربات شمالا في نهاية الرصيف.

- حسنا.. ابقِ في مكانك.. أنا قادم.

اتجه نحوها مسرعا ليجدها وحيدة في نهاية الرصيف، فتاة ثلاثينيّة تحمل حقيبتين، واحدة على ظهرها والثانية صغيرة على معصم يسراها، ترتدي ملابس واسعة مخاطة يدويا كتلك التي ترتديها الطالبات الإندونيسيات والماليزيات اللواتي يدرسن في مختلف الجامعات المصرية، وسبق له رؤيتهن من قبل، عينان بنيتان وبشرة تميل إلى السمار، ليست بالفتاة الطويلة، مد يده إليها ليصافحها وهو يبتسم مرحبا:

- سراج إمام السلكاوي.

لم تمد يدها مصافحة هي الأخرى، ولكنها اكتفت بوضعها على صدرها مع ابتسامة بسيطة وهي تهز رأسها من باب المجاملة:

- د. لورين التميمي.

حك أصابع يمناه في مؤخرة رأسه، وهو يبتسم في بلاهة من الحرج ثم تحدث قائلًا:

- تشرفنا سيدتي.. أسيوط قد زادها شرف وجودك، أعتذر كثيرا عن عدم قدومي لمطارالقاهرة؛ لاستقبالك هناك.

- لا عليك.. ما يهمني هو أنك هنا الآن.

أنزلت حقيبة ظهرها أرضا، وبدأت التحرك بخطوت سريعة، وهي تقول في تعجرف:

بدأ عملك منذ هذه اللحظة يا سلكاوي.. احمل الحقيبة واتبعني.

لم تسمع حتى ما قاله بعدها متأففًا!

- يا لها من بداية حقا.. هل تعتقد أني خادمها؟!

خارج المحطة أوقف سيارة أجرة: شارع الجمهورية لو سمحت؟! فتح لها الباب الخلفي لتركب ووضع الحقيبة بجانبها، نطق السائق:

- في أي مكان في الشارع تحديدا يا أستاذ؟

- فندق الوطنية.

لم تستغرق السيارة أكثر من عشر دقائق من أمام محطة القطار وصولا للفندق، والذي كانت قد سبق لها الحجز فيه قبل قدومها، ولم يكن هو من اختاره لها. أعطى الحقيبة لأحد الأفراد الذين يستقبلون الناس أمام الفندق.. اتجهوا

بعدها للاستقبال لتستلم مفاتيح غرفتها ويأخذها فرد آخر ويتجه معها للمصعد الكهربائي.. تحرك سراج بدوره للخارج مغادرا. لتستوقفه منادية:

سلكاوي.. السابعة صباحا تكون في انتظاري هنا.

*****

قبل ذلك بثلاثة أيام..

داخل أحد الوحدات السكنية بشارع المكتبات – أسيوط:

امرأة خمسينية تطرق باب أحد الغرف، وتدخل مباشرة لتتحدث مشفقة في نبرة حانية:

- ألم تكتفِ من عزلتك تلك يا ولدي؟! أما آن الأوان أن تنزل لعملك وترى الأمانة التي أمنك عليها الرجل قبل موته!

نهض شاب في العشرينات من عمره من على كرسيه الخشبي الهزاز بجوار السرير، واتجه للشرفة المطلة على الشارع العمومي، رفع الإناء البلاستيكي الصغير ليروي الزهور التي تزيّن الشرفة وهو يقول:

- لقد وجدت عملا آخر يا أمي، وقررت أن أبتعد لبعض الوقت عن متجر العطارة حتى تستريح نفسيتي وأنسى ما حدث.

- عمل آخر! ولكن ماذا عن المتجر؟! لن يكون الرجل مستريحًا في قبره يا ولدي.. هذا بالإضافة إلى أنه أي مكان سيعطيك حتى ربع ما تدره عليك العطارة!

بدت على وجهه علامات التوتر والغضب حتى أن يده التى تحمل الإناء بدأت في الاهتزاز!

- سأغلقه لبعض الوقت.. هلا حضرتِ لي الفطور إذا سمحت يا أمي وتركتني أسير الأمور كما أريد؟ سأكون مستريحًا هكذا أكثر.

- اترك لي إدارة المتجر، إذن فهي أمانة يا ولدي.. سأفتحه وأباشره بنفسي.

أنزل الإناء أرضا، وعاد ليجلس على كرسيّه الهزاز مرة أخرى عاقدا كفيه خلف رأسه، شرد بذهنه بعيدا ليعود بالزمن شهرًا كاملًا للوراء.

سراج إمام حاتم السلكاوي، شاب في الرابعة والعشرين من عمره، تخرج في كلية التجارة شعبة اللغة الإنجليزية.. جامعة أسيوط بتقدير عام جيد، أنهى خدمته العسكرية منذ فترة ليست بالكبيرة، يسكن مع والدته وإخوته الثلاثة الذين يصغرونه، توفي والده وهو في السابعة عشر من عمره، كعادة أي شاب حديث التخرج بدأ في البحث عن وظيفة، أو

عمل مؤقت بغرض كسب المال من ناحية، واكتساب خبرة عملية من ناحية أخرى، ولكن الواقع المرير الذي اصطدم به أبي أن يعمل في مجال دراسته، صحيح

إنّها أيام قليلة من البحث، ولكن معظم الشركات تبحث عن حديثي التخرج ذوي الخبرة! لا أعلم - صدقا - هل اكتسب الشباب حديثي التخرج تلك الخبرة في الحياة الأخرى؟ أم ولدوا من بطون أمهاتهم بعامين أو ثلاثة خبرة؟!

حكمت الظروف على الفتى أن يكون معيلا للأسرة، ويساعد والدته بعدما تخرج، فلما رأى أنه لا فائدة من البحث عن عمل بشهادته فهي مضيعة للوقت من وجهة نظره؛ نصحته والدته بالذهاب للشيخ مصطفى الذي كان قد ألح عليها - سابقا - أن يساعده سراج في إدارة عمله، جارهم والصديق الوفي لجدّه الراحل حاتم السلكاوي، والذي يعمل في العطارة منذ مدة طويلة، ولديه متجر كبير في الشارع نفسه، رحب به كثيرا، وفرح بقدومه وطلبه المساعدة. الشيخ مصطفى رجل طويل القامة، له هيبة ووقار وحضور قوي، شعر رأسه ولحيته يكسوهما الشيب بالكامل، مع وجهه الأبيض، وعينيه الخضراوتين، ولولا ذلك الشيب لما ظهر على الشيخ أنّه أكمل عامه الثامن والستين منذ أيام، ما زال محتفظًا بكامل قوته وحيويته، لما أقبل عليه سراج ذلك

اليوم وجده يساعد الصبية الذين يعملون في المتجر في حمل الأشياء، وهو لايبالي لكبر سنه.

- السلام عليكم يا شيخ مصطفى.

- وعليكم السلام يا سراج يا ولدي.. أحضر كرسيًّا واجلس.. سأغتسل سريعا وأعود.

اغتسل الشيخ ونفض جلبابه من الغبار والأتربة جراء حمل الأشياء في المتجر، ثم عاد سريعا وهو ممسك بعصا خشبية في يمناه - اعتاد سراج على رؤيتها معه دائما تزينها بعض النقوشات والكلمات الغريبة التى دائما ما تثير التساؤل لديه، ولكنه يستحي أن يسأله عنها، بالإضافة لخاتم كبير يضعه فى أحد أصابع يسراه منقوش عليه «فالله خير حافظ» - أحضر له أحد الصبية كرسيًّا ليجلس، نظر للفتى وهو يتحدث مشرق الوجه باسما، وقال:

- تشبه جدك - كثيرا - يا فتى.. لقد كان حاتم - عليه رحمة الله - أخا وليس مجرد صديق.

- هذا ما جاء بي إليك اليوم يا شيخ.. سيأخذ مني البحث عن وظيفة مناسبة لشهادتي وتعليمي الكثير من الوقت.

- لم ينعم الله عليّ بنعمة الولد كما تعلم.. أمك وأبوك - عليه رحمة الله - أبنائي، وأنت حفيدي.. جدك وصّاني عليكم

جميعا.. لن أجد من هو أنسب منك أئتمنه على متجري وأموالي.. لذا قل لي متى تحب أن تستلم إدارة المتجر؟!

غمرت الفرحة الفتى، وارتسمت البسمة على وجهه الأسمر؛ لتظهر غمازتان جميلتان تزيدان من جمال ابتسامته، ما كان منه إلا أن نهض ليقبل يد الشيخ وجبينه..

- أتمنى أن أكون على قدر هذه المسئولية.. لن يخيب ظنك فيّ.. هذا وعد.

غلبت الشيخ دموعه، وظهر احمرار بسيط على وجنتيه وهو ينظر للسماء..

- رحمك الله يا أخي حاتم، كنت تتمنى أن ترى الفتى وهو يكبر ليصبح رجلًا يعتمد عليه، ويتحمل مسئولية أمه وإخوته، أتمنى أن يطيل الله في عمري لأكون بجواره عندما يحتاجني، وأسلمه إرثك الحقيقي الذي تركت!

وجه نظره لحظات تجاه سراج، وهو يحدث نفسه في حزن: أعانك الله فيما أنت مقبل عليه يا فتى.. لا تعلم ما تخفيه لك الأيام، ولكنّه قدرك!

أفاق الشيخ من شروده على يد الفتى التي تتحرك أمام ناظريه، وهو يقول:

- أين ذهبت يا شيخ؟!

- اعذرني يا بني على دموعي التى غلبتني، وشرودي بعيدًا، فكلما تذكرت رفيق دربي لا أستطيع مقاومة البكاء.. ما كان بيننا لا تعبر عنه سوى الدموع، ينفطر قلبي كلما مرت ذكرى لنا أمام ناظري.

حدث الفتى نفسه متعجبا: أين نجد رفيقا كهذا في أيامنا تلك؟!

أخبر الشيخ أنه سيستلم العمل من الغد، واستأذن مغادرا.. استوقفه مازحا

ستغادر قبل أن تعلم راتبك؟ أم ستعمل معي بالمجان؟

ضحك الفتى وحك أصابعه في مؤخرة رأسه من الحرج ولم يرد.

- سأعطيك مئة جنيه في اليوم الواحد، وهناك بعض الأعمال الأخرى التي سأحتاجك فيها خارج المتجر، وسأعطيك الضعف.. اذهب وأخبر أمك بأنك وجدت عملًا.. هيّا لا تضع الوقت.

في اليوم التالي توجه الفتى لمقر عمله الأول وكله حيويّة ونشاط، لم يكن الأمر صعبا عليه فهي عملية بيع وشراء في

النهاية، استطاع حفظ الأصناف والأسعار بسهولة، وعلى مدار ثلاثة أيام من العمل تعلم كيفية إدارة الأمور داخل المتجر والتعامل مع الصبية، دوره كمدير للمكان أوجب عليه معرفة كل كبيرة وصغيرة داخل المتجر وتحديدا مدى أمانة وجدية من يعملون معه، لم يكن الفتى ليرضى بأي إهمال أو تقصير تحت إدارته، مر أسبوع على عمله في متجر الشيخ مصطفى كان فيه حازما شديدا عند الخطأ، ليّنًا عطوفا على الصبية وأخا كبيرا وقت الحاجة، أحبه الجميع لطيبة قلبه وابتسامته التي لا تفارق وجهه فزاد إقبال الناس على المتجر، أصبح الشيخ مصطفى قليل الحضور منذ تولي الفتى زمام الأمور، الحسابات - يوميًّا - تقفل وتسوى، وبنفسه يوصل الإيراد للشيخ فى بيته، في بداية الأسبوع التالي جاء الشيخ باكرا للمتجر ليحضر له سراج كرسيًّا ليجلس أمامه في الشارع كالمعتاد، نادى الشيخ على أحد الصبية

- أحضر لي كوبًا من اليانسون.. وأنت يا سراج أحضر كرسيًّا وتعال فلدي ما أخبرك به.

بسرعة أحضر كرسيا وجلس بجواره ليكمل الشيخ:

- عظيم ما فعلت يا ولدي في المتجر حتى الآن، الإيراد يزيد يوما بعد يوم.. الصبيان هنا يحبونك ويعملون بجد.. لم يشتكِ منك أحد!

في مثل هذه المواقف حين يثني أحدهم على سراج وعلى شيء جيد قد فعله يبتسم في بلاهة ويطغو على وجهه الخجل وهو ينظر للأرض وكأن القطة قد أكلت لسانه، حك أصابع يده كالعادة في مؤخرة رأسه وبعد لحظات من الصمت تحدث خجلا:

- إنه متجري يا شيخ، وهذا عملي، سأفعل كل ما بوسعي.

وضع الشيخ يمناه على كتف سراج باسما:

-هذا هو العشم يا بني، المهم.. هل تتذكر العمل الخارجي الذي حدثتك عنه يوم أتيتني؟ لقد جاء وقته.

- أنت تعلم أنه وقتما احتجتني فأنا موجود.

توقف الفتى لحظات ثم أكمل وهو يتساءل في خجل:

- ولكن هل لي أن أعرف ما العمل الذي ستحتاجني فيه؟! سامحني يا شيخ.. لا أحبذ أن أمشي كالحمار كما يوجهه صاحبه يمشي.

ضحك الشيخ بصوت عالٍ على ما قاله الفتى ثم تحدث مازحا:

- لا سمح الله يا بني عن أي حمار تتحدث، فأنت بغل كبير..

أكمل الشيخ ضحكه والفتى تملؤ وجهه علامات التجهم

والغضب، ولم يرد حتى عاود الشيخ وهو يربت على كتفه:

- لا تنزعج هكذا يا بنى.. إنني أمزح معك، فأنا جدك في النهاية.. أنا معالج روحاني بمعنى أنني أعالج حالات المس من الجن بالقرآن الكريم.

في تلقائية نهض الفتى من على كرسيه فاتحا فمه كالأبله:

- هاه!

- اجلس ولا تخف، فأنت ستأتي معي لتحمل عني حقيبتي أو تحضر لي شيئًا، تبعد أهل الحالة وتهدأ الأجواء من حولي.. ليس هناك أي خطر، أو صعوبة في هذا العمل فلا تقلق.

جلس الفتى بالبلاهة نفسها التي اعتلت وجهه بدون أي رد!

- غدًا سنذهب لقرية قريبة من هنا.. لن تخسر شيئا لو جربت، ولك القرار الأخير بعدها إن كنت ستكمل وتتعلم، أو لا.

في حيرة وقلق أجاب الفتى:

- ما تراه يا شيخ.

في نهاية اليوم أغلق سراج المتجر، وعاد مهرولا للبيت قاصدًا أمه ليخبرها بما حدث من الشيخ، أخذت تضحك ساخرة للحظات ثم أخبرته:

- جدك الشيخ مصطفى رجل صالح، ومحب للخير يا بني.. يقوم بمعالجة الناس من السحر والأعمال.. يجب أن تجعله يرقيك ويحصنك في مرة.

لم تتوقف أمه عن الضحك بسبب خوفه وتعبيرات وجهه القلقة، لقد كانت تعرف طبيعة عمل الشيخ طيلة هذا الوقت، لم يرد عليها من شدة الغيظ واتجه لغرفته مستلقيا على سريره، بدأ يحادث نفسه:

- ماذا يحدث لك يا بن إمام السلكاوي؟! متخرج في كلية التجارة شعبة اللغة.. رجل محترم من المفترض أن يعمل محاسبا لدى إحدى الشركات، أو البنوك.. تصل به الحال في النهاية لمتجر عطارة! ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل وأعمل في المس والخزعبلات!

كان الفتى بطبعه يمتلك روح المغامرة، ويحب تجربة كل جديد، في داخل نفسه يملؤه الحماس ليوم الغد وما سيحدث فيه، مع رغبته الشديدة في ترك ذلك العمل الذي لا يتناسب مع دراسته وعقليته التي يرى أنه يظلمها بعمله ذاك، تناقض كبير وصراع داخلي انتهى بتذكر تلك المغامرات والقصص التي لطالما اعتاد على سماعها من جده حاتم في صغره، فقد كان رجلا عظيما ويعمل باحثا وموظفا في الآثار، توفي وهو في العاشرة من عمره تحت أنقاض أحد الأماكن

الأثرية في المغرب، كان رجلا مثقفا ومحبا للكتب ويمتلك مكتبة كبيرة يتذكر الفتى تفاصيلًا قليلة عنها، تحتوي على الكثير من الكتب والمجلدات القيمة، وبعضها نسخص أصلية بجانب الكثير من المخطوطات الأثرية، وبعض الأوراق البحثية الخاصة به، تذكر أنهم بعد وفاته لم يسمحوا لأحد بدخولها، وكأنها منطقة محظورة داخل البيت لذلك ليست لديه الكثير من الذكريات فيها، عاد ليحدث نفسه، ولكن هذه المرة بصوت مسموع:

- لا أعلم أكان والداي يهربان من ذكرى جدي أم ماذا؟! ربما كانا يحافظان على محتويات مكتبته القيمة فهي تساوي ثروة، ولكنهما رفضا بيعها رغم ذلك أتذكر ذلك جيدًا، علامات استفهام كثيرة تراودني وراء بيع بيتنا القديم والانتقال المفاجئ للإقامة في أسيوط! لا يسمح لي حتى بالحديث في هذا الأمر! ترى ماذا حل بمكتبة جدي، وما كان مصيرها في النهاية؟!

بعد الكثير من التفكير والتساؤلات غلبه النوم حائرا، ولم يصل لشيء.

في الصباح الباكر توجه والشيخ مصطفى لقرية تسمى (الحواتكة) التابعة لمركز منفلوط، لا يبعد المكان الكثير من الوقت، فقد كان وصولهم سريعا، وجدوا أحد أقرباء الحالة

في انتظارهم على أول القرية ليقلهم بسيارته للبيت، رحب بهم أهل الحالة، وأحسنوا ضيافتهم، كانت فتاة صغيرة في الثالثة عشرة من عمرها، وتأتيها بعض التشنجات، وحالتها أشبه بالصرع؛ تجعلها تسقط أرضا، وينتفض جسدها باستمرار ولا تهدأ إلا بعد معاناة من الأهل. يحكي والدها للشيخ في جلستهم باكيًا حزينا على حالها:

- والله يا شيخ لقد تعبت، منذ أيام سقطت ابنتي في وسط الشارع وهي تلعب مع أبناء الجيران، لقد كان يومًا عصيبا علينا جميعا هنا في البيت، استشرنا الكثير من الأطباء، ولكن دون جدوى.. حتى

إن أحدهم أعطاها جلسات كهربائية على المخ مما زاد من حدوث التشنجات كثيرا، مع الوقت بدأ جسدها في التخشب، وأطرافها بدأت تصبح غريبة وتحركها في بطء وبصعوبة شديدة، تصبح عنيفة جدًا، وتقوم بتكسير الأشياء من حولها عند قراءة القرأن الكريم بجوارها، أو تشغيله في التلفاز، رآها شيخ المسجد القريب من البيت في أحد زياراته لنا وأخبرني بأن الأمر لا علاقة له بالأطباء، وأنه يجب أن أستشير مختصا في أمور المس، فدلني أولاد الحلال عليك يا شيخ مصطفى.

لم يناقش الشيخ الأب في أي مما قاله، اكتفى ببسمة

بسيطة على وجهه، وهز رأسه، ثم نهض وهو يقول مطمئنا:

- لا تقلق.. فكل شيء سيكون بخير، أريد رؤية الطفلة.. لن يكون معنا في الغرفة سوى أنت.

أومأ الأب برأسه موافقا، وتقدمهم لغرفة ابنته، طلب منه الشيخ إقفال الباب بالمفتاح والوقوف عنده ثم نادى على سراج:

- أحضر كرسيًا يا سراج، وضع عليه الفتاة وقف بجوار الأب هناك.

نفذ سراج ما طلب منه سريعا، وتوجه نحو باب الغرفة ليقف بجوار الرجل.. بدأ الشيخ في تلاوة بعض آيات القرأن الكريم بصوت عذب ينشرح له الصدر، كانت المرة الأولى التي يسمع فيها سراج تلاوة الشيخ لدرجة اندماجه معه مغمضا عينيه شاردا في كل ما هو جميل، أفاق من شروده الذي لم يدم طويلا على صراخ الفتاة وهي تجري نحوه غاضبة، قفزت لتحيط خصره بقدميها، ويداها حول الرقبة، لم ير عينين حمراوتين كالدم هكذا من قبل! لم يحرك له ساكنا من شدة الخوف والصدمة، أخذت تلطم وجهه حتى أسقطته أرضا، وجد نفسه يدفع الفتاة عنه بقوة ويوقعها على ظهرها بعيدا عنه، سالت الدماء من وجهه جراء ما فعلته به أظافرها الطويلة من خدوش. الغريب أن الأب نفسه خاف

وابتعد ولم يحاول إبعادها عن سراج، استمر الشيخ في التلاوة ولم يوقفه ما حدث وكل هذا يزيد من غضب الفتاة التي بدأت في ضرب رأسها في الحائط بقوة، وفجأة ركعت، ولكن ليس كما يركع المصلون في صلاتهم، بل إن جسدها مال للخلف، أصاب سراج ذعر شديد وبدأ في الصياح:

- عمودها الفقري!

قطع الشيخ تلاوته وصاح في سراج:

- أمسك بالفتاة وأعدها للكرسي مجددا، وتوقف عن الصياح كالنساء.. كن رجلا وتحمل ببعض القوة والثبات.

انتابه الخوف من نبرة الشيخ الحادة، وتوجه ووالدها ليمسكا بها ويعيدانها بصعوبة للكرسي مجددًا، هذه المرة قاما بربطها حتى لا يتكرر ما حدث، أخذ الشيخ نفسا عميقا، وتوجه نحو الفتاة، وعاود التلاوة لدقائق قليلة، ثم توقف وذكر في صوت خافت شيئًا عن العهود السليمانية، لم ير سراج طيلة حياته فتاة صغيرة بهذا الغضب من قبل، بدأ يفرق عينيه ليتأكد من أن الكرسي لم يعد يرتكز على الأرض ويرتفع عنها بضع سنتيمترات! صاح الشيخ من جديد وهو يلطم الفتاة بقوة على وجهها ليسيل الدم من فمها:

- ما اسمك يا لعين؟! وما دينك الذي تتبع؟

لم تجب الفتاة، وكأنها فقدت الوعي من شدة اللطمة، عاود الشيخ اللطمة على الناحية الأخرى من وجهها بقوة مكررا:

- هيا أجب يا لعين، وإلا أحرقتك.

صدرت من الفتاة ضحكة رجولية، وفي صوت شديد الغلظة نطقت بضع كلمات غير مفهومة، همَّ الشيخ بضربها مرة ثالثة، ولكن يده توقفت قبل أن تلمسها، وقفت خصلات شعرها من شدة الغضب، وارتفع الكرسي بها ليصل سقف الغرفة، دفعت الشيخ ليرتضم بالحائط من خلفه في قوة مما أفقده وعيه، دمرت الكرسي، وخلصت نفسها بسهولة وما زال جسدها لا يلمس الأرض، تحدث نفس الصوت الغليظ مجددا؛ مما جعل سراج والأب يضعون أيديهم على آذانهم من شدته التي كسرت زجاج النافذة:

- نحن جلبناك إلى هنا يا مصطفى.. موتك أصبح حتميًّا الآن، فقد انتهى دورك.. أنت آخر من تبقى ويحمل الأسرار.. ما كان يجب أن تقحم نفسك في الأمور التي لا تعنيك.

توجهت الفتاة نحو سراج قبل أن تظهر أضواء غريبة في الغرفة تفصل بينهما، صاحت الفتاة:

- ستموتون جميعا.. لن ينقذكم من عودته أحد.

هذا آخر ما شاهده وسمعه الفتى قبل أن يفقد وعيه جراء

ما حدث من ظهور أضواء ساطعة غريبة في الغرفة.

بعدها استيقظ في سريره مصابا بصداع شديد، وألم في الظهر، بدأ في الصياح كالمجنون، وهو لا يصدق وجوده في البيت وعلى سريره.. لقد كان منذ لحظات بسيطة مع الشيخ في غرفة يعالجون فتاة صغيرة!

- أمي! أين أنت يا أمي؟

كرر صياحه مرارا وهو يحاول أن يتحامل على نفسه وينهض، وجد أمه تجري مسرعة نحوه لتعيده لمكانه مرة أخرى بعد سقوطه أرضا على بعد خطوات من السرير، غلبتها دمعة لحقتها بيدها، وهي تقول:

- حمدا لله على سلامتك يا ولدي.. لقد قلقت عليك كثيرا!

- ما الذي حدث يا أمي؟! من أحضرني إلى هنا؟!

نهضت أمه وتحركت بضع خطوات بعيدا عن السرير، دام سكوتها لحظات قبل أن تجيب وهي تعطيه ظهرها باكية:

- أنت تحتاج إلى الراحة يا بني.. أرجوك لا تترك سريرك مجددا، هذه المرة الرابعة التي أعيدك له فيها

اعتلت وجهه علامات الاستغراب، وعدم التصديق لما تقول، صاح متسائلا:

- ماذا! تلك المرة الرابعة التي تعيدينني فيها إلى السرير!

عادت لتجلس بجواره وهي تضمه إلى صدرها لتقول في قلق وحزن:

- إنها المرة الرابعة اليوم.. أنت على هذه الحال مذ أحضروك للبيت من ثلاثة أيام، تفيق وتعود للنوم لتستيقظ غير متذكر أي شيء.. لقد كان يوما مشؤوما على الجميع.

انتفض سراج من حضن أمه، وهو يرى ومضات سريعة مما حدث ليمسك برأسه من شدة الألم، إنه يرى فتاة صغيرة في غرفة ما تجلس على كرسي خشبي يطير بها حتى سقف الغرفة، الشيخ مصطفى من أمامها وهي تصيح فيه بقوة في صوت غليظ مخيف وعينين سوداوتين: «نحن جلبناك إلى هنا يا مصطفى.. موتك أصبح حتميًا الآن» هناك رجل آخر في الغرفة لا يعرفه مستلقي أرضا، وغارق في دمائه، تحرك مرة أخرى تاركا سريره محاولا تناسي الألم الذي يملؤ جسده ورأسه، حاولت أمه منعه من ذلك، ولكنه صاح فيها غاضبا:

- يجب أن أرى الشيخ مصطفى؛ لأفهم ما حدث ذلك اليوم!

في حزن شديد قالت - وهي لا تتوقف عن البكاء مستوقفة إياه على الباب قبل أن يخطو خارج الغرفة- :

- لقد مات الشيخ يا ولدي بأزمة قلبية مفاجئة!

نظر لها الفتى حزينا باكيا، ثم تحامل على الجدار بظهره وجلس أرضا، كان كل ما يحدث منذ أفاق غريبا ولا يصدق.

- ماذا! الشيخ مصطفى مات!

تحركت أمه نحوه واحتضنته بقوة لتواسيه وتواسي نفسها به، بكيا بحرقة شديدة:

- الآن يا ولدي.. أدعُ له بالرحمة والمغفرة.. إنه في مكان أفضل الآن.

سكتت لوهلة تمسح فيها دموعها، ثم أكملت:

- لقد كان بمثابة أب لي، حنونا عطوفا عليّ وعلى أبيك من قبل.. لم يتركنا قط منذ وفاة جدك حاتم.

أوقفت بكاءها عنوة؛ حتى لا يشعر ولدها بالضعف ثم تماسكت ونهضت مغادرة وهي تقول:

- لقد ترك الشيخ مظروفا مغلقا لك وجدوه في بيته بعد وفاته، أحضره المحامي الخاص به إلى هنا مباشرة بعد دفنه، مكتوب عليه من الخارج «إلى عزيزي وحفيدي سراج.. لا يفتحه غيرك.. وصيتي»، ستجده على مكتبك وقتما أردت أن تفتحه.

خرجت وأغلقت الباب خلفها لتتركه حزينا باكيا مع الكثير

من التساؤلات التي لن يجيبه عنها أحد الآن! أصبحت الغرفة مكانا سوداويًّا كئيبًا في لحظة خاصة مع وجود ذلك المظروف على المكتب، وبعد مرور ساعتين على جلوسه وبكائه المتواصل ليأخذ نفسا عميقا وينهض متجهًا نحو مكتبه، أمسك المظروف وبدأ النظر إليه لبضغ دقائق متأملا، أحضر مقصا من أحد الأدراج وقام بفتحه، أفرغ محتوياته ليجدها بعض الأوراق وشيئًا ما سقط أرضا، جلس على ركبتيه في ردة فعل سريعة ليبحث عما سقط..

- خاتم الشيخ!

أمسك الخاتم بيده، ونهض وهو يتذكر هل كان الشيخ يرتديه ذلك اليوم أم لا؟! ولكن وجوده الآن في هذا المظروف أكبر دليل على عدم ارتدائه له، بدأ في تأمل الخاتم ونقوشاته الغريبة وجملة «فالله خير حافظ»، جلس على سريره ليقرأ ما كتب في إحدى الأوراق، والتي كانت بخط اليد على عكس البقية، بدأ الشيخ فيها كلامه بطريقة سيدنا سليمان، وبلغة عربية سليمة:

إنه من عبد الله مصطفى عبد الحميد الكواملي:

وإنه بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حفيدي العزيز سراج إمام حاتم السلكاوي:

"إن كنت تقرأ هذا الكلام، ووصلت إلى يديك تلك الأوراق فهذا يعني أن روحي رجعت إلى خالقها، فيما يخص ممتلكاتي فقد كتبتها كلها لك منذ اليوم الأول لعملك معي فى متجر العطارة كما وعدت جدك، ستجد كل الأوراق الرسمية التي تثبت ملكيتك لكل شيء مرفقة في المظروف مع الوصية، أما فيما يتعلق بإرثي وإرث جدك حاتم الحقيقيين فهي مساعدة الناس، وحمايتهم من الشر، شر نفوسهم وحقدهم وما يجعلهم يلقون بأنفسهم إلى التهلكة بمحاولة بائسة لضر الناس بسحر أسود، أو أعمال شيطانية سفلية، مهنتي وعملي كانت حماية الناس من هذا الشر وهذا اللئم اللذين ينبعان من بعض ضعاف النفوس تجاه الآخرين، مهنة أبي وأجدادي التي توارثناها جيلا بعد جيل، مهنة لا درهم ولا دينار فيها، ولكن أجرها على الله، فهي عمل خالص لوجهه تعالى، كما تعلم لم يمن الله على ويرزقني بنعمة الولد، ولا أريد لهذا الخير أن ينقطع عن الناس، في النهاية أنت حفيد حاتم السلكاوي ذلك البطل الذي أفنى عمره في مساعدة الناس وحمايتهم، أرجوك ضع خاتمي في أصبعك ولا تنزعه مهما حدث، سيحميك كما حماني وجدك من قبلي طيلة عمرنا، وسترى ذلك بنفسك وقت الحاجة، لا أريدك وأمك أن تحزنا على موتي فأخيرًا سأرى أخي ورفيق حياتي حاتم، وسأرى والدك أيضا، أخيرا سألقى الأحبة، وأسكن في جوار

الرحمن، كل ذلك يقع على كاهلك الآن فلا تتخل عن الناس وتضع إرث أجدادك هباءً منثورا يا فتى، وعندما تجد النجمة تكون قد وصلت إلى ضالتك وستفهم وقتها كل شيء يدور من حولك.»

مصطفى الكواملي.

*****

بعد مرور عشر أيام

انعزل سراج فيهم عن كل شيء، واعتكف في غرفته، تردد خلال تلك الأيام الحزينة الكثير من الجيران على البيت؛ لتأدية واجب العزاء، ولكنه لم يكن في حالة نفسيه تسمح له بمقابلة أحد، كان الفتى ذلك اليوم جالسا كالعادة على كرسيه الخشبي الهزاز في الشرفة حتى قرر أخيرا إعادة فتح هاتفه وتفقد الوضع في الخارج، انهالت عليه الرسائل الإلكترونية التي انقسمت بين من يعزيه كنوع من أنواع تأدية الواجب، ومن يسأل عن حاله واختفائه المفاجئ، تجاهل كل تلك الرسائل ولم يعرها انتباها عدا رسالة وحيدة من فتاة تدعى «روان آغا» كتبت فيها «أريد أن أراك فلدي شيء يخص جدك حاتم»، قرأها سريعا وتجاهلها كالبقية، تفقد صفحته على تطبيق «فيسبوك» لدقائق ثم أعاد غلق الهاتف ووضعه جانبا، حدث نفسه بصوت مسوع:

- لم أعد أطيق بقائي في البيت، لن تنتهي أسئلة أمي عن ذلك اليوم الذي لا أتذكر منه إلا القليل، وتلك الوصية الغريبة التي تركها الشيخ، كنت أتمنى أن أقضي معه وقتا أطول لأفهم ما يعني بها.. يبدو أنه أصبح عجوزًا خرف في أيامه الأخيرة، وكل ما كتبه لا معنى له! السن له أحكامه في النهاية.. تنهد وهو ينهض ليقف في الشرفة ثم أكمل:

- يجب أن أجد عملا يشغل وقتي ويبعدني عن البيت، وأسئلة أمي التي لا تنتهي، ومتجر العطارة، وكل ما يذكرني بما حدث.

عاد ليتفقد هاتفه من جديد بحثا عن أي عمل يتناسب معه ولو قليلا، تصفح بعض الوظائف حتى لفت نظره إعلان لفتاة تدعى «لورين» تبحث عن مساعد لها شرط أن يكون مقيما في أسيوط براتب لا بأس به، على الفور قام بإرسال سيرته الذاتية، وبعدها بخمسة أيام جاءه ردها: مرحبا.. لقد رأيت سيرتك الذاتية، وأراك مناسبا للعمل.. بعد أسبوع من الآن سأكون موجودة في القاهرة، وفي الثامن من الشهر الجديد سأكون عندك في أسيوط.. أريدك أن تكون في استقبالي هناك.. سأرسل لك التفاصيل كلها قبل الموعد بأيام.

طرقت أمه الباب لتقطع تفكيره الطويل وشروده فيما مر به من أحداث طيلة الشهر الماضي، دخلت ومعها الفطور كما

طلب منها قبل أن يرجع بظهره على كرسيه الهزاز ويتذكر كل ما مر به حتى الآن منذ أنهى خدمته العسكرية وبدأ في البحث عن عمل.

- أحضرت لك الفطور الذي تحبه، كما أنني هاتفت أحد الصبية الذين يعملون بالمتجر ليأتي إلينا وتعطيه المفاتيح ليعيد فتح المكان.. سأتابعه بنفسي.

حدث سراج نفسه:

- أمي معها حق، إنها أمانة سيظل بها الناس يتذكرون الشيخ ويدعون له.. كما أنها ستتركني وشأني قليلا وتنشغل عني بالمتجر.

علا صوته مبتسما:

- حسنا يا أمي.. افعلي ما ترينه صوابا.

في هذه الأثناء جاءه إشعار من الهاتف برسالة نصية من د. لورين فيها تفاصيل قدومها لأسيوط كما أخبرته، ابتسم مجددا وهو ينظر لوالدته:

- سأستلم عملي الجديد بعد ثلاثة أيام من الآن يا أمي.

- وفقك الله يا ولدي، وأعانك على ما هو قادم في حياتك.

كان يعلم يقينا في داخل نفسه أنها تريد التحدث والسؤال

عن الكثير مما يثير فضولها كالعادة، ولكن يمنعها عن ذلك حالته النفسية وما يمر به من فترة عصيبة يسيطر عليه فيها الحزن والأجواء الكئيبة، أخذت المفاتيح وغادرت الغرفة في صمت تام مصحوب ببسمة حانية، أثاره الفضول لتفقد صفحة د.لورين على تطبيق «فيس بوك» ليعرف عنها أكثر قبل قدومها، ولكن لم يحالفه الحظ في ذلك كثيرا فقد كانت هناك بعض البيانات الأساسية كعمرها الذى يبلغ اثنين وثلاثين عاما، مسقط رأسها (اليمن)، تعمل مدرّسِة مساعدة في أحد جامعاتها، ولا شيء أكثر من ذلك، تساءل:

- ترى فيما تحتاج مدرسة جامعية مساعدا لها؟!

سمح لنفسه بالإجابة:

- ربما لأنها غريبة وتحتاج دليلًا من أبناء البلد على قدر من العلم والثقافة حتى يكون التواصل سهلا.. كلها أيام قليلة وتعرف يا بن السلكاوي.

*****

بعد ثلاثة أيام

عاد سراج للبيت مساء بعدما أوصل د.لورين للفندق الذي ستقيم فيه طيلة فترة مكوثها في أسيوط، كان الانطباع الأول بأنها متعجرفة، ولا يعلم هل سيتحمل معاملتها تلك إن

استمرت على هذا الحال أم لا! توجه إلى غرفة والدته وطرق الباب فأذنت له بالدخول..

- أخيرا خرجت من البيت وأصبح لك عمل؟!

قالتها مداعبة ليستلقي بدوره على حجرها برأسه، ثم بدون مقدمات سألها:

- لماذا تركنا بيتنا في القاهرة وجئنا إلى هنا يا أمي؟!

تنهدت أمه قبل أن تجيب:

- لا أعلم لم تذكرت ذلك البيت الآن! كانت ظروف عمل جدك تحكم عليه التنقل كل فترة من مكان لآخر، لم يكن أبوك ليتركه وحده - أبدا - خاصة بعد وفاة جدتك.

- لا أتذكره جيّدًا فقط لمحات بسيطة من حياتي هناك، أتذكر مكتبته المليئة بالكتب والتي كان يقضي فيها وقته كله تقريبا.. ترى ما الذي حدث لها يا أمي؟!

ارتبكت أمه مجيبة:

- هاه.. كل ما أعرفه عن المكتبة أن جدك أوصى بملكيّة كل ما فيها للشيخ مصطفى.. لا أعلم - صدقا - ما كان مصيرها في النهاية! ما زلت لا أفهم لم تذكرت كل ذلك الآن يا بني!

قبل يمناها ووضعها على رأسه لتداعب بها شعره كما تفعل

- دائما - فذلك يشعره بالراحة والسعادة، ويذكره بطفولته، ثم أجابها:

- لا أعلم - صدقا - يا أمي.. شعرت للحظة أني لا أعرف الكثير عن جدي حاتم، لم تخبريني من قبل كيف مات؟!

- هل تريد أن تبكينا مجددا؟! ألا تترك لي المجال لأفرح بأنك وجدت عملا أخرجك من عزلتك وجعلك سعيدًا؟ ثم إنك لم تخبرني عنه شيئًا حتى الآن، وفضولي يكاد يقتلني وأنت تعلم ذلك جيّدًا!

نهض من حجرها وأخذ يقبل رأسها هاربا:

- سأخبرك ما إن تخبريني كيف مات جدي حاتم.

أخذت نفسا عميقا ثم تنهدت قائلة:

- لن أستطيع التغلب عليك.. أليس كذلك! حسنا سأخبرك بما أعرفه حول موت جدك، لقد كانت رحلة من رحلات البحث الكثيرة التي يقوم بها، ولا نعلم عنها إلا بعد رحيله، وكان معه رجلا يدعى «جمال آغا»، تلميذه على ما أتذكر، وكانت خارج البلاد كما تعلم في المغرب، المكان الذي كانوا فيه انهار عليهم ليموت جدك تحت الأنقاض، وينجو ذلك المدعو «جمال» بإصابات بالغة الخطورة، لم نسمع شيئا بعدها عن تلميذه ذاك، ولم يحضر لتقديم واجب العزاء حتى يومنا هذا!

أصاب سراج صداع شديد في رأسه، وشعر أنه ما عاد قادرا على سماع المزيد، استأذن والدته وهو يضع يده على رأسه من شدة الألم:

- سأذهب للنوم يا أمي فرأسي يؤلمني، وسأستيقظ باكرا للعمل.. سأخبرك عنه حين أعود غدا هذا وعد.. تصبحين على خير.

السابعة صباحا في اليوم التالي كان في انتظارها في مضيفة الفندق، وأعلمها بذلك هاتفيًا حين وصل، لم تتأخر عليه ويبدو أنها شخص يلتزم بمواعيده، طلت عليه بملابس واسعة ومخاطة يدويا كالتي رآها ترتديها البارحة بالإضافة لنظارة شمسية كبيرة تغطي نصف وجهها تقريبا مع حقيبة كتف نسائية صغيرة.

- صباح الخير يا سلكاوي.. سنذهب للجامعة - أولا - لتقديم بعض الأوراق الخاصة بالدكتوراه.

كان قد طلب كوبا من القهوة أنهاه سريعا ونهض، ما أقلقه هو التعامل مع شؤون الطلبة داخل الجامعة، لا يفعلون شيئا سوى: وقّع هذا الطلب من فلان.. اختم هذه الورقة من فلان.. ورّد هذه النقود في الخزينة.. اذهب وأحضر بعض الطوابع.. اذهب لمدام عفاف في المريخ ستجدها تقوم بعمل بعض

الكوسة احضرها هي والكوسة وتعال. حدث نفسه:

- كم أكره المصالح الحكومية وإنهاء المعاملات!

خاب ظنه حين وصلا للجامعة، ولم يحدث شيء من ذلك إطلاقا، أوصلها للمبنى الإداري كما طلبت وهي تقول في ثقة كبيرة:

- سنذهب لرؤية السيد رئيس الجامعة، وهو سيهتم بإنهاء كل الأوراق المطلوبة.

بالفعل صعدوا للطابق الذي فيه مكتبه ليستقبلهم أحد أفراد الأمن متسائلا:

- ماذا تريدون يا أستاذ؟

كاد أن ينطق لولا أنها أخرجت من حقيبتها بطاقة ما وأعطتها له قائلة:

- اعط هذه للسكرتارية لو تكرمت وهم سيفهمون.

ما هي إلا لحظات قليلة من الانتظار حتى خرج إليهم أحد الرجال المهندمين يرتدي زيًّا أنيقا ويبتسم مرحبا:

- أهلا د.لورين.. السيد رئيس الجامعة في انتظارك.

جلس الفتى منتظرا خارج مكتبه لأكثر من ساعة بعدما

سمحوا لها وحدها بالدخول، أنهت ما جاءت لأجله سريعا فقد طلبوا لها مدير الشؤون المركزية في الجامعة والذي جاء مهرولا لأخذ أوراقها، تمت توصية أحد نواب رئيس الجامعة بمتابعة ما تحتاجه شخصيّا بنفسه، خرجت ومعها بعض الأساتذة يحدثونها ويبتسمون لها ليوصلوها خارج الطابق.

- هيا بنا يا سراج.. فقد انتهى عملنا هنا.. سأدعوك للفطور.

لم تكن وظيفة صعبة بالنسبة إليه، وإنما مملة بعض الشيء، فهما لا يفعلان شيئا سوى الذهاب للأماكن والأكل، وكل ذلك على نفقتها الخاصة بالإضافة لراتبه الشهري. استمرت الحال هكذا طيلة عشرة أيام تستكشف فيها المحافظة وأماكنها ليلا والجامعة صباحا، كان سراج مندهشا من معارفها وما تستطيع الوصول إليه؛ فقد أخذته يوما للديوان العام لمقابلة المحافظ وجلسوا سويّا، وكانت تحدثه وكأنّها صديقته منذ الصغر، في ظهر اليوم الحادي عشر حدثته وهي تغادر للفندق.

- يكفي عمل حتى الآن.. يمكنك الذهاب إلى البيت، أو أيًّا ما تريد أن تفعل لبقية اليوم، ولكني سأحتاجك غدا في عمل هام لا يشبه ما نفعله يوميا.

- هل يمكن أن أعرف ما نوع ذلك العمل؟

- سنذهب في زيارة لإحدى القرى التابعة للمحافظة في نهاية اليوم، وربما نبيت هناك.

في استغراب شديد سأل:

- ولكن ماذا سنفعل هناك في وقت متأخر يجعلنا نبيت؟!

- لي صديق عزيز سنزوره وبالتأكيد لن يتركنا نغادر هكذا.. بالإضافة إلى بعض الأشياء المهمة التي يملكها في أبحاث الدكتوراه خاصتي.

كلامها أثار الكثير من التساؤلات لديه وأقلقه أيضا، ولكن ما كان منه إلا أنه لم يعر اهتمامًا لما دار في باله، قائلا:

- لا توجد أيّة مشكلة لدي.. سأكون جاهزا في الموعد.

شعر في داخل نفسه للحظة أن لورين هذه غامضة بعض الشيء، وربما مغفلة! مع وجود كل تلك المعارف المهمة لديها تستعين بمساعد لا يفعل شيئا يصعب على معارفها توفيره لها وتعطيه أربعة آلاف جنيه، بالإضافة لطعامه وشرابه وما تدفعه من مصاريف إضافية! حدثه يخبره بأنها تخفي شيئا عنه، ولم يكذب حدثه من قبل، حدث نفسه:

- لماذا تسرعت ووافقتها أصلا! يبدوا أني أنا المغفل في النهاية!

بعدما قرر سراج العودة للمنزل، وجد قدمه تأخذه نحو متجر العطارة، فرح الصبية لما رأوه قادما عليهم من بعيد فقد طال غيابه، بدأوا في احتضانه وتقديم واجب العزاء، وبعض الكلمات المواسية، في الداخل بدأ في تأمل جدران المتجر ورفوفه الخشبية القديمة، وتلك الرسومات على الجدران التي لم يلاحظها من قبل! غلبته دموعه وهو يتذكر الشيخ مصطفى والذكريات القليلة التي جمعتهما سويًّا، لم يتحمل البقاء أكثر خاصة وأن دموعه تحولت لبكاء مسموع، غادر شريدًا حزينًا دون حتى أن يلقي السلام على الصبيان في المتجر، جرى أحدهم خلفه مناديا: يا أستاذ سراج.. ليستوقفه:

- لقد وجدنا العصا الخاصة بالشيخ مصطفى، ونحن نقوم بتنظيف المكان منذ أيام.

أعطاه الصبي العصا، وعاد للمتجر ليتساءل سراج بدوره:

- لكن كيف! لقد كانت العصا مع الشيخ ذلك اليوم!

وصل للمنزل وذهب إلى غرفته مباشرة ليضع العصا جانبا ويستلقي على سريره لدقائق، بعدها اتجه لمكتبه، وأخرج المظروف الذي يحتوي على وصية الشيخ الغريبة، بدأ في قراءتها مرارًا وتكرارًا، وما زال لا يفهم شيئا منها، أو تحديدا الجزء غير المتعلق بممتلكات الشيخ التي كتبها له، أخرج

هاتفه وقرر استبدال صورته الشخصية على تطبيق فيس بوك فقد أخذ العديد من اللقطات الجميلة الأيام الماضية بسبب كثرة الأماكن التي زارها ولورين، ألقى الهاتف مرة أخرى بجواره، وأطال النظر والتأمل في خاتم الشيخ، الكثير من النقوشات الغريبة تملؤه من الداخل ومنحوت عليه كلمات بلغة أغرب لم ير مثلها من قبل! حدث نفسه:

- ابحث عن النجمة تجد ضالتك وتفهم كل شيء.. لم يكتب حتى أين أجدها ليسهل عليّ! ولم يخبرني شيئا عن تلك الضالة التي يجب أن أبحث عنها! يجب أن أبحث عن شيء لا أعرف ما هو أصلا.. عظيم!

جاء صوت إشعار من الهاتف ثم تبعته رسالة، أمسك الهاتف وفتحها بسرعة ليجدها كالتالي: يجب أن تحذر من الفتاة خلفك في الصورة، إذا ربطتك بها أيّ علاقة فأنت في خطر».. تساءل متعجبا:

- عن أيّ فتاة تتحدث يا ترى! ما هذه الرسالة الغريبة؟!

في توتر وقلق فتح الصورة التي استبدلها منذ لحظات، وتأمل فيها ليجد لورين يظهر وجهها من خلفه، يبدو أنه دون قصد منه، أو منها ظهرت في الصورة وتطبيق «فيس بوك» وضع إشارة لها لما قام بتحميلها، ضرب بيمناه جبهته صائحا:

- كيف لم ألحظ وجودها في الصورة؟!

بسرعة قام بحذفها من عنده قبل أن تراها وتحدث مشكلة ما خاصة، وأن ذلك بدون إذن مسبق منها، عاد مرة أخرى لصاحبة الرسالة «روان آغا» والتي كانت قد أرسلت له من قبل وتجاهلها، دخل على صفحتها ليعرف أي شيء عنها، ولكن بلا جدوى فقد كانت صفحة مزيفة، لا توجد صورة شخصية أو أي معلومات تدل على صاحبة الصفحة، أرسل لها: من أنت؟ وماذا تريدين؟ أجابته في اللحظة نفسها: لا يهم من أنا، المهم هي مصلحتك الآن، وأن تكون بأمان، تريد أن تعمل بنصيحتي خير لك، لا تريد فأنت في خطر، ولك الحرية في فعل ما تشاء وتحمل العواقب.

الرسالة التالية التي حاول إرسالها لم تصل «لا يمكنك مراسلة هذا الشخص في الوقت الحالي.. اضغط لمعرفة المزيد..» صاح في غضب وألقى بهاتفه أرضا بقوة.

- وكأن الأمر ينقصه حدوث ذلك أيضا!

أعاد الأوراق للمظروف، ومنها لمكتبه وأغلق عليه، أحضر هاتفه الذي أصابت شاشته بعض الكسور جراء الرمية، وأغلقه في غضب ورماه على المكتب، دخلت أمه عليه دون طرق الباب كعادتها:

- ماذا حدث يا بني؟! لم صوتك عال هكذا؟!

- لا شيء يا أمي.. جهزي لي الحمام إذا سمحت.. سأستحم وأنام فأنا متعب.

في منامه رأى الشيخ مصطفى يرتدي جلبابا ناصع البياض، وفي يمناه عصاه تغطيها الكثير من آيات القرأن الكريم على عكس تلك التي كانت معه في حياته، فقد كانت آيات أقل، يشع وجهه نورا ويبتسم ابتسامة ينشرح لها الصدر، كان الشيخ يجلس على شاطئ بحر ما شديد الصفاء بحيث يمكنك رؤية الأرض والأسماك، هناك رجل آخر يجلس بجواره عجز الفتى عن معرفة من يكون برغم سهولة تعرفه على الشيخ واقترابه منهما.

- لقد افتقدتك كثيرًا يا شيخ مصطفى.. الله وحده يعلم مدى وحدتي وحيرتي التي تركتني فيهما!

لم يجد الفتى ردا من الشيخ، وكأنه لا يراه، تحرك ليبقى أمامهما مباشرة ولكن دون جدوى فلم يعره أي منهما انتباها، انتفض للوراء خائفا ليسقط في الماء لما رأى أن الرجل الآخر بوجه فارغ لا ملامح فيه، سرعان ما انقلب هدوء المكان رأسا على عقب لقدوم موجة كبيرة على شكل إنسان بفم وأنف وعينين يملؤهما الغضب، وفي صوت غليظ: لا تهرب من قدرك في الغد وارتد الخاتم فستحتاجه. ابتلعته الموجة

وسحبته للأعماق وهو يصارع للبقاء حيًّا؛ قام الفتى مفزوعا من على سريره وهو يصيح: لا أريد أن أموت..أنقذوني. كانت أمه قد ألقت على وجهه بعض قطرات المياه ليستيقظ برغم علمها كم يكره تلك الطريقة، صاح في غضب:

- ألم أخبرك من قبل أن لا توقظيني هكذا يا أمي! سأموت منك في إحدى المرات بالتأكيد!

- هاتفك لم يتوقف عن الإزعاج منذ فتحته؛ لأرى فيه الساعة.

- ماذا! قمتِ بتشغيل الهاتف!

- هناك فتاة تسمى «رولين» تقريبا تتصل بك كثيرا!

- لورين يا أمي لورين.. كم الساعة الآن؟!

- إنها الرابعة عصرًا يا عزيزي.

نهض مسرعا وهو يتعجب..

- الرابعة عصرا! هل كنت في غيبوبة؟!

هاتَفَها ليعتذر منها فأخبرته بأنها ستمر بعد ساعة لتقله من أمام البيت.. استحمى سريعا وارتدى ملابسه وبجوار السرير، وهو يتعطر وجد خاتم الشيخ.

- يبدو أني نسيت وضع الخاتم في المظروف البارحة!

وقف يتأمل شكله في مرآة الغرفة، ثم وضع الخاتم في

إصبعه وبدأ يتأمل شكله، كان الخاتم جميلًا في يده فسيطرت عليه فكرة النزول به هذه المرة، وخلعه عند عودته، فبطبيعته لم يحب طيلة حياته وضع الخواتم، أو ارتداء السلاسل، أو حلقات اليد بمختلف أشكالها، وضع حقيبة كتفه الزرقاء على ظهره وهمّ مغادرا.

- أمي.. قد أبيت الليلة خارج المنزل فلا تقلقي عليّ.

في الشارع انتظر لدقائق قدوم لورين والتي كانت تركب عربة سياحيّة فاخرة ذات سقف عال، مكيفة وذات مقاعد فخمة وستائر تعزلها عن ما هو خارجها، كانت في العربة من الخلف لورين وحدها تنتظره، وفي الأمام السائق وبجواره رجل آخر قويُّ البنية، أشبه بلاعبي كمال الأجسام، تحركوا من أسيوط في تمام الساعة الخامسة، ووصلوا للقرية التى كانت تدعى «التتالية» في السادسة، سارت العربة في شوارع القرية قرابة الربع ساعة حتى فُتِح لهم باب كبير دخلوا منه، وأغلق من خلفهم لتتوقف العربة أخيرا في باحة بيت ما، نظر الرجل بجوار السائق لهما في الخلف قائلًا:

- لحظات وسأعود.

لم تزد لورين على أنها أومأت برأسها علامة الإيجاب، عاد الرجل بعد لحظات قليلة ليفتح باب العربة الجرار ليجدوا أنفسهم بداخل بيت كبير يشبه السرايات لا يمكن تخيل وجود مثله في قرية! عاد الرجل ليقطع شرودهم:

- من هنا ستتركنا العربة، وسنكمل على أقدامنا حتى نصل وجهتنا:

كررت لورين إيماءتها السابقة دون أي رد، نزلت أولا وقامت بخلع عبائتها الواسعة الطويلة، وغطاء رأسها ليظهر بنطال وقميص وحزاء رياضي ومسدس مستقر في جانبها ليصيح سراج في تلقائية:

- أهذا مسدس؟!

- نعم إنه مسدس.. أنت لا تتخيل.. ستجد أسفل كرسيك واحدًا أيضا.. ارتد الحزام الجلدي الخاص به وضعه في جانبك، أو في حقيبة ظهرك كما تحب فسنتحرك الآن.

كان سراج حائزا على نيشان من القوات المسلحة في إطلاق النيران وإصابة الأهداف بدقة عندما كان في الخدمة، لم تكن المشكلة في تعامله مع السلاح، ولكن فيما سيحتاج إليه وهما في زيارة لصديق لها؟! في غضب توقف مكانه، ولم ينفذ ما قالت ثم تنحنح قائلًا:

- هذا يكفي.. يجب أن أفهم ماذا يحدث ولم نحن هنا؟! لن أتحرك خطوة أخرى من مكاني حتى تخبريني.

وضعت حقيبة كتفها على ظهرها وهي تتحرك خلف ذلك الرجل قوي البنية تاركة إياه خلفها بعدما أخبرته قائلة:

- إذا لم تتبعني سيقتلونك.

- هاه.. يقتلونني!

ما كان منه إلا أن أحضر سلاحه وحقيبته وجرى خلفها فالمكان مليء برجال ضخام البنية ومسلحين، كان للبيت ممر خلفي يشبه الحارات الضيقة مشوا منه حتى خرجوا للشارع، ولكنهم تجنبوا الشوارع الرئيسية الكبيرة والمليئة بالناس، مرت قرابة العشرين دقيقة وهم يتجنبون أن يراهم أحد والخوف يعتلي وجه سراج الذي أخذ يحدث ويعاتب نفسه طيلة الطريق:

- لم أقحمت نفسي في كل ذلك! ترى هل سيقتلونا؟! هل سأرى أمي مجددا؟!

وصلوا إلى نهاية المطاف لبيت قديم على أطراف القرية، طابق واحد ويحيط به سور كبير من الخارج يصل ارتفاعه قرابة الثلاثة أمتار، تحيط به الأراضي الزراعية من بعض الجهات، تحدث الرجل قوي البنية والذي يبدو أنه كان

الدليل:

- هنا ينتهى دوري سيدتي.

لحظات من مغادرة ذلك الرجل، وفتح باب صغير في وسط البوابة الحديدية الكبيرة لذلك البيت يكفي لدخول وخروج فرد واحد حتى لا يرى من بالخارج ما يحدث داخل البيت، تحركت لورين لتدخل فاستوقفها سراج متسائلا:

- هل ستدخلين هكذا دون أن يأذن لك أحدهم؟!

ضحكت ساخرة وهي تضرب كتفه بمؤخرة يدها:

- هلا أنهيت عويل النساء خاصتك هذا وتقمصت شخصية الرجل التي أنت عليها؟

في الداخل كان هناك قرابة الخمسة عشر رجلا يحملون البنادق الآلية كتلك التيس اعتاد على رؤيتها في الجيش، كلهم بالطبع يرتدون الجلباب الصعيدي المعتاد والعمامة فوق الرأس مع بعض الشوارب المخيفة، كان هناك واحد فقط يرتدي زيًّا أنيقا ومهندما وفوقه عباءة مفتوحة، وملامح وجهه ولحيته التي يكسوها الشيب تدل على أنه في الخمسين أو الستين من عمره، صافحته لورين بيدها على غير المعتاد منها، بل وقبلت يده أيضا! تحركوا سويًّا لدخول البيت.

- يعمل الرجال على الحفر منذ ثلاثة أيام يا لورين.. ويبدو أنهم أخيرا وصلوا لمدخل المقبرة.

توقف سراج من خلفهم مصدوما مما سمع، ثم علا صوته:

- مقبرة! تتاجرون في الآثار؟!

نظر له ذلك العجوز غاضبا ثم أشار بيمناه للرجال من خلفه ليهجما عليه ويحكمان إمساكه.

-هل تريدين زجنا بالسجن يا لورين؟! من هذا الأحمق؟!

ضحكت لورين في برود أعصاب وهي تقول:

- اتركوه.. لا تقلق يا شيخ تمام هذا مساعدي سراج ووجوده هنا مهم جدًّا.. إنه مصدوم ومتفاجئ، فهي المرة الأولى له.

- اشرحي له الأمر حتى لا أجعل رجالي يدفنونه حيًّا هنا.

أكمل الشيخ بخطوات سريعة ومن خلفه رجاله ليتركوهما معا في مدخل البيت.. همست لورين في غضب:

- هل أنت غبيٌّ يا هذا؟! أتريدهم أن يتخلصوا منا هنا؟!

صاح بدوره:

- آثار! وتقولين دكتوراه وأبحاث!

- أنت غبيٌّ وتتعجل الأمر.. الموضوع ليس كما يبدو، فهو أكبر مما تتخيل.. ولن أستطيع شرح كل شيء الآن.. يجب أن تهدأ حتى نخرج من هنا على أقدامنا أحياء.

- لقد حدثت نفسي بأن خطبًا ما بك، وأنك تخفين شيئا.. كنت أعلم أني سأكون المغفل في النهاية!

هزت رأسها في أسف وهي تقول:

- أكمل ما تفعل إن أردت أن تدفن هنا حيًّا.

قالتها وهمت بالمغادرة لتتركه وحيدًا غاضبا وخائفا، وهو يحدث نفسه:

- عظيم! إنها المرة الثانية التي تقوم فيها بتهديدي بالقتل ثم تتركني وتذهب وكأن لي حرية الاختيار!

لحق بها وهو مغلوب على أمره لنهاية الممر الذي يؤدي لباحة واسعة لا سقف لها، ولا غرف فيها، والتي تشغل أكثر من ثلثي مساحة الطابق تقريبا، عمال ومعدات حفر ونفق كبير يصل عمقه لقرابة الخمسة أمتار مثبت على جوانبه الكثير من الألواح الخشبية الكبيرة لمنع انهيار النفق وحماية من بالأسفل، في المنتصف هناك آلة لرفع مخلفات الحفر من رمال وحجارة بالإضافة لسلم خشبي بدائيّ على أحد جوانب

النفق لصعود ونزول العمال، خلع الشيخ «تمام» عباءته وأعطاها لأحد الرجال المسلحين من خلفه.

- اتركوا هواتفكم النقالة هنا يا لورين يا ابنتي.

أخذت لورين هاتف سراج وهاتفها في سرعة استجابة لطلب الشيخ وأعطتهم لأحد رجاله ثم أضافت:

- هل هناك مشكلة في أسلحتنا؟

- ليست هناك مشكلة يا ابنتي، ولكن تجنبوا أيّ تصرف خاطئ بالأسفل.. وقتها لا تلوموا إلا أنفسكم.. لن أخاطر بحياتي من أجل أحد.

أومأت لورين برأسها علامة الإيجاب.. ابتسم لها الشيخ ونزل ومن خلفه أحد رجاله ثم تبعتهم هي وسراج، ومن خلفهم بقية رجال الشيخ، لما لامست أقدامهم الأرض كان هناك نفق أفقي صغير أمامهم يمتد لثلاثة أو أربعة أمتار بارتفاع مترين مثبت جيّدًا من جميع جوانبه بألواح خشبية أكبر نسبيًّا من التي سبقتها، كان هناك اثنان من الرجال غير المسلحين في نهاية النفق يقومون بالحفر.. اتضح لهم لما اقتربوا منهما أنهما يقومان بتنظيف جدار حجري مليء بالنقوشات الفرعونية، وعلى ما يبدو أنّه مدخل المقبرة الذي تحدث عنه الشيخ في الأعلى مع لورين.

- لولا معلوماتك القيمة لما كنا وصلنا بهذه السرعة إلى مدخل المقبرة.

قالها أحد الرجلين وهو يتقدم نحوهم مبتسما ويمد يده لمصافحة لورين.

- جمال آغا.. أستاذ الآثار المصرية القديمة بجامعة القاهرة.

ابتسمت له لورين بدورها وهي تمد يدها قائلة:

- تشرفنا يا أستاذ جمال.. سمعت عنك الكثر من الشيخ تمام.. وبالمناسبة قرأت بعض الأوراق البحثية التي تخص علم الرموز التي نشرتها سابقا.

تجاهل إطراءها وهو ينظر لسراج من خلفها متمسمرا للحظات ثم تقدم نحوه وهو يحدث نفسه: مستحيل! ثم علا صوته..

- تذكرني بأحدهم يا فتى.. رجل كنت أعرفه جيدا، وتعلمت منه الكثير في الماضي.. هذا الرجل ضيع عمره محاولا الوصول لهذه المقبرة ودخولها و..

قاطعه الشيخ تمام.

- دعك منه يا جمال.. إنه مساعد لورين.. فلنركز على ما جئنا من أجله.

- هل ستفتحون المدخل الآن يا شيخ؟!

- ما تراه لورين مناسبًا، فهي الوحيدة التي تعلم.

كانت نهاية النفق عبارة عن جدار حجري كبير مليء بالنقوش بعضها فرعوني، وبعضها كتابات غريبة لا تمت للمقابر الفرعونية بصلة، هناك نقش أكبر نسبيا مما حوله لتيس عابس يخرج لسانه مع قرنين على الرأس، تقدمهم جمال لنهاية النفق قائلا:

- الشيء الغريب هنا هو عدم تناسق النقوشات على الجدار، والتي تختلف من أسرة فرعونية لأخرى، بجانب النقوشات والكلمات الغريبة التي لا علاقة لها بالفراعنة أصلا.. كل ما استطعت فك رموزه حتى الآن هي جمل تحذيرية ولعنات ستصيب من يدخل بدون إذن!

كان في الأسفل أحد عشر رجلا مسلّحًا من رجال الشيخ أمرتهم لورين جميعا بالتراجع، سحبت سراج من يده وتقدمت نحو نهاية النفق لتخرج سكينا حادا من جنبها وتجرح كفه على حين غفلة وتوجهها نحو الجدار الحجري، بدت علامات الاندهاش والصدمة على وجوه الجميع الذين تفاجؤوا مما فعلت لتبدأ قطرات الدم في التساقط على الجدار، كان الجميع وأولهم سراج ينتظرون تفسيرا لما حدث، تراجعت لورين للخلف خطوات قليلة وهي تقول:

- أتمنى أن يكون ما جال في خاطري صحيح وتنجح الفكرة و..

بدأ المكان في الاهتزاز من حولهم ليسقطوا جميعا أرضا، ويتشبث كل منهم في الآخر، تحامل الشيخ تمام على نفسه ونهض متوجها في بطء شديد نحو الجدار، وهو يتمتم بكلمات غريبة ثم بدأ صوته يعلو تدريجيا حتى هدأت الهزات، وعاد المكان لسكونه من جديد، صاح غاضبا في لورين:

- هلا توقفت عن مفاجئتنا، وبدأت في تفسير ما يحدث.. لا يريد أي منا الموت هنا!

قاطعهم جمال آغا متسائلا:

- لم قد تفعلين شيئا كهذا؟!

في هذه الأثناء انفلق الجدار الحجري مع بعض الهزات والموجات الارتدادية التي دفعتهم جميعا بقوة لبداية النفق، هدأت تدريجيًّا مع صياح الشيخ بالكلمات الغريبة نفسها كالتي نطقها منذ لحظات، هبت ريح غريبة مع صوت يجتذب الفتى للداخل وكأنه يتلاعب بعقله ويخاطبه، بدأ سراج في التحرك لا إراديًّا نحو مدخل المقبرة الذي انفتح للتو لتستوقفه لورين ممسكة بقدمه وهي تصيح فيه برغم أنها

ملقاة أرضا:

- لاااااا يا سلكاااااوي..

تحامل جمال آغا ونهض ليحتضنه، وهو يلطمه على وجهه بقوة ليفيق..

- ماذا حدث لك يا فتى؟! وما تفعل بتوجهك هكذا للمدخل؟!

رد سراج بعدما أفاق على إثر اللطمة القوية:

- ما.. ماذا حدث؟!

- لا عليك يا فتى.. هل أنت بخير؟

أجاب في بلاهة:

- نعم.. أظنني بخير.

نزع الشيخ تمام سترته وربطة عنقه ووضعهم أرضا، وتحرك خطوات نحو الجدار، وجلس القرفصاء وبدأ في إلقاء بعض الكلمات الغريبة مجددا طالبا منهم عدم مقاطعته..

-لا يقاطع أحد منكم جلستي حتى أنهي بعض الطقوس لمنع تكرار تلك الهزات.

بالفعل بدأ الشيخ في طقوسه تلك، والتي دامت قرابة

النصف ساعة، وهنا بدأ سراج في استيعاب دور الشيخ تمام في دخول تلك المقبرة. ما إن انتهى أشار الشيخ لاثنين من رجاله بإزاحة الصخور التي تخلفت أمام المدخل ثم أشار لاثنين آخرين بالتقدم والدخول، حملوا بنادقهم في وضعية التصويب وتقدموا حاملين مصابيح كهربائية بجوار السلاح للإنارة، وجهاز اتصال لاسلكي للتواصل معهم، ونقل ما يرون بالداخل للشيخ والذي حذرهم بدوره بلهجة صارمة:

- تجنبوا إطلاق النيران في الداخل، ولا تتقدموا لأكثر من المتر ونص بخطوة واحدة.. تدخلون وتخبروني بما ترون وتنتظرون أوامري.

في الخلف كان هناك سراج ولورين وجمال وانضم لهم الشيخ في انتظار ما سيحدث بعد دخول الرجلين، وفي المقدمة ما تبقى من الرجال حاملين أسلحتهم في وضعية الهجوم.. في النهاية كان الجميع على علم بأن مثل تلك المقابر لا تخلو من الفخاخ، وما خفي كان أعظم، مالت لورين على أذن جمال وهمست:

- أنت تعلم أن الهواء في الداخل ربما يكون مسموما، وربما تكون الفخاف موجودة بمجرد دخول المقبرة.. هؤلاء الاثنان في عداد الموتى.

ضحك الشيخ تمام في مكر، وهو ينظر لهما قائلا:

- كيف لنا أن نعرف إذن؟!

كتم سراج الكثير مما دار في مخيلته في هذا الوقت، وأراد أن يصيح في الرجلين بالعودة، ولكن كان قد فات الأوان، وخطيا بأقدامهم داخل الجدار، لحظات قليلة وبدأ التواصل عبر الجهاز في يد الشيخ:

- نحن في الداخل الآن، ونحافظ على المسافة.

- جيد.. الآن أخبرني ماذا ترى؟

- نحن على بعد متر من الحائط، ويبدو أن أمامنا ممر مليء بالكثير من النقوشات، ولا تصل إضاءة المصابيح لنهايته.. على ما يبدو أن الوضع هنا جي...، لقد ظهر قط يا شيخ.. أصبحوا اثنين

صاح الشيخ في الجهاز:

- تراجعوا ببطء، ولا تطلقوا النيران وتقتلوا القطط.. تراجعوا.

- أصبحوا خمسة يا شيخ ويلتفون حولنا في نظرات حادة مليئة الغضب.

- لا تطلق النيران مهما حدث، وحاول التراجع فى بطء.

لحظات من الصمت في الداخل، والجميع ينتظر ما سيحدث بعد ذلك، تحدث الرجل مرة أخرى في خوف:

- القطط دخلت واختفت في ظلام الممر ولك... ولكن الرجل الذي معي بدأت الدماء تسيل من أذنيه وعينيه و...

وبدأ يتنهد وكأنه يلتقط أنفاسه بصعوبة شديدة، ثم عاود في توتر:

- لقد وقع أرضا.. إنه يحتضر!

*****

سمعوا بعدها صوت ارتطام الجهاز بالأرض، وصوت طلق ناري متعدد والرجل الذي كان يحدثهم عبر من المدخل خرج يجري نحوهم ليسقط أرضا هو الآخر، عينان جاحظتان والدم يسيل منهما وكذلك الأمر بالنسبة للأذن، توجه الرجل زحفا نحو الشيخ وهو يستغيث في صوت يكاد يكون مسموعًا:

- أنا أختنق.. أرجوك افعل شيئا.

لم يستطيعوا حتى الاقتراب منه لعدم معرفتهم ما أصابه ليفارق الحياة، وهو ممسك بقدم الشيخ، تشجع جمال واقترب منه ليرى ما أصابه.

- يبدو أنّ الهواء بالداخل مسموم كما توقعنا، وهو ما تسبب له بالاختناق.. يجب أن نوقف عملية الدخول الليلة، وإلا سيصيبنا جميعا ما أصابه.

تحدث الشيخ في نبرة حادة:

- القطط التي رأوها في الداخل.. يبدو أنهم حراس المقبرة وسيحولون دون دخولنا.. وما لا تفهمونه أنه لا نستطيع التراجع الآن فقد نهلك جميعا حتى الصباح.

- يجب أن تنقي المقبرة من الهواء الملوث يا شيخ، ولا ضير من انتظارنا الليلة.

- افهم يا جمال أرجوك.. رصد المقبرة يمكنه الخروج الآن والعبث بعقولنا وجعلنا نقتل بعضنا البعض هذا إن لم يقتلنا واحدًا تلو الآخر بنفسه.

- ما فائدة العلم الذي تعلمناه والبحوث التي عملنا عليها إذا سمعنا كلامك وألقينا بأنفسنا إلى التهلكة!

وضع الشيخ كفه الأيسر على جبهته وأخذ يهز رأسه فى حيرة وخوف:

- سأعمل على منع خروج أي شيء من تلك المقبرة قدر المستطاع حتى تجدون وسيلة تسرع من عملية الدخول.. لا

أريد أن تكون نهايتي بائسة هكذا!

طرقع سراج أصابعه وهو يصيح من الخلف:

- لديّ فكرة!

نظر له الجميع في اندهاش حتى شجعه جمال مشيرا له أن يكمل.

- ماذا لو استخدمنا أقنعة واقية من الغاز؟!

- فكرة رائعة يا فتى!

قالها الشيخ ثم أشار لأحد رجاله وهمس في أذنه:

- لدينا - تقريبا - ساعتان حتى يعود هذا الرجل ومعه الأقنعة، وهذا سيضمن حمايتنا من الهواء المسموم في الداخل، ولكن سيبقى الخطر الأكبر وهوالفخاخ ورصد المكان بالطبع.

طلب منهم الشيخ بعدها الصعود والانتظار في الأعلى ضمانا لسلامتهم وعدم التعرض للأذى جراء الطقوس التي سيجريها ويستخدم فيها خدمته من الجن، كل ذلك أثار الرعب في نفس سراج الذي وجد نفسه أمام مقبرة فرعونيّة تحت الأرض، وسط رجال مسلحين، وانتهى الموضوع برجل يتعامل مع الجن على عكس لورين وجمال اللذين لم يحرك

لهما ساكنا وكأنهما معتادان على كل ذلك. تحدثت لورين:

- هيا لنصعد.. أحتاج مراجعة أوراقي البحثيّة، وبعض الأشياء قبل دخول المقبرة.

أشارت لأحد الرجال أن يتقدمهم للأعلى بعدما دخل الشيخ في حالة تأمل أمام المدخل، بالطبع كان قد طلب من رجاله تنفيذ كل ما تطلبه لورين منهم. في الأعلى جلسوا وطلبوا فنجاني قهوة هي وجمال بعدما أخرجت أوراقها ليدور بينهما الحديث التالي:

- كيف عرفتِ أن دم الفتى سيكون ذا قيمة هنا؟!

- إنّه موضوع طويل، ولكنني سأخبرك.. لقد كنت موجودة في المغرب عام ألفين وستة.. والدي كان دليل السيد حاتم السلكاوي وصديقه.

- الدليل!

- نعم.. لقد مات معه تحت الأنقاض، وترك لي تلك الأوراق والملاحظات التي أوصلتنا إلى هنا الآن.

توقفت للحظة لتمسح دمعتها التي هربت منها، ثم أكملت:

- هذا إرث والدي الذي خسر بسببه حياته.. أريد أن أرى بنفسي، وأفهم هل كان يستحق؟! هل تستحق كنوز الدنيا أن

يترك الرجل ابنته الوحيدة من أجلها وهو يعلم أنها في أمس الحاجة إليه خاصة بعد وفاة والدتها؟!

لم تستطع منع دموعها أكثر من ذلك فغلبها البكاء، بكت بحرقة.

- لن أترك هذه المقبرة قبل معرفة ما بداخلها هل كان يستحق أن يضحي هو والسيد حاتم بحياتهما من أجله!

- لقد كنت معهما في المغرب لعلمك.. تعرفت على والدك فهد التميمي وقتها وجمعتني به علاقة جيدة، وتعلمت منه بعض الأشياء، ونحن الاثنان كنا نتعلم من حاتم، لكن لم أكن أعلم أن لديه نسخة من أبحاث حاتم حول تلك المقبرة، ولا حتى أن لديه ابنة! صحيح أنني أصبت إصابات بالغة مع بعض الكسور، إلا أنّ والدك أنقذ حياتي، وفضل عدم ترك حاتم، ولكن لم يسعفهما الوقت فانهار عليهما المكان.

- لم يأت والدي على ذكرك في مذكراته الشخصية! المهم أنني تركت المغرب بعد تلك الحادثة، ورجعت اليمن لأعيش وسط عائلة أمي.. أكملت دراستي وتفوقت لأدرس في الجامعة وأحقق حلم والدي.. اهتممت بدراسة الفيزياء الجزئيّة، والماورائيات وهذا سبب معرفتي بالشيخ تمام.

- ماذا عن الفتى؟!

- سراج هذا حكايته حكاية.. لا أعرف عنه إلا ما ذكره والدي في كتاباته.. لقد أكد على ضرورة أن يدخل المقبرة!

- إذن استخدام قطرات دمه كانت فكرة والدك!

- لديّ أوراق كتبت بخط يد السيد حاتم نفسه، وأخرى أخذها والدي من كلامه وملاحظاته، وثالثة من تحليل والدي لكل شيء حتى ذلك اليوم المشؤوم.. ومع ذلك هناك الكثير من الأشياء المبهمة الغامضة التي لم أفهمها! في النهاية كلها أجمعت على أهمية سراج في حل هذا

اللغز، وضرورة تواجده!

ما إن صعدوا أخذ سراج ركنًا في الباحة، وأغمض عينيه من التعب وراح في النوم، مرت الساعتان في لحظات لم يشعر فيها الفتى بأيّ شيء دار من حوله.

- سراج.. استيقظ لقد أحضروا الأقنعة.

قالتها لورين وهي تهز كتفه وتلقي بعض قطرات المياه على وجهه، أخرج مسدسه مفزوعا ووجهه نحوها فأفزعها لتصيح بدورها:

- أنا لورين يا سراج.. لورين!

- هاه!.. أنا آسف، ولكن لا أحب أن يوقظني أحد بالمياه.

- لا عليك.. هيا لننزل.

كان جمال يرمق سراج بنظرات غريبة لم يفهمها الأخير محدّثا نفسه:

- لم يرمقني وكأنني يتيم، أو طفل ضائع من أهله؟!

نزلوا مرة أخرى لهذا النفق المخيف والمليء بخدمة الجن والرجال المسلحين، قاموا جميعا بوضع الأقنعة والتي كانت قديمة وعفا عليها الزمن وكأنها من أيام الحرب العالمية الثانية، كانت تتكون من علبة صاج صغيرة وخرطوم بلاستيكي يصل بينها وبين القناع الجلدي تشبه إلى حد ما الأقنعة الروسيّة الصنع، ولكنها بدائيّة بعض الشيء. كان الشيخ تمام قد أنهى طقوسه وتعاويذه التي يلقيها على مدار الساعتين الماضيتين للحفاظ على سلامة الجميع ومنع أيّ شر من أن يخطو خارج أبواب المقبرة، حدثهم الشيخ وهو ينهض من جلسته:

- رصد المكان يدعى الحارث.. لم يستطع خدمتي تحديد إلى أيّ قبيلة ينتمي.. بالإضافة إلى أن أوراق لورين البحثيّة ومذكرات والدها لن تسعفنا بالداخل لأكثر من المترين.. نحن نجهل الفخاخ وما يوجد في الداخل.

في تلقائيّة وثقة تحدث سراج:

- الحارث رصد متمرد وقوي.. لا يتبع أيًّا من قبائل الجن، ولا تسري عليه قوانينها.. ومن الممكن أن يقتادنا جميعا للجنون والهزيان في الداخل.

نظر له كل من حوله في المكان بغرابة شديدة حتى قطع صمتهم الشيخ:

- ما قاله الفتى الآن صحيحًا.. بغض النظر عن كيف عرفه إلا أنّ خدمتي يؤكدون كلامه.. سنبدأ الدخول الآن واحدا تلو الآخر.. أرجوكم لا يخطُ أحدكم خطوة، أو يفعل فعلا إلا بإشارة مني.

تقدم الرجال المسلحون واحدًا تلو الآخر، كما أمر الشيخ ليعبروا المدخل، تبعهم الشيخ وجمال وفي المؤخرة سراج ولورين في يد كل واحد منهم مصباح كهربائي، ما إن خطوا للداخل حتى أصبحوا على بداية ممر مائل للأسفل ومليء بالنقوشات، كما أخبرهم الرجل من قبل، كلما تحركوا ازداد الممر ميلا وعمقا للأسفل، لم يكن سقف المكان ذا ارتفاع فقط مسافة النصف زراع فوق رؤوسهم، مع تقدمهم ازداد اتساع الممر وارتفاعه أيضًا؛ ليبدأ جمال في قراءة ما كتب بالهيروغليفية المصرية على الجدران وترجمته بصوت عال وهو يشير لهم بالتوقف..

ما قاله جمال أثار الخوف في نفوس الجميع مما جعل رجلًا

مسلّحًا يعود مهرولا للخلف، وهو يصيح بعدما ألقى سلاحه أرضا، قبل أن يخطو الرجل خطوة تجعله يغيب عن أنظارهم أصابه سهم في منتصف رأسه أرداه

قتيلا، بدأت القطط التي حدثهم عنها الرجل سابقا في الظهور واحدا تلو الآخر، كان ظهورها من العدم حولهم مرعبا بالنسبة إليهم، كلهم متشابهون في الشكل واللون والحجم، عدا واحد أصغر حجما لديه عين واحدة شديدة الزرقة، والأخرى مفقوءة مع لون شديد السواد، باقي القطط كانت ضخمة البنية بشكل لم يسبق لهم رؤيته من قبل، بدأ شكل القط الصغير في التغير بعد لحظات من ظهوره، وتزامن ذلك مع بروز حائط صخري من خلفهم ليغلق طريق العودة عليهم ويحبسهم في الداخل، تراجعوا جميعا خطوات للخلف ليصبحوا شبه متلاصقين من شدة الخوف، تشكل القط على هيئة رجل يصل طوله للمترين يرتدي وشاحًا أسود يغطي رأسه وجميع أطرافه:

- اركعوا جميعا فأنتم في حضرة الحارث.

صدرت منه في أمر شديد اللهجة والغلظة ليزداد بعدها عدد القطط من حولهم، أشار الشيخ تمام لرجاله بخفض أسلحتهم والركوع دون أن ينطق بكلمة واحدة، بدأت القطط تحوم من حولهم بعدما نزلوا جميعا على الأرض، ضغط أحد

الرجال على البندقية بالخطأ من شدة الخوف ليشير الحارث بيمناه فيطير الرجل للخلف وتبرز من الجدار الحجري أجزاء مدببة كبيرة تمر من ظهره وتخترق صدره، تراجعت القطط بعدها لتختفي في ظلام الممر الذي لا نهاية له، ويتبعها ذلك المدعو الحارث مع تردد صدى صوته: «دعونا نلهوا قليلا» مع ضحكات عالية بدأت تتردد في أرجاء المكان، اشتعلت النيران تلقائيًا في المشاعل الموجودة على جانبي الممر من أمامهم، وقفوا جميعا غير مدركين ما حصل للتو وشاهدوه بأم أعينهم! لم يترك لهم ذلك المدعو الحارث إلا الممر من أمامهم، فلم يعد هناك سبيل ليعودوا أدراجهم وعليهم المضي قدمًا في حذر، كان من الممكن أن يموت الجميع من لحظات، ولكن يبدو أن رصد المكان لم يستقبل زوارا منذ الكثير من الوقت، ويريد أن يتلاعب بأعصابهم ويقتلهم واحدا تلو الآخر بدم بارد، كان الشيخ تمام الوحيد الذي ما زال أرضا ويبدو عليه الحزن والانكسار.

- لقد فقدت التواصل مع خدمتي.. سنموت جميعا هنا.. سنموت..

تحركت لورين نحوه لتأخذ بيديه، وتربت على كتفه:

- لا يوجد أمامنا حل آخر يا شيخ سوى المضي قدما في هذا الممر.

هو رجل عجوز في النهاية لا حول له ولا قوة بدون خدمته من الجن، تقدم جمال الجميع وبدأ التحرك ليكون على رأس الرجال المسلحين ليعطيهم دفعة من الشجاعة، وذلك بحكم معرفته بالمقابر والفخاخ.

- جميعكم تحركوا خلفي وسيروا على خطواتي لنتجنب أيّ خسائر أخرى في الأرواح.. خطوة واحدة على مكان لا يجب أن تدوسوا عليه ستكلفكم حياتكم.

كان هناك الكثير من النقوش أمامهم على الأرض لحيوانات مختلفة، وهناك نقش رأوه - سابقا - على مدخل المقبرة لذلك التيس العابث، رمى جمال عليه حجر صغير فانطلق من السقف في الأمام دفعة من السهام لتصيب مكان رمي الحجر، أمسك حجر آخر لزيادة التأكد وألقاه على النقش الوحيد من بين النقوش لطائر فتصدعت الأرض وهبطت مكان رمي الحجر، أمرهم بتجنب لمس أقدامهم لنقش من الاثنين وبدأ التحرك وهو يأخذ نفسا عميقا، كان عليهم المرور واحدا تلو الآخر برغم اتساع الممر لتجنب أيّة أخطاء، ما إن تحركوا ومضوا قدما لمسافة العشرة أمتار بدأت القطط في الظهور من جديد، تظهر للحظة ثم تختفي، وهنا بدأ الرجال يخطون على الأرض

التي لا نقش فيها، وظهر فيها القط فإما تصيبه السهام

وتصرعه قتيلا، أو تهبط الأرض من تحته ويصيبه المصير نفسه، حتى صاحت لورين في غضب بعد موت ثلاثة من الرجال:

- توقفوا جميعًا في أماكنكم.. ما الذي يحدث يا جمال؟! في توتر وقلق أجاب

- صدقا لا أعرف ما يحدث!

تدخل سراج في ثقة للمرة الثانية:

- من يظهر أمامه قط يبتعد عن ذلك المكان ويخطو على الآخر.

لا يقول الفتى شيئا إلا وينظر له الجميع بغرابة شديدة، لم يمتلك أحدهم الشجاعة لتجربة ما قال؛ لذلك فإن ما حدث بعدها كان تصرفا شجاعا منه وربما يكون الأشجع في حياته كلها، فقد تقدم الجميع ليجرب بنفسه، بالفعل خطى الفتى أول خطواته، وهو يغمض عينيه خوفا مما قد يحدث، ظهر القط أمامه على غير موضع النقشين، واختفى فطبق ما قال وخطا على نقش التيس من أمامه ولم يحدث شيء، نظر لهم وهو مليء بالثقة ويتحدث متفاخرا:

- ألم أخبركم!

صاح جمال من الخلف:

- عندي وجهة نظر أخرى.. ربما تكون الفخاف تتبدل بوقت معين!

أخذ حجرا وألقاه على منطقة بعيدة عن النقشين، ولم يظهر فيها قط فانطلقت السهام لهذا الموضع.

- لقد بدأت أفهم.. أخبروني أن أحدكم يعلم وقت تحركنا!

رد عليه الشيخ في صوت واهن:

- تقريبا سبع دقائق..

اقترب جمال من سراج هامسا:

- هذا لا يعني أنك مخطئ فالتبديل مرتبط بظهور القطط واختفائها أيضًا.

بدأوا بعدها السير على ذلك المنوال حتى أشار جمال للجميع بالتوقف

- لقد تغيرت النقوش على الأرض، وهناك ضوء شديد السطوع أمامنا.. يبدو أننا وصلنا لنهاية الممر!

بدأ شيء غريب كظل لوحش ما في الظهور وابتلاع بعض الرجال المسلحين في لمح البصر لا يسمعون إلا الصرخة،

لم يتبقَ من رجال الشيخ إلا اثنان فقط، تمسمر الجميع في مكانهم دون حراك، وهذا الشيء يحوم من حولهم، تملّك الخوف وجوه الجميع؛ فلم تعد هناك قاعدة للقتل في هذا الممر، تحرك سراج في عدم اكتراث بضع خطوات وصولا لجمال ليرى تلك النقوشات الجديدة على الأرض، كانت نقوشات غريبة ولغة أغرب لم ير جمال مثلها من قبل! تقدمت لورين والشيخ ومن خلفهم الرجلان المتبقيان بدون الالتزام بأرض معينة يطؤون عليها من تحتهم، ولم ينطلق سهم واحد حتى! يبدو أنّ رصد المكان يلهو بالفعل وهو مستمتع بذلك! بعد قرابة العشرة دقائق تفكير في الخطوة التالية التي سيأخذونها للأمام هلل الشيخ وتبسم ضاحكًا كالأطفال:

- يا بشرى.. لقد عاد التواصل بيني وبين خدمتي من جديد.. دارت بينهم وبين رجال الحارث معركة ضارية لمنحنا بعض الوقت.. انتصروا بمساعدة جنة آخرين لا يعلمون من أين أتوا ولا من يتبعون!

نظر جمال للشيخ في غرابة مستفهما:

- ماذا تقصد يا شيخ؟!

- هناك من يساعدنا بالطبع، ولكنّهم لن يأتوا هنا وحدهم ولذلك هم يتبعون واحدًا من الموجودين الآن! يخبرني

خدمتي أنه لولا تدخلهم لأصبحنا جميعا في عداد الموتى!

في تلقائية قال سراج:

- بسيطة.. بإمكانك أن تعرف خدام من يكونون!

- ليس الأمر بهذه البساطة يا فتى.. لقد دارت معركة ضارية راح ضحيتها ثمانون من خدامي وما تبقى لي فهم في حالة ضعف.. بالإضافة إلى أنهم أقوى من خدمتي بمراحل، ولا يمكن استجوابهم..

عمّ الصمت بينهم لحظات حتى كسرته لورين قائلة:

- المهم الآن أنّهم في صفنا يا شيخ.. هلّا أخبرتنا ما هي الخطوة التالية أو ما المكتوب على الأرض؟

- لا تقلقوا.. لقد عرف خدامي ما هو منقوش على الأرض.. إنها نهاية الممر بالفعل!

بدأ الشيخ في التقدم على مناطق دون غيرها بإرشاد من خدامه، وهم من خلفه يخطون على خطاه، ما هي إلا دقائق حتى وصلوا لذلك الضوء في نهاية الممر، والذي جعلهم يضعون أيديهم على وجوههم من شدة السطوع، فتح سراج عينه ببطء وبدأ إزاحة يديه ليرى نفسه في باحة كبيرة جدرانها من الذهب الخالص المرصع بالألماس، والأحجار

الكريمة مختلفة الأحجام، تماثيل حجرية عملاقة في كل جوانب الباحة لرجال برؤوس حيوانية مختلفة يحمل كل منهم درعًا معدنيًّا ضخمًا في يسراه، ورمح مدبب في يمناه. الأرض ممدودة أمامهم بجبال صغيرة من الكنوز، مع تقدمهم فيها بضعة أمتار بدأوا النظر عاليًا متأملين سقف المكان باللون السماوي المرصع - أيضا - بالكثير من الجواهر والأحجار الكريمة المضيئة، وكأنها النجوم ظاهرة في وضح النهار، جبال صغيرة من التماثيل والمشغولات الذهبية الخالصة على جوانب الباحة كلما تقدموا كلما رأوها، بالإضافة للكثير من المسلات الفرعونية الضخمة التي تجعل المكان متماسكا عبر الزمن، في نهاية الباحة يوجد تمثال آخر يجلس على عرش ضخم ويضع تاجًا ذهبيًّا كبيرًا على رأسه، وصولجان ينتهي بأحد الأحجار الكريمة الضخمة التي لم يروا في حجمها وجمالها منذ دخولهم الباحة، وعند قدميه تابوت حاله كحال كل الأشياء الذهبية المرصعة التي رأوها منذ دخولهم، لفت انتباه جمال ما كتب عليه ليترجمه لهم بصوت عال:

- "هنا يرقد سيد كتاب الموتى".

كل ذلك اختفى بمجرد ظهور ذلك القط الأعور من جديد، تغيرت هيئة التماثيل الضخمة لتصبح وحوشًا شديدة القبح،

عيون جاحظة يسيل منها الدم وقرون ضخمة، ولسان مخيف كلسان الثعابين، بعض الرماح أصبحت مدببة بطرفين وبعضها الآخر بثلاث واختفت الدروع نهائيًا، وأما التمثال الجالس على العرش والتابوت عند قدميه فلم يعد لهما وجود، بدأت الباحة تضيق من حولهم مع انهيارات بسيطة في السقف من فوقهم، نطق الشيخ في قلق:

- هناك معركة أخرى على وشك أن تبدأ يستعد لها خدامي ويجب أن نستعد نحن أيضًا لتجنب القتل على يد تلك الوحوش.

بدأت القطط في الظهور واحدا تلو الآخر مرة أخرى، ولكن هذه المرة بكثرة ليصل عددها قرابة الثلاثين فقط، وذلك لم يكن الأسوأ، فتلك التماثيل الضخمة المخيفة بدأت التحرك من أماكنها، ضرب أحدهم الشيخ برمحه ليتخرق صدره ويرفعه ويلقيه على أحد الجدران معلقا إياه قتيلًا في شكل مرعب ووحشي، بعدها داس أحدهم بقدمه على أحد الرجلين المتبقيين من رجال الشيخ فدهسه تحتها، هزات أرضية ضربت المكان ليبدأ السقف في الانهيار بقوة من فوقهم لتضرب صخوره كل من تحتها دون تمييز، رأى سراج صخرة ضخمة تفتك بجمال الذي نظر له باسما مسلما لموته، وضربت أخرى تمثالا ليسقط بدوره على آخر رجال الشيخ،

جرى سراج على لورين واحتضنها قبل أن ينهار السقف بالكامل فوقهما.

*****

فتح الفتى أحد عينيه ببطء مغمضا الأخرى وهو يغطي وجهه بظهر كفه الأيسر، السماء من فوقه صافية، والشمس في المنتصف شديدة السطوع، رمال كثيرة ممدودة من تحته وتغطي أجزاءً من جسده شبه المدفون؛ ليبدأ النظر من حوله في عدم استيعاب! صحراء لا ترى عيناه آخر لها، وهناك جسد لفتاة ملقاة على بعد ثلاثة أمتار منه حالها لا يختلف كثيرا عن حاله، صداع يصحبه ألم شديد في الرأس، كاد أن يجن وبدأ الهلوسة.

- أفق يا فتى لقد مرت قرابة الساعتين وأنت على هذه الحال.

تجاهل ذلك الصوت في رأسه وحاول النهوض متحاملا على قدميه، ولكن سرعان ما وقع أرضا.

- لا تتحامل على نفسك وتجهدها يا فتى فلديك التواء في الكاحل الأيسر. نظر حوله مفزوعا فلم يجد من يحدثه!

- علام تبحث يا فتى؟!

تراجع زحفا للخلف وهو يصيح خائفا:

- من يحدثني؟!

- أرجوك لا تفزع.. لست شخصا فعليًا ستراه.. أنا صوت يحدثك داخل رأسك، ويمكنك مناداتي شداد.

حدث الفتى نفسه وهو يستلقي بظهره مجددًا على الرمال:

- يبدو أنني أهزي بفعل الشمس!

- هل ما زلت ستكمل غفوتك؟! لا وقت لدينا لهذا ولست تهزي.. الصوت الذى تسمعه حقيقيٌّ ويجب أن نجد حلًّا للمصيبة التي نحن فيها.

- لقد سمعت هذا الصوت من قبل!

- بالطبع سمعته من قبل.. لقد أخبرتك عن الحارث وأنتم في بداية دخول المقبرة.

- ولكن كيف؟!

اهدأ وركز معي قليلا وسأخبرك كل شيء، عدل سراج من وضعية نومه ليبقى في وضعية الجلوس، وهو غير مستوعب أو مصدق لما يحدث من حوله حتى الآن.

- صوت في رأسي يحدثني ويبدو أنني جننت! ربما أكون

مت تحت الأنقاض!

- لم تمت، وما يحدث من حولك حقيقي جدًّا.. يا سيدي، أنا أدعى شداد كما أخبرتك من قبل، وأنا كبير خدمة الجن الموجودين في خدمتك ورهن إشارتك.. أنا هنا لحمايتك.

*****

الفصل الثاني

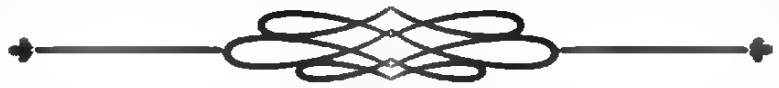

العام الخامس والتسعون من الهجرة، سبعمائة وأربعة عشر ميلاديًّا

عاصمة الخلافة الأموية "دمشق"، خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان..

مدينة الياسمين، وأجمل مدن بلاد الشام، تقع في أرض مستوية مكونة من سهل خصب يرويه نهر بردى الذي يقطعها مشكلا بذلك غوطة دمشق، يحاذيها جبل قاسيون وتملؤها المباني والقصور الفخمة، بها المسجد الأموي وهو من أكبر وأهم المباني في العاصمة، والذي يعد آية في الجمال، أمر ببنائه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك منذ تولّيه الخلافة ليصبح رابع أشهر المساجد الإسلامية بعد حرمي مكة والمدينة والمسجد الأقصى، جدران فسيفسائية ملونة والكثير من الرخام، أما عن المسجد من الداخل فيشكل الفناء الجزء الأكبر منه وهو الجزء الشمالي، وأما الحرم فيقع إلى جنوب المسجد، الأرضية تأخذ شكل مستطيل يصل طوله إلى مائة وستة وخمسين مترًا، وعرضه

سبعة وتسعون مترًا، يحيط به أربعة جدران خارجية، وأما عن الأرصفة فكلها حجرية، به أربعة محاريب على طول جدار الحرم، ويتميز بواجهة الحرم الفسيفسائية التي تقوم على ثلاثة أبواب بأقواس مرتفعة تضفي على المدخل مهابة بالغة، إضافة إلى قبة النسر المذهلة، يحتوي المسجد على جسد نبي الله يحيى - عليه السلام - أو القديس يوحنا المعمدان والذي لم يبق من آثاره المسيحية القديمة سوى جرن العماد، بالإضافة لبعض النقوش اليونانية في مدح المسيح - عليه السلام - على أحد الجدران، وفيه - أيضا - المكان الذي وضع فيه رأس الإمام الحسين بن علي عندما جيء به إلى دمشق. يقع المسجد الأموي تحديدا في وسط المدينة هناك حيث انطلقت الشائعات عن وجود غريب بملابس وهيئة لم يروا مثلها من قبل، بدأ الناس في أحد أسواق المدينة في نهار ذلك اليوم بالحديث عن ظهور غريب في وسط المدينة تحديدا بالمسجد الكبير!

- هل سمعت عن الرجل الغريب الذي ظهر فجر اليوم في المسجد الكبير؟!

قالها رجل أمام أحد تجار القماش في السوق ليجيب الأخير:

- نعم سمعت بذلك.. السوق كله يتحدث عن الأمر.

- يقال إنه كان يرتدي حلة غريبة لا تنتمي لأيٍّ من البلاد التي نعرفها!

ضحك التاجر وهو يطوي بعض الأقمشة ويضعها جانبا.

- ليس هذا فقط يا رجل.. لقد ذكر لي أحد المصلين الذين تواجدوا فجرًا أنه تحدث بلهجة أشبه بالعربية، ولكنها ركيكة بعض الشيء، ولا يعرفون أصلها!

فكرّ الرجل للحظات ثم عاود الرد على التاجر:

- ربما كان جاسوسًا وضعه الأعداء في المدينة ليجوب في شوارعها ويعرف أحوال أهلها.

هنا تدخل أحد الجنود الذي كان يمر بالقرب منهما واستوقفه الحديث:

- ويحكم.. ما تقولون! لا وجود لغرباء في عاصمة الخلافة.. مثل هذا الكلام الخبيث قد يسبب الذعر بين جموع الناس، وهذه جريمة ستعاقبون عليها.

ارتبك التاجر وهو يصرف الرجل من أمامه ليرد في خوف:

- لا عليك يا رجل.. كنا نتحدث فيما بيننا فقط ولا نقصد شيئا.

نظر له الجندي في غضب ليغادر السوق على صهوة جواده

متجها لوسط المدينة قاصدا المسجد الكبير، فقد كان ما سمعه من التاجر مقلقا فهي المرة الرابعة التي يسمع فيها الحديث نفسه منذ الصباح، ما إن وصل نزل من على فرسه ليتركه وسيفه ويتحرك بضع خطوات خالعا نعليه ليخطو داخل فناء المسجد الواسع، توقف للحظات وخيل إليه أنه رأى طيف صبيٍّ صغير يشير إليه لينظر من حوله ثم يكمل في مسعاه باحثًا عن إمام المسجد، في داخلة نفسه كان خائفا من أن يكون ما سمعه في السوق حقيقيًّا، وأنها ليست محض إشاعات، بدأ المؤذن في رفع أذان الظهر، الأمر الذي أوقف بحث الجندي وجعله يتجه نحو مكان الوضوء استعدادا للصلاة، مع انتهاء المؤذن من رفع الأذان كان المسجد مملوءًا والناس يتزاحمون وكأنها منافسة بينهم، كانوا يخافون أن يضيعوا صلاتهم فيضيعهم ربهم، ما إن انتهت الصلاة وانفض الناس كلّ إلى عمله تقدم الجندي نحو إمام المسجد:

- السلام عليك يا شيخ.

- وعليك السلام يا ولدي.

- سمعت وأنا في السوق قبل الصلاة أناسًا يتحدثون عن أمر مريب حدث في المسجد فجر اليوم.. هل هذا صحيح يا شيخ؟!

لم يأخذ الشيخ وقتا ليجيب..

- نعم يا ولدي هذا صحيح.. لقد وجدنا رجلا نائمًا في باحة المسجد له لُكْنَة عربية غريبة ولباسه أغرب وأغرب.. لقد وصيت أحد الصبية قبل ساعات بالذهاب لكبير الحرس لينظر في الأمر.

- هل لي بمعرفة أين يكون هذا الغريب الآن يا شيخ؟

- لما أفاق نقلته لأحد محاريب المسجد ليستريح.. لم يكن في وعيه فقد نطق بكلام غريب ثم غط في نوم عميق من جديد.

نهض الجندي سريعا وهو يحث الشيخ ليتقدمه لمكان ذلك الغريب، عندما وصلوا كان هناك جسد مغطى بأحد الأقمشة القديمة ويصدر أصواتا مكتومة يكاد يسمعها من هو بالقرب منه فقط، في شجاعة ودون خوف انتشلها الجندي ليجد صبيًّا صغيرًا مقيدة يده إلى قدمه مع قطعة من ثوبه في فمه لمنع صياحه!

- هذا هو الصبي الذي كنت قد أرسلته لكبير الحرس!

قالها الشيخ في صدمة ليشير له الجندي بالهدوء.

- ماذا حدث هنا يا فتى؟!

وزّع الفتى نظراته بين الشيخ والجندي لينطق وهو خائف:

- لقد أثار فضولي أن أذهب لرؤية الغريب، وربما تتاح لي فرصة الحديث معه إن أفاق قبل ذهابي لكبير الحرس.

بلهجة شديدة الصرامة سأل الجندي:

- فيم تحدثتم؟! وماذا أخبرته يا فتى؟!

- سا... سأقص عليكما ما حدث.

بدأ الصبي في التقاط أنفاسه وابتلاع ريقه ليكمل قائلا:

- لقد أخذنا الحديث فلما جاءت سيرة الخليفة رأيته مندهشا متفاجئًا.. فأجبته وبدا لي قلقًا خائفًا لتتوالى بعدها التساؤلات عن المدينة والخليفة، وعن قصر الخلافة وأين يقع.. ثم أخبرني أنه جائع فأحضرت له الطعام ليأكل، وقبل الظهر مباشرة رأيتك قادمًا لباحة المسجد فأخبرته مهللا:

- سأذهب لأخبر هذا الجندي قد يأخذك بنفسه لكبير الحرس، والذي سيأخذك بدوره لقصر الخلافة. بدا لي مهتمًا - جدًّا - بمقابلة الخليفة!

سكت الفتى لحظات ليصيح فيه الجندي غاضبًا:

- وماذا بعد أيها الصبي؟ أخبرني.

- عندما هممت بمناداتك ضربني على وجهي بقبضته القوية فأفقدني الوعي وقيدني كما وجدتماني.

- صبي أخرق.

قالها الجندي وهرول مسرعا للخروج من المسجد، في الخارج لم يجد فرسه في مكانها، السرقة لم تكن من عادة أهل المدينة لذا وحده الغريب من فعل ذلك كما استنتج الجندي الذي غادر غاضبا في اتجاه قصر الخلافة.

*****

لم يستغرق ما حدث في المسجد الكبير الكثير من الوقت حتى علمت دمشق كلها بوجود رجل غريب حر طليق على أراضيها، في البداية قيل إنه عابر سبيل جاء مع أحد القوافل التجارية فالمدينة مركز تجاري كبير وتأتيها القوافل من كل حدب وصوب، بعدها تعددت الأراء والأقاويل حول ذلك الغريب، رجح البعض أنه ربما أحد الهاربين في الجبال هؤلاء المعارضين لحكم الخليفة، بينما رجح البعض الآخر أنه جاسوس خاصة مع الحروب التي بدأها المسلمون لفتح الأندلس منذ ثلاث سنوات وما زالت مستمرة، أما عن الرأي الأكثر غرابة الذي شاع من بعض المدعين أنهم تعاملوا مباشرة مع ذلك الغريب هو أنه غجري يتعامل بالسحر الأسود! هذا بالضبط ما قيل وهو أضعف الأقوال حجة،

ورغم ذلك كان أكثرهم انتشارا بين الناس في المدينة، كان أمرًا غير مقبول للبعض؛ فقد سبب انتشار ذلك الهلع بين الناس، ومع غروب شمس ذلك اليوم الذي انقلبت فيه مدينة الياسمين الهادئة رأسا على عقب لزم الناس منازلهم وأغلقوها عليهم جيّدًا، انتشر جند الخليفة في كل مكان؛ لحماية أهل المدينة، وبث الطمأنينة في نفوسهم، جاب أحد رسل الخليفة كل شوارع المدينة على فرسه مناديًا فس الناس بأعلى صوته:

يا أيها الناس.. يا أهل مدينة دمشق.. أين إيمانكم بالله رب العالمين؟! أين ثقتكم في عبده وخليفته عليكم وحاميكم وحاكمكم بأمره ورعايته؟! الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان - أطال الله في عمره وحفظه - وصلته الشائعات التي ضربت المدينة منذ صباح اليوم.. لذلك فقد أمر بنشر الجند في كل أنحاء المدينة ليطمأن الناس لا أكثر.. لا تروّجوا الشائعات، ولا تساعدوا في انتشارها بينكم، وردوها بكل ما أوتيتم من قوة على صاحبها منعا للفتن.. سيعتقل كل المتسببين في الأمر، ومن هذه اللحظة صدر مرسوم بأمر من الخليفة أنه من يروّج أو يساعد على ترويج الشائعات في المدينة، أو أي خبر كاذب سيتم نحر عنقه على مرأى من الناس.. حافظوا على مدينتكم وعلى أرواحكم.. وحفظ الله الخليفة وأطال في عمره.

على أحد طرق المدينة الرئيسية التي أصبحت خالية إلا من جنود الخليفة ظهر رجل طويل عريض المنكبين يرتدي ملابس العامة، ويغطي رأسه ونصف وجهه تقريبًا، على كتفه قوس وحزام بحاوية جلدية بها بعض السهام، من خلفه فرسه محمول على ظهره العديد من الحيوانات البرية المقتولة، صاح فيه على بعد خطوات أحد الجنود بالتوقف:

- قف مكانك يا هذا، واكشف عن نفسك في الحال.

- وإن لم أفعل؟!

قالها الرجل في ثبات وثقة وهو يتقدم نحو الجندي مما جعل الأخير يشهر سيفه متراجعًا للخلف، ازداد خوف الجندي لينادي على الجنود الأقرب منه، جائوا مسرعين منهم من يحمل سيفه، ومنهم من يحمل رمحا مدبّبًا في وضعية الهجوم، التفوا حول الرجل وحاصروه وذلك لم يغير من ثباته ليظل واقفا كالجبل لا يحركه ريح، صاح الجنود وهم يهجمون عليه دفعة واحدة ليتفادى هجماتهم بخفة كبيرة باستخدام يديه الخاليتين من السلاح، بعدها التقط سيفه من على ظهر فرسه وقتالهم جميعا والسيف في غمده دون إخراجه، كان حريصًا على عدم طعن أي منهم، واستمر في إسقاطهم أرضا واحدا تلو الآخر، حمل أحد الرماح في يمناه وسيفه في يسراه وأخذ يباغتهم في مهارة قتالية عالية،

واستمر في ضربهم بالجزء الخشبي من الرمح حتى سقط الوشاح الذي يغطى وجهه ليصيح أحد الجنود:

- القائد نصر الدين أنصاري! نحن آسفون.. لم نعلم أنه أنت سيدي القائد.

ألقى الرمح وهو يهز رأسه ضاحكًا:

- لا عليك يا رجل.. أردت أن نلهوا قليلا.. والآن أخبرني لم جند الخليفة منتشرون في شوارع المدينة؟!

- يبدو أن خبر ظهور غريب في المدينة لم يصل لك سيدي القائد!

سكت القائد لحظات وهو يحك لحيته بأصابع يسراه ثم أجاب:

- استغرق مني صيد هذه الحيوانات اليوم كله فكيف لي أن أعلم!

أمسك القائد بلجام فرسه وهمّ بالمغادرة دون أن يلقي بالا لما قاله الجندي، تزامن ذلك مع ضجة بعض الجياد القادمة نحوهم ليستوقفه أحدهم مناديا:

- سيدي القائد نصر الدين أنصاري.. تحياتي.. مولاي الخليفة يطلب حضورك في الحال.

تنهد القائد وأخذ نفسا عميقا ثم قال:

- ألا يستطيع ذلك الأمر أن ينتظر حتى الصباح؟!

- مولاي الخليفة يبحث عنك منذ الظهيرة.. كبير الحرس أرسل فرق لإيجادك أينما كنت.

خلع عنه ملابس العامة لتظهر من تحتها ملابس الفرسان الأنيقة، وجه متباين السمار مع شعر رأس شديد السواد والنعومة يتدلى حتى الكتف، لحية قصيرة تتخللها بعض الشعيرات البيضاء، أشار لرسول الخليفة بأن ينزل صيده أرضا.

- تأكد من أن يصل صيدي سالمًا إلى البيت.

اعتلى فرسه برشاقة لا تدل على عمره الذي قد يتخطى الأربعين، وضع سيفه في يساره وأخرج ما ربط به جبهته وخصلات شعره المتدلية، ولكز الفرس بكعب قدميه لينطلق مسرعا نحو قصر الخلافة.

*****

كان الوليد بن عبد الملك يقيم في القصر الأبيض، والذي أنشأه بنفسه تاركا كل قصور الخلافة التي بنيت قبلا، وهو يقع بالقرب من جبل أسيس، ومبنى من البازلت مؤلف

من طابق واحد، وتحيط به أسوار مرتفعة، وله العديد من الأبواب، يتألف من الداخل من العديد من الأبهاء الواسعة وقاعات للجلوس ذات أعمدة مزخرفة يطلق عليها اسم «إيوان»، ودهاليز ودور خاصة للخليفة وعائلته ومستخدميه وحريمهم، في أحد تلك القاعات الواسعة مستطيلة الشكل والتي تزينها الأعمدة «إيوان» على جانبيها وصولا لكرسى العرش الفخم الذي يجلس عليه الخليفة ويحيط به أربعة من الأعمدة الصغيرة الغير واصلة لسقف القاعة، لها سقفها الخاص من الأرابيسك المنقوش بماء الذهب والذي تغطيه أقمشة من الحرير حتى ثلثه العلوي، وعلى جانبي القاعة يمين ويسار الأعمدة توجد أماكن صغيرة «دهاليز» ذات سقف داخلي يعلو كرسي العرش بمسافة النصف متر، ويطل على القاعة من الداخل، تملأ القاعة الكثير من النقوش والرسومات التي تضفي جمالا إلى جمالها، ألوانها التي تخلط بين الأزرق الفاتح والأصفر المذهب وحتى الأحمر الدموي، بالإضافة لآيات القرآن الكريم التي تزين جدران القاعة، فتح الباب الذي يحرسه اثنان من الجنود برماحهم لينادي مناد في صوت جهور:

- القائد نصر الدين أنصاري يطلب الإذن بالدخول سيدي كبير الحرس.

في القاعة كان هناك خمسة من الرجال كبار السن متوسط أعمارهم الخمسون، في ملابس راقية وهم وزراء الخليفة، ورجل سادس قد يكون في الأربعين من عمره في زيّه الحربي وسيفه في يساره، أشار ذلك الرجل كبير الحرس لهم بإدخال القائد:

- عظيم.. أخيرًا عثرنا عليك سيدي القائد!

قالها كبير الحرس وهو يحتضنه ضاحكا ومرحّبا ليبادله القائد مازحا:

- أنا من جعلتكم تعثرون عليّ في النهاية.

أشار بعدها برأسه مبتسما تحية لبقية الحضور، بعدها دخل حاجب القصر ونادى:

- مولاي الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان يدخل بعد لحظات.

ليدخل عليهم الخليفة متبخترًا في مشيته، طويلا أسمر، مترفا دميما سائل الأنف، بوجهه أثر جدري، في عنقفته شيب، على رأسه عمة، في الأربعين من عمره، عباءته الذهبية تجر على الأرض من خلفه عاقدا يديه خلف ظهره.

- أخيرًا جئت يا نصر! أنت تعلم أني ما رضيت بذهابك

للحرب والمشاركة في الفتوحات هناك في الأندلس.. لا لشيء إلا لقربك مني وثقتي فيك، لكنك لا تلبث أن تظهر فتختفي مجددا!

تقدم القائد خطوات، وتنحنح قائلًا:

مولاي الخليفة يعلم أنّي لا أتقيد بوجودي في مكان بعينه، ولكني هنا وقتما أردتني، واقتضت الحاجة إلى ذلك.. أفديك بحياتي إن تطلب الأمر.

بدأ الوليد يتحرك بينهم لحظات على الوضع نفسه الذي دخل فيه:

- يا سادة، أنتم وزرائي ومستشاريني المقربون.. وبالطبع تعلمون ما تمر به عاصمة الخلافة منذ فجر اليوم.. انتهى اليوم ولم يخبرني أحدكم بالنبأ اليقين عن تلك الشائعات.. إن ما يحدث من أمره أن ينشر الفوضى في البلاد.

تقدم كبير الحرس للوقوف بجوار القائد نصر الدين ثم تنحنح هو الآخر قائلًا:

- لقد نشرت جنودي في المدينة كلها يا مولاي.. كما بعثت مناديا في الناس ليذيع مرسوم ينص على معاقبة مروجي الإشاعات والأكاذيب، وسيتم التحقيق في الأمر والقبض على المتسببين فيه.

صاح الوليد غاضبا:

- هذا غير كاف.. ستقود بنفسك فرقة من الجنود في الصباح الباكر يا نصر للبحث في الأمر والعثور على هذا الغريب.

شرد القائد نصر الدين بذهنه بعيدا، وفي داخلة نفسه يقول:

عظيم.. أنا بنفسي سأحقق في بعض الشائعات! أمنع من أن أنال شرف الوقوف جنبا إلى جنب مع قادة الفتح العظماء في الأندلس لأبقى حبيسا في دمشق.. لا أفعل شيئا ذا قيمة.. وفي النهاية أبحث عن غريب يجوب المدينة مسببا الذعر لأهلها!

- هل سمعت ما أقول يا نصر الدين؟

- أمرك سمع وطاعة مولاي الخليفة.

- وأنت يا كبير الحرس.. لا أريد أخطاء حتى نتبين الأمر.. يمكنكم الانصراف جميعا.

همّ الجميع بمغادرة القاعة وهم يتهامسون فيما بينهم ليأتي صوت الخليفة مستوقفا القائد نصر الدين:

- ابقَ قليلًا بعد يا نصر.. فلدي ما أخبرك به..

ثم أشار الخليفة للجنود في القاعة - أيضا - بالانصراف وتركهم بمفردهم.

- اجلس يا صديقي لنتحدث قليلا.. أنت تعلم بالطبع أنك صديق طفولتي وحامل أسراري، ولا أثق بأحد غيرك.. هناك غريب بالفعل يجوب المدينة..

نظر له القائد نصر الدين في غرابة شديدة ليكمل الخليفة:

- لا تستغرب هكذا فلدي عيون في كل مكان.. ما يقلقني أكثر هو أن يكون وراء ذلك الغريب ساكنو الجبال الهاربون.. لذا فأنا لا أريد الغريب

وحسب، بل أريد معرفة من وراءه، وما يريدون من نشر الذعر بين الناس في المدينة.. هذا هو ما يقلقني يا نصر!

- لقد حدثني أحد الجنود على باب القصر عما رآه بأم عينه.. لقد كان أول العارافين بالأمر من جندنا.. ذهب للمسجد الكبير قبل ظهر اليوم للتقصي والتحقق مما سمع من بعض الناس في السوق صباح اليوم.. أخبرني أن هناك صبيًّا تحدث مع الغريب قرابة الساعتين قبل أن يضربه ويفر هاربًا على حصان ذلك الجندي!

- أحضرنا ذلك الصبي بالفعل، ولكن حديثه ووصفه للرجل

غير منطقي ومثير للريبة.. لا وجود لملابس كتلك التي وصفها، ولا لكنة كالتي حدثنا عنها.. الغريب أنهم وجدوا حصان الجندي المسروق والملابس التي وصفها الصبي.. ملابس متقنة الصنع لم أر حائكًا ماهرًا في عصرنا هذا يمكنه عمل مثلها!

فلتت من القائد نصر الدين ضحكة ساخرة بصوت عال!

- ألهذا يقول البعض أن للأمر علاقة بالسحر والدجل.. هل سنصدق بمثل هذه الأمور؟!

- لا تسخر من الأمر؛ فلقد أخفيت الملابس بنفسي حتى لا يراها أحد.. كما أمرت بحبس الجنود الذين وجدوها وكل من رآها حتى نعلم الخبر اليقين.

- أنت تمزح أليس كذلك؟!

- بالطبع لست أمزح.. عليك أن تجد هذا الغريب وتحضره إليَّ قبل غروب شمس الغد.

- سأفعل ما بوسعي يا صديقي.. لا تقلق.

*****

في فجر اليوم التالي بعد أداء الصلاة في المسجد الأموي تحرك القائد نصر الدين أنصاري ومعه فرقة مكونة من

خمسة عشر فارسًا من خيرة فرسان الخليفة، وعربة عليها قفص يجرها بغلان يركبها أحد الجنود ويتوجهون إلى آخر مكان شوهد فيه الغريب، كانوا قد وجدوا الحصان المسروق وملابسه التي استبدلها بملابس أهل المدينة في السوق، من هناك بدأ تقفي الأثر والبحث عن الغريب، كان نصر الدين يمتلك كلبي صيد شرسين - سبق له وأن دربهم على اشتمام الروائح وتتبع مكان صاحبها - هذا بالضبط ما لجأ إليه بعد أن قام الفرسان بتفتيش السوق ولم يجدوا شيئًا.

- أحضروا الكلبين من العربة.

فتح لهما الجندي القفص لينطلقا مهروليْن نحو القائد الذي مال عليهما ليحتضنهما ويداعبهما ثم وقف ليحدث الجنود في لهجة صارمة:

- شكلوا دائرة مغلقة وأعطوني ظهوركم.

نفذ الفرسان ما طلب منهم سريعا دون نقاش، أخرج نصر الدين بدوره شيئا من ملابس الغريب التي أعطاها له الخليفة سابقا، وجعل كلبيه يشتمونه للحظات، بعدها أشار القائد لثلاثة من الفرسان أن يركبوا خيولهم ويلحقوا بالكلاب.

- أريد أن تتبعوا الكلبين حتى المكان الذى سيتوقفان عنده.. إن استدعى الأمر التدخل فتدخلوا، وإن لم يستدع

فعودوا على الفور إلى هنا.

انطلقت الكلاب مسرعة خارج السوق، ومن خلفها الفرسان على خيولهم، أخذت تجري في شوارع دمشق ساعة كاملة حتى توقفت في النهاية عند بيت قديم على أطراف المدينة وأخذت في النباح دون توقف، كان للبيت باحة خارجية ويتكون من طابقين ويبدو أنّه غير مسكون، بعد دقائق من التوقف والترقب لما قد يحدث من قبل الفرسان الثلاثة عادت الكلاب للجري مجددا، ولكن هذه المرة اتجهت خارج أسوار المدينة لتتوقف عند بداية ظهور الجبال وأخذت في النباح المتواصل كما فعلت سابقا، تابع الفرسان ما يحدث من بعيد ليقرر أحدهم أن يمسكوا بالكلبين ويعودوا أدراجهم، تركوا خلفهم فارسا عند البيت حتى يخبر الآخران القائد بما حدث، كان نصر الدين ما زال جالسا في السوق منتظرا عودة الفرسان بالخبر الأكيد، ما إن عاد الفارسان أخبرا القائد بما رأوه من الكلاب، وأنهم تركوا أحدهم عند البيت ظنا منهم أن شيئا قد يحدث، أو ربما يظهر ذلك الغريب فالبيت غير مسكون، فور سماع ما قالوا امتطى القائد جواده وأمر الجميع بلحاقه إلى ذلك البيت لينظر ما فيه، لم يستغرقوا الكثير من الوقت حتى وصلوا البيت المنشود لينزل القائد عن جواده ويتجه نحو الفارس الذي بقي أمامه، قائلًا:

- هل شاهدت شيئًا غريبا طيلة وقوفك هنا؟ أو ربما حدث ما لفت انتباهك؟

- لا سيدي القائد.. لم يحدث شيء.. لم يدخل أو يخرج أحد من ذلك البيت.

تحرك القائد ودخل باحة البيت متأملا فيه لحظات ثم صاح في فرسانه:

- اطرقوا على أهله فهذه هي الأصول.

تنحنح الفارس الذي كانوا قد تركوه سابقا لمراقبة المنزل ليقول:

- سبق وجربت سيدي القائد، ولكن لم يستجب أحد.. إنه غير مسكون.

- حسنا إذا حطموا هذا الباب لنرى ما بالداخل.

تقدم بعض الفرسان وبدأوا في ضرب الباب بأكتافهم عدة مرات حتى انفتح، أطلق القائد العنان للكلبين ليتقدماه في الدخول، لحق بهما ومن خلفه فرسانه ليجدوا أن الظلام يعم البيت من الداخل، تقدم القائد وفرسانه بشجاعة وحذر ليخطوا داخل البيت متفرقين بحثا عن أي أحد أو شيء قد يساعدهم في قضيتهم، أحضر جندي العربة المشاعل وتبعهم

ليضيء البيت، لم يجدوا شيئا في الطابق الأرضي فصعد الكلبان للطابق الثاني على سلم خشبي يسار باب البيت - الذي دخلوا منه - ليصعدوا واحدا تلو الآخر لاحقين بالكلاب لينادي أحدهم صائحًا:

- سيدي القائد.. هناك شيء ما يتحرك هنا!

أسرع نصر الدين إلى الأعلى حيث مصدر الصوت، كان الطابق الثاني يتألف من غرفتين كبيرتين وممر يطل على الطابق الأول من الداخل، في أحد تلك الغرف كان هناك رجل يجلس في أحد أركانها عاقدا يديه على ركبتيه دافنا وجهه بينهما وكأن هناك ما يخيفه، تقدم القائد نحو ذلك الرجل في بطء مشيرًا لفرسانه بالبقاء في الخارج.

- من أنت يا هذا؟! وماذا تفعل هنا؟!

لم يصدر من الرجل أي رد ليكمل القائد حديثه:

- أنا القائد نصر الدين أنصاري.. كبير مستشاري الخليفة وقائد من قادة الجيش الكبار في بني أمية.. أخبرني من أنت؟! وماذا يحدث؟! ولا تخف فلك مني الأمان.. لن يمسك أحد بسوء.. هذا وعد.

- لا يجب أن تكون هنا أيها القائد.. سيقتلونك.

*****

قبل ذلك بساعات في مكان ما في أحد الجبال حول مدينة دمشق:

- هناك غريب ظهر في المدينة يا زعيم.

قالها رجل راكع على ركبتيه متكئ على سيف عريض في يمناه أمام رجل آخر يجلس على كرسي صخري في وجود الكثير من الرجال من حولهم، كان الجالس على ذلك الكرسي الصخري له جسد ضخم ممتلئ ووجه قبيح أعور العين تظهر به الكثير من علامات الجروح، أكبرها من الجبهة اليسرى وحتى الفك، أصلع الرأس ولا توجد له لحية، نطق في غلظة:

- وما علاقتنا بذلك أيها الأحمق؟!

نهض الرجل وأخذ يلعب بسيفه ويتحرك بين الناس ثم أكمل وهو ينظر نحو الرجل لجالس على الكرسي الحجري.

- يمكن أن نستغل ذلك الغريب ونروج لإشاعات من شأنها أن تخدم قضيتنا وتساعدنا في إسقاط الخلافة.

- وكيف ذلك؟!

- لقد رأيت الغريب بنفسي وراقبته وتتبعته، وعلمت أنه لا ينتمي لهنا ولا لأي من البلدان التي نعرفها.. أخذت أجول بين

الناس محدثًا عن غجري يتعامل بالسحر الأسود جاء ومعه اللعنة لهذه المدينة وأهلها وحاكمها

ضحك الزعيم بدوره ضحكات متتالية بصوت عال ونهض من مكانه متجها نحو ذلك الرجل وهو يضربه على كتفه بقوة، قائلًا:

- إنك غبيٌ تافه، ولم تحظ من العقل إلا قليلا.. قوة إيمان الناس في دمشق تجعلهم يردون عليك هذا الكلام ولن يصدقه أحد بالطبع!

ضحك الرجل في خبث ومكر وهو يقول في ثقة:

- لقد انتشر الخبر بالفعل بين الناس.

- حتى وإن صح ما تقول.. يجب أن يكون ذلك الغريب في قبضتنا حتى نكمل ذلك الأمر ونتحكم في ما هو قادم.. يجب أن نخطط لهذا الأمر بحكمة.

- سنستهدف - أولا- نصر الدين أنصاري، وبعدها لن يقف أحد بيننا وبين كرسي الحكم.

- بدأ تفكيرك يعجبني، وما يدور في عقلك أدهشني.. ولكن ما زال علينا القبض على هذا الغريب.

- ستعجبك أكثر عندما تعلم أن الغريب هنا ملقى في

السجن بالداخل.

- أحقًّا ما تقول؟!

- بالطبع.. إنه في الداخل كما أخبرتك وفاقدٌ للوعي.

ظهر الذهول على وجه الزعيم مما فعله رجله هذا، أخذ يقبل رأسه قائلًا:

- لو نجح هذا الأمر سأعطيك ما تريد من مال؛ وستصبح ذا شأن عظيم.

في الداخل هناك في قلب الجبل في غرفة منحوتة من الصخر يرتمي ذلك الغريب على الأرض فاقدا الوعي، فتح باب الغرفة الحديدي وألقى بالماء عليه لينهض مفزوعا، رجل في الخمسينات من عمره بوجه أبيض ولحية يطغو عليها الشيب، وعينين زرقاوتين، وليس بالرجل الطويل.

- مرحبا بك أيها الغريب في أرض المتمردين.. أنا الزعيم طارق بن محمد المهدي.. نأسف على طريقة إحضارك إلى هنا.. هلّا أخبرتني من فضلك من أنت؟! وماذا تفعل في دمشق؟!

بدأ الغريب يعتدل في جلسته متكئًا على الحائط من خلفه.

- اسمي هو بلال.. من مصر.

- وهل تراني أحمقًا يا هذا.. لا يرتدي أهل مصر مثل هذه الملابس الغريبة التي وجدوك ترتديها، ولا حتى أيًّا من البلاد التي نعرفها!

- ولماذا سأكذب عليك؟!

- إذا كنت حقًّا من أهل مصر فحدثني عن أخبارها.

- كما أن هناك واليًا ظالمًا، وطاغية ولي أمر الناس في العراق يدعى الحجاج بن يوسف الثقفي، فكذلك الأمر في بلادي.. وليّ علينا رجلٌ يجمع الضرائب ليلًا نهارًا، ويحمّل الناس ما لا يطيقون، ولا يفعل جنوده إلا ظلم الناس والبغي بغير الحق.. ضاق أهل مصر بهم ذرعا، وفي النهاية قررت الفرار لدمشق لأَصِلَ لخليفتها العادل والاستنجاد به.. لقد قتلوا زوجتي وولدي الوحيد!

- لن تنجدك العاصمة يا هذا؛ فالخليفة هو رأس الأفعى الذي يلتف بجسده على الناس ليخنقهم بولاته الظالمين.. إذا كنت تريد الانتقام - حقا - ممن قتلوا زوجتك وولدك فانضم إلينا؛ نجعلك تقطع رأس الأفعى، وتريح الناس وربما وليناك مصر لتعدل بين أهلها.

- وكيف ذلك؟!

- كلنا هنا فقدنا زوجة وولدًا وأخًا وأختًا وأناسًا مقربين..

هجرنا وطردنا من بيوتنا عنوة وظلما.. معنا ستجد انتقامك، فالعدل والصلاح لن يتحققا إلا بسقوط الخلافة ومقتل الوليد.

همّ الزعيم بالمغادرة تاركًا إياه ليرتاح قليلًا وهو يقول لرجاله:

- أحضروا الطعام لضيفنا، وملابس جديدة، وأكرموا مثواه.

همس له أحد رجاله وهم يبتعدون قائلًا:

- هل تصدّق ما قاله الغريب حقا؟!

- بالطبع لا، فهو ماكر ويمتاز بالدهاء ويتلاعب بنا في كل ما قال، ولكن دعنا نخطط لقتل نصر الدين - أولا - بمساعدة هذه الغريب وبعدها نرى ما نفعل به.

*****

-لا يجب أن تكون هنا أيها القائد.. سيقتلونك.

قالها الرجل وهو يرفع رأسه وينهض وينظر في عينيي القائد لحظات، تجمد وجه القائد وهو يقول مرتبكا:

- ما... ماذا تقصد يا هذا؟!

صاح أحد الفرسان من الطابق الأرضي:

- هناك حركة في الخارج حول المنزل سيدي القائد!

أصابه بعدها سهم في عنقه أرداه قتيلًا، ليتحدث أحد الفرسان أمام الغرفة شاهرًا سيفه:

- نحن نتعرض للهجوم سيدي القائد.. لقد حاصروا البيت وسقط منا اثنان في الأسفل!

تقدم القائد نحو الغريب وأمسك بعنقه بقوة وهو يصيح متسائلًا ومهددًا:

- ماذا يحدث يا هذا؟! أخبرني وإلا قتلتك في الحال.

- ألا ترى أنّهم استخدموني كطعم للإيقاع بك وقتلك؟! لا عَلاقة لي بما يحدث سيدي القائد، فأنا مغلوب على أمري!

أمطروا البيت بالسهام ليلقي الغريب بنفسه والقائد أرضًا، اقتحموا الطابق الأرضي وقتلوا خمسة من الفرسان وجنديّ العربة ليتبقى ثمانية فرسان والقائد والغريب يتمركزون في الغرفتين بالطابق العلوي.

نهض الغريب تاركًا القائد أرضا، وهو يقول في ثقة متوجها نحو شرفة الغرفة:

- ستهب عاصفة ترابية بعد قليل على المكان.

نظر له القائد في نظرة تملؤها الدهشة والاستغراب:

- وما أدراك يا هذا بهبوب عاصفة على المكان؟!

- سيدي القائد أنا من سيتسبب في حدوثها.

ابتسامة عريضة تملؤها الثقة من الغريب تبعها بفتح شرفة الغرفة التي تطل على باحة البيت، يوجد في الأسفل أكثر من مائة رجل من المتمردين المسلحين، رمق الغريب القائد بنظرة خبيثة وهو يقول:

- يجب أن تتمسك بشيء أنت وجنودك أيها القائد.. فلن يعجبك ما هو آت.

توقفت السهام تزامنا مع خروج الغريب عليهم من شرفة البيت وكأنه قائد أو زعيم عظيم قد خرج عليهم مترقبين ما يقول، رفع كلتا يديه ببطء شديد في محاذاة كتفه مع انقلاب عينيه للون الأبيض ثم تحدث بلهجة مخيفة أركبت كل من في الأسفل:

- لقد كان خطأً كبيرًا أن تشاركوني مخططاتكم.

تغير الجو بعدها وبدأت عاصفة ترابية كبيرة في الاقتراب من باحة البيت، خاف بعض الرجال في الأسفل وألقوا أسلحتهم وهموا بالفرار بينما بدأت العاصفة في إلقاء الصخور على البعض الآخر لتصرعهم قتلى في الحال!

- إنه وقتك وفرسانك أيها القائد.. عليك بقتل من بالخارج الآن؛ فلن تدوم العاصفة لوقت طويل.

بالفعل نزل القائد وفرسانه وقتلوا كلَّ من تبقى في الأسفل ولم تقتله الصخور.

صاح الغريب من شرفة الطابق الثاني:

- ما إن يصل خبر ما حدث لهؤلاء المتمردين سيأتي المزيد.. علينا الذهاب

أمر القائد فرسانه بإحضار الغريب ليعودوا أدراجهم سريعا قبل قدوم المزيد من المتمردين، تمسمر الفرسان لحظات في أمكانهم وهم ينظرون لبعضهم البعض دون حراك حتى نطق أحدهم في خوف:

- ألم تر ما فعل بيديه الخاليتين يا سيدي القائد؟! إن هذا لسحر ورب الكعبة!

- حسنا سأحضره بنفسي.. تفقدوا طريق خروجنا وأمّنوه.

دخل القائد وأحضر الغريب، بينما خرج فرسانه وقتلوا كل من أسقطته الرياح وما زال يلفظ أنفاسه، كانت الخيول قد هربت عندما شعرت بهبوب العاصفة، لم يكن أمامهم سوى دخول المدينة سيرا على الأقدام حتى عثروا على فرس

فركبه القائد ومن خلفه الغريب متوجهين إلى قصر الخلافة، ولكن القائد غير وجهة فرسه ليتوقف به أمام أحد البيوت الصغيرة بجوار المسجد الأموي وسط المدينة، نزل وهو يشير للغريب بأن يتبعه.

- سنقضي بقية اليوم ونبيت هنا.. انزل.

ضرب القائد الفرس ليجري حرًّا بعيدًا عن البيت، ثم تفقد الأرجاء من حوله حتى يتأكد من أنه لا أحد يتبعهما، أدخل الغريب وأغلق الباب من خلفهما بإحكام، في الطابق الأرضي من ذلك البيت الصغير افترشوا الأرض وجلسوا على بعض الوسادات ليتحدث الغريب:

- لم لسنا في قصر الخلافة سيدي القائد؟!

- تغيير بسيط في الخطط.. والآن أخبرني عن أمرك وعلاقتك بالمتمردين وساكني الجبال.

- أخبرتك سابقا أنه لا علاقة لي بهم.. ولكني سأقص عليك ما حدث.. البارحة استيقظت لأجد نفسي في مسجد ما، أخبرني بعدها طفل أنه المسجد الأموي الكبير، وأني في مدينة دمشق.. في شوارع المدينة وقت الغروب تقريبا هجم عليّ رجل ملثّم على حين غفلة منّي.. قام بتكتيفي وتغطيتي في شوال كبير، ولم أدرِ بما يحدث من حولي

وغيّبت عن الوعي.. استيقظت في قلب جبل ما بملابس غير ملابسي، ورجل يرميني بالمياه ليتضح أنه زعيم المتمردين وقاطني الجبال.. ذلك الرجل اسمه طارق بن محمد المهدي.. في داخلة نفسي علمت أنهم أشرار ولا يجب أن أخبرهم بحقيقتي.. اختلقت قصة سريعا لتسعفني في موقف صعب كهذا.

- وما هي حقيقتك إذن أيّها الغريب؟!

- بعض الأمور يجب أنْ تظلَّ طيّ الكتمان ولا يعرفها أحد.. هذا أفضل لي ولك سيدي نصر الدين.. أرجوك صدقني.

- يدور في رأسي الكثير يا هذا، ولكننا لم نتعرف جيّدًا!

- أدعى بلال، وأنا من مصر.. أعتقد أنك تريد معرفة مخططاتهم سيدي القائد!

- حسنا.. كلّي آذان صاغية.. تفضل.

- لقد أراد ذلك القبيح التخلص منك أولا.. تحدثوا عن تصديك لهم مرارًا وتكرارا، ووقوفك كحائط صدٍّ قويٍّ في وجه مخططاتهم.. هذا القبيح يحمل في داخلة نفسه ضغينة وكرهًا تجاهك، ويريد الثأر للجرح الغائر في وجهه.. لقد استغلوا ظهوري وبدأوا في ترويج الإشاعات والأكاذيب بين أهلِ المدينةِ.. ثم خطفوني واستخدموني كطعمٍ للإمساكِ

بكَ، فقد علموا أنَّ الخليفةَ سيكلّفُكَ شخصيًّا بمهمة البحث عني.. أرادوا قتل جندك والقبض عليك حيًّا؛ ليأخذوك معهم لزعيمهم.. يفعلون بك ما يفعلون وبعدها يكون الطريقُ خاليًا أمامهم لقتل الخليفة والسيطرة على المدينة.

قاطعه نصر الدين.. قائلًا:

- إن صح كلامُك وهم من نشروا الشائعاتِ.. فماذا عما رأيتك تفعله بأمِّ عيني عند شرفة البيت؟! لقد تحولت عيناك بالكامل إلى اللون الأبيض!

- لستُ ساحرًا.. صدّقني.. فقط تنبأت بقدوم تلك العاصفة، وتأكد لي ذلك لما سمعت صهيل الخيول وشعرت بخوفها.. لقد كان ارتجال منّي ليس أكثر! ومن حسن حظّي أنّ الخدعة انطلت عليهم.. كذبوا الكذبة وصدقوها.. يا لهم من مغفلين!

- وكيف تتوقع مني تصديق ذلك يا بلال؟!

- لا أتوقع منك تصديقه، ولكنّي أريدك أن تتخطّاه.. هذا أفضل لي ولك.

- على كلٍّ.. لقد أنقذت حياتي وثمانية من جنودي.. حتى وإن كنت لا أصدق الكثير مما تقول، وما زال الكثير مبهم بالنسبة إليّ، ولكنها تظل جميلة في عنقي؛ فاطلب ما شئت.

- هناك مخطوط كبير محكمُ الإغلاق أبحث عنه.. قيل إنّه أهدي للخليفة الوليد بن عبد الملك في بداية فتح الأندلس.. جيء به من إحدى المدن المفتوحة هناك مع الغنائم.

- لا يخفي الخليفة عنّي شيئًا فهو صديق طفولتي! وقربي منه لا لشيء إلا لثقته في مشورتي وحكمتي.. ولم يخبرني أنه أهدى مخطوطا كذاك الذي تتحدث عنه من قبل!

- خذني للخليفة إذن.. يجب أن أجدَ ذلك المخطوط قبل غروب اليوم الثالث لي في دمشق.. وإلا سينهار كل شيء تعرفه في هذه المدينة ويختفي إنْ بقيت هنا لأكثر من ذلك سيدي القائد.

*****

الفصل الثالث

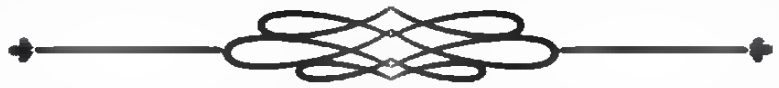

منطقة باب زويلة، شارع المعز لدين الله الفاطمي، القاهرة

عام ألفين وستة:

بيت قديم بالقرب من باب زويلة، تفوح من جدرانه رائحة الماضي، وتبرز زخارفه وأقواسه أصالة البناء، بابه قد أصبح باليًا من كثرة الطرق عليه. خلال أيام عمره الطويلة، مدخله مصمم بحيث لا يمكن للضيف رؤية من في الداخل، وهو ما أطلق عليه في العمارة الإسلامية «المدخل المنكسر».. في الداخل توجد ساحة كبيرة بين أركان البيت تسمى - في العمارة الإسلامية - "صحن البيت". الهدف من تصميمه بهذا الشكل هو ضمان وصول الضوء والهواء لواجهات البيت وما تحويه من حجرات، يتألف من طابقين وبرجولة خشبية من الأرابسك على السطح ذات شكل دائريٍّ تغطي صحن البيت بالكامل، وأجزاء من السطح للجلوس تحتها، تغطيها بالكامل نبتة العنب مع بعض الورود التي تتخللها، يتكون الطابق الأرضي من أربع غرف كبيرة واحدة منها غرفة للنوم،

والثلاث الأخريات مكتبة بالإضافة لبيت الراحة ومكان تجهيز الطعام، في جانبي صحن البيت في الطابق الأرضي يوجد سلّمان خشبيّان للصعود للطابق الثاني، أما عن الطابق الثاني فيتألف من أربع غرف نوم منفصلة، وممر دائري يطل على صحن البيت مسور بالخشب المزخرف، بالإضافة لسلم خشبي أصغر نسبيًّا من سابقيه في أحد جوانب الممر للصعود للسطح الذي يطل مباشرة على باب زويلة، نوافذ البيت كلها في الطابقين هي مشربيات من الخشب المنقوش والمزخرف، يبطنه زجاج ملون كألون الطيف، يقيم في البيت رجل في الخمسينات من عمره، ويعمل موظفًا بالآثار يدعى «حاتم السلكاوي»، معه عائلته المكونة من ابنه الوحيد «إمام السلكاوي» وزوجته وحفيديه الكبير فيهم «سراج» عشر سنوات والصغير «أيمن» ست سنوات، يعود حاتم يوميًّا بعد انتهاء دوام عمله في أحد المزارات بشارع المعز لدين الله ليدخل مكتبته ويغلق على نفسه الباب لساعات طويلة، يقضي بقية يومه - تقريبا - مع كتبه فقد كان متيّمًا بالعلم والبحث، مهتما بالكتب في مختلف مجالاتها، لا يبعده عنها طعام أو شراب، بل وصل الحال لنومه في مكتبته مرارا، كل ذلك كان من شأنه إغضاب زوجة ولده التي تخاف على صحته وتجبره على الخروج من مكتبته للنوم في سريره، وقضاء وقت أكثر معهم، مع غروب شمس أحد الأيام وقف

الطفل سراج يطرق باب المكتبة على جده دون توقف وهو يصيح:

- هناك ضيف في البيت وأبى يناديك يا جدي.

فتح حاتم الباب ومال على حفيده مبتسما:

- ومن هذا الضيف يا فتى؟!

- لا أعلم يا جدي، ولكنه يسأل عنك، وأعطاني عشر جنيهات لأناديك

ضحك حاتم وقبل خد حفيده سراج:

- وأين هو الآن؟!

- على السطح مع أبي وأيمن.. وأمي ذهبت لتعد الطعام.

رفع حاتم حفيده على كتفه وصعد السلم متجها للسطح، كان الضيف جالسًا مع إمام ويداعب الصغير أيمن، وكانت الشمس قد غربت، ومصابيح السطح مضيئة بألوان مختلفة تعكس جمال البرجولة الخشبية التي تزينها عناقيد الإضاءة هي الأخرى، بدا السطح خلّابًا جميلًا خصوصا وأنهم وسط مكان تاريخي عتيق، وتحيط بهم الكثير من المآذن.

- لقد مر وقت طويل يا مصطفى.

قالها حاتم والبسمة تزين وجهه لتبدأ الدموع في تخللها لتتحول لبكاء مكتوم، احتضن ضيفه مرحبا «مصطفى» صديق الطفولة، والذي يصغر حاتم بأشهر قليلة ويقيم في أسيوط.

- من يصدق أنه قد مرت عشر سنوات يا حاتم؟! وكأنها البارحة يا عزيزي.

- لماذا لم تخبرني بقدومك عند تحدثنا في الهاتف منذ أسابيع؟!

- أردت أن أجعلها مفاجأة يا صديقي.

جلسوا ليأخذهم حديث طويل، وحنين للماضي حتى قطعته زوجة إمام منادية:

- الطعام جاهز.

أخذوا ضيفهم ونزلوا للطابق الأرضي لتناول الطعام، ما إن انتهوا أخذ حاتم صديقه مصطفى ليدخلوا المكتبة حتى يتثنى لهم الحديث في أمور كثيرة حدثت طيلة عشر سنوات، وجه حاتم حديثه لزوجة ولده قائلًا:

- أحضري لنا الشاي في المكتبة يا ابنتي.

صاح سراج غاضبا في اعتراض:

- هل يعني هذا أنه لا وجود لقصة ما قبل النوم الليلة يا جدي؟!

ضحك حاتم وهو يربت على رأس سراج:

- إنها أهم حكاية الليلة يا عزيزي.. ولكن عليّ الجلوس والتحدث مع جدك مصطفى في بعض الأمور.

المكتبة من الداخل هيكلها خشبيٌّ، تتكون من رفوف كثيرة مليئة بمجلدات ومخطوطات قديمة، الغرف متصلة بعضها ببعض من الداخل وتتكون من ممرات تكفي لمرور شخص واحد فيها، عدا واجهة الباب فيوجد مكان للجلوس مكوّن من مكتب خشبي كبير، وكرسيين خشبيين، بالإضافة لآخر هزاز، على المكتب ميّز مصطفى جريدة قديمة للأهرام عفا عليها الزمن بتاريخ الخامس من أبريل عام ألف وتسعمائة وستة وتسعين تحت عنوان «حريق بأحد البيوت المهجورة بمنطقة وسط البلد أودى بحياة رجل عجوز»، وفي عنوان فرعي «كامل الحسيني هل هو قتيل أم ضحية التعامل بالسحر الأسود؟!»، رفعها مصطفى ليحدث صديقه:

- ما زلت تحتفظ بتلك الجريدة حتى الآن يا حاتم؟!

- لقد كان أستاذي وأخى الأكبر، وأنقذ الصغير بفعلته تلك.

- لقد كبر الطفل يا حاتم.. مرت عشر سنوات وكأنها البارحة.

- لديّ الشعور نفسه تجاه تلك السنوات.

جلس مصطفى على أحد الكراسي الخشبية وهو يعيد الجريدة مكانها، قائلًا:

- هل تصر على رحلة الغد إذن؟! ما جاء بي اليوم إلا خوفي الشديد عليك مما قد يحدث.. لقد أودى البحث عن المخطوط بحياه كامل الحسيني، ولا أريد أن يكون مصيرك أيضًا!

- هذه المكتبة يا مصطفى، وهذا البيت هما إرث ذلك الفتى.. وسيأتي الوقت المناسب لتخبره بكل شيء.. في المكتبة سيجد الطريق والإرشاد لمبتغاه.

- ماذا إن وجدوا المكان أولًا؟!

- إن لم أعد في خلال أسبوع من الغد خذهم معك أسيوط، وجد لهم مسكنا حتى يحين الوقت لعودة الفتى إلى هنا.

أخذ حاتم يتجول في أحد ممرات المكتبة ثم توقف فجأة وخلع خاتمه الكبير المنقوش عليه بخط عربي واضح «فالله خير حافظ» ثم أكمل:

- أعلم أنك لا تحتاج إليه، ولكن أرجوك حافظ على الخاتم من أجله فسيحتاج هو إلى حمايته.. وعندما يحين الوقت

أعطه له وأخبره أن يبحث عن النجمة ويستخدم الخاتم في الوقت المناسب.. في داخلة نفسه سيعلم ما عليه فعله؛ فهو ذكيٌّ فطن.

- حسنا يا حاتم.. سأفعل.

- شكرًا لك على كل شيء يا مصطفى.. أدين لك بالكثير.

- إنهم في أمان معي.. لا تقلق.. كما أنني وجدت عملا مناسبا في الوقت الحالي لولدك إمام خارج مصر.

- هذا جيد له ولعائلته، ولكن تذكر يا مصطفى أن لا تخبر الفتى شيئًا قبل أوانه فيعرضه للخطر.. سيلاحقكم الشر دائمًا.

- الله خير حافظ يا صديقي فلا تقلق.. أخبرني من سيكون معك فى المغرب؟!

- شاب نابغ وذكي من تلاميذي المقربين يدعى «جمال آغا».. بالإضافة لصديقي اليمني «فهد التميمي» فهو دليل ماهر كما تعلم، وتربطني به علاقة قوية.. يمكنني الثقة بهما فلا تقلق عليّ يا مصطفى.

استغرق الحديث قرابة الساعتين حتى فتح باب المكتبة وخرجوا ليصعدوا الطابق الثاني، أوصل حاتم مصطفى لأحد

الغرف ليأخذ قسطا من النوم ويستريح من سفره ثم ذهب لغرفة حفيديه ودخل مباشرة لينير ضوء الغرفة متحدثا:

- هل ما زال حفيداي الأشقياء مستيقظين؟!

نهض سراج وجرى ليقفز على جده شابكا يده على عنقه وقدميه حول خصره:

- يصارعني النوم يا جدي، ولكنه لن يغلبني قبل سماع حكاية اليوم.. أما أيمن فيأكل رزًّا مع الملائكة الآن.

ضحك جده وتحرك خطوات ليعيده لسريره وهو يقبل رأسه، ثم سحب كرسيًّا وجلس بالقرب من السرير.

- تتذكر بالطبع قصة العربي المجنون ل- "لافكرافت" التي حدثتك عنها قبل ذلك.

- ذلك الشاعر المسكين! بالطبع أتذكره.

ضحك حاتم من وصف حفيده للشاعر بالمسكين رغم ما حكى له عنه!

- سأكمل لك قصته لنتبين أهو مسكين حقا أم لا؟!

صفق الفتى مبتسما في تلهف لما سيقول جده.

- أخبرتك سابقًا بأن ذلك الرجل «عبد الله الحظرد»

الذي ذكر اسمه في كتاب «نيكرونوميكون» لكاتب الرعب الأمريكي لافكرافت قد ادعى أنه تواصل مع مخلوقات غريبة بعد مكوثه لأكثر من عشر سنوات في صحراء الربع الخالي، ادعى - أيضًا - معرفته مكان مدينة «إرم ذات العماد» التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، وأنه عرف ما عرفه هؤلاء القوم، بالإضافة للكثير من الأسرار عن عالم الموتى، وكيفية التواصل معهم، كتاب لافكرافت ذاك كلما ترجم لإحدى اللغات اختفت بعض النسخ بالكامل، بينما أحرق البعض الآخر بفعل الكنيسة وسياستها في التعامل مع ذلك النوع من الكتب باعتباره هرطقة وكفر، يقال إن نسخة وحيدة محرفة من ذلك الكتاب نجت، وهي محفوظة جّيدًا شأنها شأن الكثير من الأشياء في الفاتيكان، ولكن تلك ليست كل القصة ففي النهاية قال لافكرافت إن الشاعر المجنون لقي موتة شنيعة على يد مخلوقاته الغريبة التي اقتادته للجنون أولًا، أما عن قصة هذا الرجل عندنا نحن العرب فلا أصل لها، وهي مجرد خرافة لم تذكر حتى في الأساطير الشعبية التي جمعت في كتاب ألف ليلة وليلة، كما أن لقب الشاعر «حظرد» هو من وحي خيال لافكرافت!

قاطعه الصبي وهو يشعر بالضجر:

- لقد أخبرتني بتلك القصة العديد من المرات يا جدي، ولا

أرى جديدًا فيها!

- لو أنك تعلمت القليل من الصبر من جدك، ولم ترث استعجال أبيك.. الجديد هو أنّ باحثًا مصريًّا في الآثار يدعى «كامل الحسيني» وجد في أوائل التسعينات بعض البرديات القديمة في مكان لم يخبر عنه أحدًا، تحدثت تلك البرديات عن قصة شاعر يمني مجنون، وتشبه - كثيرا - القصة التي ذكرها لافكرافت، بالإضافة لمجموعة من الخرائط التي رسمت للمكان الذي يوجد فيه ما يسمى ب- "مخطوط العزيف" أو "كتاب الموتى" الأمر الذي يثبت صحة كتابات لافكرافت، وأنها ليست من وحي خياله بالرغم من اختلاف المسميات، فقد أطلق على المخطوط اسم "نيكرومانسر" أو "نيكرونوميكون"، ذكرت البرديات أنه رحالة يمني من صنعاء، جاب الكثير من البلاد والصحاري، وله الكثير من المغامرات التي لم تصلنا منها شيئًا في التراث الشعبي، ترك ذلك الشاعر مخطوطا (كتابًا) يتحدث فيه عن أسرار عالم الموتى، والكثير من الأسرار الغامضة التي لم يكشفها أحد حتى يومنا هذا عن السحر، اختفى الشاعر في ظروف غامضة، لم يعرفها أحد ويقال إنه عاصر بعض خلفاء الدولة الأموية، لم تذكره أيٌّ من كتب التاريخ وكأنهم تعمدوا إخفاء حكايته لتكون الوريقات التي عثر عليها كامل الحسيني أول دليل ملموس على وجوده، بقي لغز المخطوط قائمًا ولم يقم

أحد بحله حتى صاحب الوريقات نفسه.. ولكنك ستفعل يا عزيزي!

كان الصبيُّ قد غط في نوم عميق ليقوم حاتم بتغطيته جّيدًا ويهم بمغادرة الغرفة وهو يحدث نفسه:

- أعلم أنّ هذا كثير عليك؛ فأنت ما زلت طفلًا صغيرًا، ولكنه قدرك يا بني.

*****

في الصباح الباكر كان تلميذه جمال آغا في انتظاره في سيارة أجرة أمام البيت، لم يرد حاتم أن يودع أحد من أهل بيته كعادته لذلك تحرك بخطوات واهنة على أطراف أصابع قدميه ليستوقفه صوت هامس:

- لم تتغير أبدًا يا حاتم؛ فما زلت لا تحب الوداع!

- اخفض صوتك يا مصطفى، فلا أريدهم أن يستيقظوا ويشعروا بمغادرتي.

- على الأقل كان يجب أن تخبرهم بسفرك المفاجئ هذا.

- لهذا أنت هنا يا صديقي.. ستخبرهم أني أحبهم كثيرًا، وكل ما أفعله هدفه الحفاظ على حياتهم وإبقائهم بعيدًا.

- سيأتي اليوم الذي يعلمون فيه بكل ذلك يا حاتم.

تحرك الصديقان معًا خارج المنزل ليشير لهم جمال محيّيًا واضعا يده على ساعة يده، احتضن مصطفى حاتمًا حزينا وهو يشعر بالأسى عليه لدقائق ليبادله الأخير النظرات الحزينة نفسها!

- ألا تريد التفكير قليلًا في إلغاء تلك الرحلة يا حاتم؟!

- فات الأوان على ذلك منذ وقت طويل يا مصطفى.. يجب أن أعلم ما علاقة حفيدي بكل هذا، ولمَ ضحّى كامل بحياته محافظا على حياة حفيدي.. الوداع يا صديقي العزيز.

مرت قرابة الست ساعات منذ أقلعت الطائرة من ميناء القاهرة وصولا للدار البيضاء «كازابلانكا»، في صالة الانتظار كان هناك رجل طويل في عباءة مغربية صفراء، بشرة سمراء وعينين بنيّتين وشعر ناعم، مع بعض الشعر في منتصف الذقن، عرفه حاتم بمجرد رؤيته فتحرك نحوه ومن خلفه تلميذه.

- مر وقت طويل يا حاتم وليته كان أطول!

- أنا أيضًا افتقدتك كثيرًا يا فهد.

قالها حاتم وهو يضحك ساخرا محتضنا إياه لتظهر على وجه الأخير علامات الامتعاض والقلق.

- لم أقل إنّي افتقدتك، فكلما تواجدت في مكان حدثت الكوارث وحلت المصائب.

- في داخل نفسك تعلم أنك تفتقدني يا عزيزي فهد، وأنت سعيد لرؤيتي.

لم يرد عليه فهد وهو يحمل عنهم الحقائب ويهز رأسه ليتقدمهم في الخروج، نظر حاتم لتلميذه جمال الذي بدت على وجهه علامات البلاهة والصدمة من ذلك الاستقبال، بدا على فهد أنه في سن حاتم - تقريبا - أو يصغره ببضع سنوات ليست بالكثيرة.

- لا تقلق يا جمال فهذه طبيعة فهد.. إنه أذكى وأمهر دليل قابلته طيلة حياتي.. بالإضافة لطيبة قلبه وحفاوة استقباله بالطبع!

ضحك حاتم ولحق بفهد للخارج تاركا جمال متمسرًا مكانه للحظات شاردا فيما هو قادم، في الخارج سأل فهد:

- ما الوجهة التي سأخبر عنها السائق يا حاتم؟!

- بيتك بالطبع يا عزيزي!

قالها حاتم وهو يركب ليجلس في المقعد الخلفي للسيارة وفي جواره جمال ويغلق الباب، بجوار باب السيارة الأمامي

نظر له فهد في غضب

للحظات، ولكن في النهاية ركب وهو مغلوب على أمره فهو حاتم لن يخبره بتفاصيل شيء قبل أوانه!

- سنبيت الليلة عندك يا فهد وفي الصباح الباكر نشد الرحال إلى مدينة «مراكش».. احجز لثلاثتنا في فندق «عمر الخيام».

- هلا أنهيت حلقة أوامرك التي لا تنتهي يا حاتم حتى نصل البيت؟!

نظر حاتم لتلميذه وهو يقول ساخرًا:

- هل رأيت؟! إنّه يحبني كثيرًا.

صاح فهد:

- بالطبع أحبك يا حاتم، ولكن هذا ليس حديثا يدار في سيارة أجرة.. يبدو أنّك أصبحت عجوزًا خرف.

في صباح اليوم التالي، وبعد ثلاث ساعات ونصف تقريبا بالسيارة وصلوا مدينة مراكش، وتقع في الجهة الشمالية لسلسلة جبال أطلس، وفي الجانب الجنوبي من نهر تانسيفت، ترتفع مراكش عن مستوى سطح البحر بنحو ربعمائة وسبعة وخمسين مترا، كما تسمى بالمدينة الحمراء

نسبة إلى اللون الغالب على مبانيها، أسوارها مبنية من الطين، وتحيط بها العديد من أشجار النخيل العالية، تنقسم المدينة لمنطقتين إحداهما تسمى بالبلدة القديمة والأخرى حديثة البناء، يقع فندق عمر الخيام في البلدة القديمة بالقرب من أحد الأسواق، تتميز البلدة بأزقتها الضيقة والمتصلة ببعضها بالإضافة لأبنيتها المتلاصقة والمتجانسة في اللون، كما تمتاز بيوتها بالطابع الأندلسي العربي والتي تتألف من غرف عالية السقف منقوشة ومزخرفة بأشكال هندسية جذابة، البلدة محاطة بسور من جميع الاتجاهات، وتسود مراكش الأجواء الدافئة طوال العام لذلك يعد المناخ الجاف نسبيا هو المناخ السائد فيها، بدا تأثير الجو واضحا على وجه كلٍّ من حاتم وجمال اللذين يتصببان عرقًا وهم في استقبال الفندق، مبنى قديم يتألف من ستة طوابق ويافطة خشبية مهترئة في المدخل كتب عليها «فندق عمر الخيام» بالعربية والإنجليزية وتقييمه نجمتين.

- لا أعلم لماذا نترك الفنادق الكبيرة في المدينة والتي تطل على أماكن أكثر هدوءا وجمالا ونأتي هنا؟!

- لا نريد لفت الأنظار يا فهد.. كما أنه هناك من ينتظرني هنا.

قاطعهم الشاب في تأفف:

- هل توجد تكييفات هنا؟ فالجو حار بعض الشيء!

ضربه حاتم بأطراف يمناه على مؤخرة رأسه وهو يقول ساخرا:

- هل قال لكما أحد إنّنا في رحلة ترفيهية؟! هلّا أنهيت الإجراءات سريعًا يا فهد؟

كان هناك رجل يجلس على أريكة في الاستقبال يرتدي زيًّا أنيقًا مهندما ويتابعهم في صمت من خلف جريدة ما وهو يدخن سيجارة، نظر له حاتم وهم يغادرون ليشيح الرجل بنظره بعيدا ويمسك بفنجان قهوة أمامه، بعد لحظات من مغادرتهم أخرج هاتفه وطلب أحدهم:

- لقد وصلوا الفندق لتوّهم.. أظنهم سيرتاحون قليلًا ولن يغادروا الفندق قريبا.. لا تقلق سأوافيك بكل ما يفعلونه.

كانت غرفهم متجاورة وتقع في أحد أجنحة الطابق الرابع والذي يطل على السوق من ناحية، وعلى باحة جامع «الفنا» الشهيرة من ناحية أخرى، قاموا بتغيير ملابسهم وتفقد غرفهم ثم تجمعوا فى غرفة حاتم ليعرفوا منه ما التالي! تحدث حاتم فور دخولهم غرفته:

- بالطبع لم يلحظ أيٌّ منكما أنّنا مراقبون؟!

توجه بعدها ليفتح أبواب الشرفة متأملًا السوق والناس من تحته..

- برغم ابتعادي عن الأنظار وقدومي إلى هنا إلا أنهم وبطريقة ما عرفوا وتبعونا.

- من الذين تبعونا يا أستاذ حاتم؟!

- إنهم يسعون وراء المخطوط يا جمال.. قتلوا سابقا وسيقتلون مجددا كلّ من يقف بينهم وبين العثور على ذلك المخطوط.. هناك اثنان منهم الآن يحومون حول الفندق ويراقبون غرفنا بالإضافة للذي كان في الاستقبال!

همَ فهد بالتحرك نحو الشرفة ليرى الرجلين، ولكن حاتم أشار له بالتوقف.

- اجلس مكانك يا فهد.. لا يجب أن يشعروا ولو للحظة أننا كشفناهم.. سنلاعبهم الآن بدهاء ومكر.

قطع حديثهم اتصال هاتفيّ وارد لفهد:

- عذرًا.. سأعود بعد لحظات.

مرت دقائق على خروجه من الغرفة حتى عاد مجددا.

- إنها تطمئن عليّ وتخبرني أنها اشتاقت لي وترسل تحياتها لك يا حاتم.

- كم أصبح عمرها الآن؟!

- إنها في التاسعة عشر، وتدرس في كلية العلوم.. متفوقة جدا في دراستها.. وتعتبرك مثلها الأعلى يا حاتم.. تريد أن تخوض الكثير من المغامرات وتجوب البلدان!

توجه حاتم نحو صديقه وهو يبتسم ويربت على كتفه.. ليكمل الأخير:

- خير القدوة والمثل أنت يا حاتم، ولكنها حياة لا أريد لها أن تعيشها.

خرج جمال من الحمام في هذه الأثناء ليتوقفا عن الكلام فيما يخص ابنة فهد.

- هلا فكرتما معي كيف سنأخذ خطوتنا التالية دون أن يتبعونا؟!

أخذهم الحديث حتى ذهب كلٌّ منهم لغرفته ليستريحوا قليلا استعدادًا لما هو قادم، في الليل وعند أذان العشاء تحديدا خرج حاتم من غرفته مرتديا ملابس أنيقة، وبدأ النظر من حوله، ثم صعد السلم للطابق السادس من الفندق، دخل الجناح الموازي لجناحهم في الأسفل وطرق على الغرفة في موضع غرفته نفسه ليأتيه الرد:

- ادخل يا سيد حاتم فالباب مفتوح.

ما إن دخل أغلق الباب من خلفه تلقائيًّا ليجد الكثير من الرسومات والرموز على حوائط الغرفة، والكثير من آيات القرآن الكريم!

- هذه تمائم! رأيت مثلها من قبل.

قالها حاتم وهو يتجول في الغرفة لرجلٍ عجوز كفيف لم يستطع تبين عمره، الشيب هو المسيطر على رأسه ولحيته الطويلة، سبحة كبيرة خضراء عليها أسماء الله الحسنى حول عنقه.

- هلّا جلست من فضلك يا سلكاوي؟

- قبل عشر سنوات من الآن قتل أستاذي وصديقي كامل الحسيني في ظروف غامضة، ولم تتوصل الشرطة لشيء.. ترك لي ورقة مكتوب فيها «انتظر رسالة الأعمش واذهب له إلى أقاصي الأرض لو استدعى الأمر ذلك».. هأنا هنا الآن.

- لقد جعلت دليلك فهد يتقصى عني، ولكنَّه لم يصل لشيء.

- كيف عرفت ذلك؟!

- أنت تعلم بالطبع أنّ كامل وجد بعض الوريقات القديمة في التسعينات والتي لا نعرف متى كتبت تحديدا، تحمل

قصة رجل يدعى «عبد الله بن محمد الماجني» شاعر مجنون من صنعاء في اليمن، سافر وارتحل في الكثير من البلدان، وقضى عشر سنوات من حياته في الربع الخالي من الصحراء العربية، ذلك الجزء من الصحراء قيل إنّ هناك شياطين وعفاريت ووحوشًا شرسة ومخيفة تحرسه.. ذهب في أواخر حياته إلى بلدة مجهولة واستقر فيها حيث ألف كتابه الشهير «العزيف» و..

قاطعه حاتم في امتعاض:

- أنت لا تخبرنى بشيء جديد.. فأنا أعرف القصة كاملة.. هلّا دخلت في صلب الموضوع؟!

- كتاب لافكرافت الأصلي استند على الوريقات نفسها التي وجدها كامل، وضع لافكرافت في كتابه الكثير من الطلاسم والتعاويذ الحقيقية في السحر الأسود، وهذا ما جعل الكنيسة وقتها تقوم بإحراق كل نسخ الكتاب حتى المحرف منها، القصة هنا ليست في كلِّ ذلك، بل إن تلك الوريقات هي من جعلت كامل ومن قبله لافكرافت يجدونها وأغوتهم، لم يدر كامل بذلك إلا قبل وفاته بمدة قليلة، علم أنه يخسر نفسه ودينه، وأنه لو ساعدهم أكثر فمصيره جهنم، حكى لي أنَّ رجلًا غريبًا زاره في الحلم وأخبره بقول الله تعالى: (كلّا إنَّ كتابَ الفجارِ لفي سجّين)، وأمره بمساعدة طفل ما،

كانت هناك نبوءة في عالم الجن عن طفل سيولد، ويكون مقدر له إيجاد المخطوط وحمله ليتحكم في قوة كبيرة من شأنها جلب الاستقرار بين عالمينا، بالطبع بدأت تفهم يا حاتم ما أقصد، ومَنْ يكون ذلك الطفل! ألقى كامل تعويذة قوية لحماية حفيدك ليضحي بنفسه في سبيل ذلك تكفيرًا عن كل ما فعل.. بالطبع تتساءل لم انتظرت عشر سنوات حتى أحضرتك لأخبرك بكل ذلك!

نهض حاتم وأخذ يتفقد التمائم على حوائط الغرفة مجددا، ثم نظر للعجوز وهو يبتسم:

- بالطبع أعرف وإلّا لما صبرت كل ذلك سيدي الأعمش.. أخبرني كامل عن المقبرة التي تظهر كل بضع سنوات في بلد مختلف، وأنت الوحيد الذي سيدلني على مكانها كما فعلت سابقا.. لقد تذكرت الآن من تكون، وأين سمعت بهذا الاسم.. لقد كنت موجودًا معنا!

- عظيم يا حاتم! ذاكرتك قوية.. حدثت نفسي أنّك لن تتذكر من أكون!

- لو حدث ولم نعد من تلك المقبرة فعليك بجمع كل ما يخصّ كتاب الموتى من بحوث وخرائط، وبالطبع أيّ شيء سيخبرك به خدامك عن المقبرة من الداخل وترسلهم إلى مصر.. شخص هناك يدعى «مصطفى الكواملي» وهو يعلم

كيف سيخبّئهم جيّدًا حتى يحين الوقت.. إنه الوحيد القادر على إكمال ما بدأنا ومساعدة الفتى.

كان حاتم يرتدي حقيبة كتف صغيرة أعطاها للعجوز ومد يده في جيبه ليخرج مظروفا مغلقا.

- هنا ستجد كلَّ بيانات ذلك الرجل.

ألقى السلام وتركه مغادرا إلى غرفة فهد بالطابق الرابع، طرق حتى فتح له الأخير الباب، تحدث حاتم دون أي مقدمات:

- أريد أن نتمشّى قليلًا وتريني معالم المدينة.

- اجلس قليلًا حتى أنهي ما أكتب وأرتدي ملابسي.

- هل هذه مذكرات يا فهد؟!

- نعم.. سأرسلها صباحًا بالبريد لابنتي «لورين».

- هل ذكرت لها تفاصيل كثيرة عن كلِّ ما نقوم به؟!

- يجب أن تعلم ابنتي كلَّ شيء في حين لم نعد يا حاتم.. ذكرت لها الكثير عن حفيدك - أيضًا - فلا أحد يعلم ما يخبئه القدر لهما!

غضب حاتم ونهض وهو يصيح في وجه فهد:

- لو وقعت تلك المذكرات في اليد الخطأ ستكون كارثة! أنت تعرض الجميع للخطر يا فهد!

أنهى فهد ما كان يكتبه سريعا دون الرد على حاتم وارتدى ملابسه وتقدم صديقه الغاضب للخروج من الغرفة، تركوا جمال في غرفته نائمًا، ولم يوقظاه، تمشوا في باحة السوق الواسعة الكبيرة، والتي تحيط بها الأزقة من جميع الاتجاهات، حولهم الكثير من المباني الحمراء ذات الطابقين، الطابق الأرضي محال تجارية للأنتيكات والمشغولات اليدوية والملابس المغربية ذات الألوان المبهجة، أما الطابق الثاني فنصفه مفتوح بالكامل على باحة السوق، وسقفه وشرفته من الخشب المزخرف، وهي إمّا مقاهي أو مطاعم للسيّاح، الغالبية العظمى من أهل المدينة يرتدون العباءة المغربية التي تنتهي بغطاء رأس، وتلك التي ليس لها غطاء.. يرتدون معها طربوشًا على الرأس، صعدا أحد تلك المقاهي ليشربا فنجاني قهوة ويتسامرا قليلًا، في الأعلى جلسا بجوار الشرفة لينظر حاتم في دهشة على الناس وهم يرقصون ويهزون طرابيشهم في الباحة! بعضهم يعزفون للأفاعي من نوع «الكوبرا» الخطيرة لتتمايل على أنغامهم كحيوان أليف، والبعض الآخر يراقص القرود التي توجد بكثرة في الأسفل وتؤدي الحركات البهلوانية والشقلبات بطريقة مضحكة، بالإضافة للكثير من السياح الأجانب الذين قدموا من

مختلف البلدان يصفقون ويلتقطون الصور مع الحيوانات، ويتراقصون بطرابيش أهل المدينة.

- المشهد جميل من هنا يا فهد.. بعض المحال التجارية في الأسفل مع أرضية الأزقة يذكروني بحواري الحسين والمعز.

- إنّها المدينة الحمراء وسحرها يا عزيزي، ولكن إن لم تنتبه فقد ينشلونك في لحظات.. دعك من كلذ هذا الآن.. ستحتسي قهوة عربيّة في هذا المكان لم تذق مثلها من قبل!

- سندخل المقبرة بعد يومين بالمناسبة.. سيدبر صديق كامل أمر دخولنا.

نظر له فهد والخوف يملؤ عينيه..

- وهل سنثق في غريب التقيته توًّا؟!

- لمّا ذكره لي كامل من البداية في أوراقه.. سيلاحقون الطفل مهما كلف الأمر، وأنت تعلم بذلك.. إنها فرصتنا الوحيدة للوصول لذلك المخطوط قبلهم وإيجاد طريقة لتدميره حتى لو كلفني الأمر حياتي!

- لقد خضنا الكثير سويًّا يا حاتم.. لطالما عرضتني للخطر، ولكنك لم تتركني قط.. دائما كنت موجودًا لأجلي.. سنهزم هذا الشر معًا جنبا إلى جنبٍ، وسنحول دون وصولهم

للمخطوط أو حفيدك.

أنهيا قهوتهما ومعها حديثهما ليترك فهد الحساب على الطاولة ويشير للنادل، ظل النادل يتابعهم بعينه حتى نزلوا وابتعدوا عن المقهى، ومن ثمَّ أخرج هاتفه:

- سأزيل جهاز التنصت الآن من أسفل الطاولة.

*****

في اليومين التاليين بدأوا زيارة معالم المدينة وآثارها، اشترى حاتم وجمال عباءة مغربيّة بغطاء رأس ليسهل عليهم الاختلاط بأهل المدينة، لم يتركوا مكانًا في المدينة إلّا وذهبوا إليه حتى جاء صباح اليوم الثالث، صعد حاتم غرفة ذلك المدعو «الأعمش» فلم يجد له أيّ أثر، حدث نفسه:

- إنها الإشارة للتحرك.

نزل سريعا ليخبرهم بالاستعداد لمغادرة الفندق، بالطبع بات الطرف الآخر يعلم الآن بموعد دخول المقبرة وينتظر تحركهم من الفندق، ما إن استقلوا السيارة من أمام الفندق حتى تحركت خلفهم ثلاث عربات مليئة برجال مسلحين، أخذت سيارتهم تجوب شوارع المدينة قرابة الساعة والنصف، حتى قررت إحدى السيارات الثلاثة من خلفهم اعتراض طريقهم في إحدى المناطق الهادئة الخالية من

الناس، نزل الرجال المسلحون ليخرجوا السائق والركاب تحت تهديد السلاح ليتضح أنهم ليسوا المنشودين!

فى اليوم الأول لوجودهم في الفندق وتحديدا فى غرفة حاتم، نطق جمال مقاطعا حديث أستاذه وصديقه:

- لديّ فكرة أستاذي العزيز قد تضللهم.. لن تبعدهم عنّا، ولكنها كفيلة بتأخيرهم بعض الوقت.

- أخبرنا إذن يا جمال بما لديك!

- سنأتي بثلاثة رجال غيرنا ونجعلهم يبدون أنهم نحن و...

رمقه فهد بنظرات غريبة وكأنه يحاول خداع أطفال صغار.

- أعلم أنّكم تعتقدون أنّي أحمق، وهذه الخدعة لن تنطلي عليهم، ولكنّنا سنغير ملامح وجوههم ليصبحوا مثلنا تماما لدرجة أنّ من ينتظرنا بالأسفل لن يتردد لحظة واحدة في إعطائهم الإشارة لتتبع هؤلاء الثلاثة.

- وكيف ذلك يا جمال؟!

- لقد تعلمت - مؤخرا - يا أستاذي تقمص الشخصيات وتغيير الوجه لتتشبه بشخصية مشهورة، مثلًا كما يحدث في التمثيل.. سأعمل عليها في غرفتي إذا أحضرتما لي المواد المطلوبة، ووفرتما لي الوقت الكافي.

سكتا للحظات ثم تحدث حاتم:

- في نهاية اليوم سآخذ فهد ونحتسي القهوة في أحد المقاهي ونتمشى قليلًا.. عند نزولنا اصعد للطابق السادس، وادخل الغرفة في موضع غرفتي نفسه وستجد ما تحتاج من مواد.

كان الأعمش قد وفّر لهم سيارة كبيرة تنتظرهم في شارع جانبيٍّ للفندق، تحركوا لها بعد لحظات من تحرك من يراقبهم وابتلاعهم الطعم، تحركت بهم السيارة حتى وصلت منطقة «قبور السعديين»، أمسك حاتم بيد الأعمش لينزله من السيارة ليبدأ الأخير في الحديث:

- المنطقة من أهم المعالم التاريخية في مدينة مراكش، والتي بنيت في عهد السلطان «أحمد المنصور» في القرن السادس عشر، تقع بالقرب من جامع «الكتبية»، وبنيت بهدف أن تكون مقبرة مناسبة للسلطان وعائلته، وبالفعل دفن فيها السلطان عام ألف وستمائة وثلاثة، تلك المقابر هي تحفة معمارية تزينها النقوش الإسلامية، وتضم العديد من المنحوتات الخشبية، قبابًا عالية وتماثيل رخامية، دفن فيها ما يقرب من المائة فرد من العائلة المالكة من بينهم الجنود والخدم والمستشارون الموثوقون، كما تضم قبر «مولاي يزيد» الذي عرف بالسلطان المجنون، وهو لم يحكم سوى

عامين فقط!

في الداخل شاهدوا الكثير من الأعمدة الرخامية العالية، وحوائط منقوشة على الطراز الإسلامي القديم، الأرض بها العديد من القبور الحجرية المتجاورة، وهناك العديد من الرجال ضخام البنية يحمل كلٌّ منهم مسدسا في يمينه، جلس الأعمش القرفصاء على الأرض ثم قال مخاطبا رجاله:

- وجهوني نحو القبور الملكية في المكان.

بدأ التسبيح ونطق بعض التمائم بصوت منخفض لدقائق قليلة ثم أشار على أحد القبور قائلًا:

- حركوا هذا القبر من مكانه وافتحوه.

اجتمع أربعة من الرجال وزحزحوا القبر من مكانه قليلًا ليظهر من تحته باب خشبيٌّ قديم في منتصفه حدقة من الحديد ويبدو أنّه مدخل لسرداب ما تحت القبر، تحدث العجوز أسفًا:

- اعذرني يا حاتم.. فهنا آخر ما أستطيع إيصالك إليه.. ستكونون بمفردكم في الداخل.

تقدم حاتم نحو العجوز وقبل رأسه وشكره عرفانا بالجميل ليهمس الأخير في أذنه:

- الحذر كل الحذر من «الحارث» يا حاتم.

ثم أشار لرجاله بأن يفتحوا باب ذلك السرداب، ظهرت سلالم حجرية صغيرة، ولا يمكن تبين نهايتها فالظلام هو المسيطر على المكان في الداخل، نزل حاتم ومن خلفه فهد وجمال وفي يد كل منهما مشعل خشبي للإنارة ليغلق عليهم من الخارج رجال الأعمش، السلم صغير وضيق للغاية ويحيط به من الجانبين حائط صخري، نزلوا مسافة خمسة وعشرين مترًا تحت الأر ض حتى لامست أقدامهم أخيرًا قاع السرداب وانتهت السلالم.. مكان واسع جدا ويمتد أمامهم لأمتار به الكثير من الأعمدة الرخامية

العالية، تحرك فهد لينير المشاعل الخشبية على الجدران باستخدام

خاصته، السرداب خال، ولا يوجد به أثر لشيء إلا من صدى صوتهم الذي تردد كلما تحدث أحدهم، تقدموا خطوات قليلة في المكان حتى بدأت النقوش على الأعمدة في الظهور ليقرأ فهد بصوت عال:

- "اركع فأنت في حضرة ضريح المعظم والمبجل صاحب كتاب الأسرار، وتذكر ألا تخطو خطوة واحدة من هنا قبل أن يؤذن لك بذلك.. هنا موتك أصبح حتميًا، وخروجك بات مستحيلا، حامي المكان مطلع على ما في عقلك وقلبك، إنها

أرض مقدسة.. إنها أرض الموتى وسيدهم!".

بدأ جمال النظر لأستاذه في خوف والمشعل يهتز في يده، ظهر لهم قط من النوع الفرعوني شديد السواد مع عينين زرقاوتين، بدأ يحوم حولهم للحظات ثم تغيرت هيأته لرجل يصل طوله قرابة المترين ويرتدي وشاحًا أسود اللون يغطي رأسه وأطرافه ويخفي معالم وجهه، تحدث في لهجة صارمة شديدة الغلظة:

- من الذي تجرّأ على الدخول للمكان؟! سيكون عقابكم شديدا!

بدا غاضبا جدًّا وهو يكمل:

- اركعوا في الحال أو تموتون.

بدأ حاتم التراجع خطوات للخلف في بطء شديد، وهو يشير لهذا الرجل بيديه أن يهدأ، تسنت له الفرصة أن يخرج سكينا كان قد دسه في بنطاله ورماه في غمضة عين وهو يمثل أنه يركع لتصيب السكين عين الرجل اليسرى فيختفي تاركا صدى صوت متألم يتردد في أرجاء المكان، اهتز المكان وبدأ في الانهيار وصوت آخر يتردد:

- ستموتون جميعا موتة شنيعة جراء ما فعلتم!

ظهر ضوء شديد السطوع من أمامهم في نهاية المكان، صخرة كبيرة كادت أن تفتك بجمال لولا فهد الذي ألقى بنفسه عليه ليبعده من تحتها في آخر لحظة، جروا نحو ذلك الضوء الذي قادهم لمكان أكثر اتساعا، كان الضوء المنبعث بفعل بفعل الحوائط الذهبية والتي تزينها الأحجار الكريمة مختلفة الألوان، رأوا الكثير من التماثيل الحجرية الضخمة لجنود عمالقة مسلحين بالدرع والسيف، في منتصف المكان لمحوا بابا حجريًا والقط الذي ظهر من قبل أمامه بعين واحدة والأخرى يسيل منها الكثير من الدماء سوداء

اللون، تحول القط لوحش كبير ضخم البنية قبيح الشكل، وله قرنان

ضخمان، ضرب بإحدى قدميه الأرض فتصدعت من تحتهم ثم صاح بأعلى صوته في غضب وحرقة؛ فبدأت تماثيل العمالقة التحرك من مكانها، وفي غمضة عين كان أمام حاتم ممسكا به من رقبته ورفعه من الأرض لينظر في عينيه مباشرة، ألقى به في قوة ليصدمه بأحد الجدران لتتهشم من خلفه، ليظهر أمامه من جديد ويكرر ما فعل، ثم صعد به لسقف المكان في سرعة شديدة حتى اختفى كلاهما عن الأنظار، أما جمال وفهد فأخذا يجريان متجنبان هجوم العمالقة والسهام التي أمطرتهم من حيث لا يعلمون،

أصاب فهد سهم في كتفه وبعض الحجارة ضربت جمال لتسبب له الكثير من الجروح، بدأ المكان في الانهيار بالكامل كسابقه ليظهر ممر في أحد أركانه ويبدو أنه مخرج آخر لذلك السرداب، جروا نحوه بأقصى سرعة ممكنة وما إن اقتربوا منه بدأت الأرض من أمامهم تتصدع لتفصل بينهم وبين ذلك المخرج، دفع فهد بجمال للقفز قبل أن تتباعد المسافة بينهم وبين المخرج.

- اقفز يا فهد بسرعة.

صاح جمال وهو أمام المخرج يتحامل على نفسه للوقوف بصعوبة، نظر له فهد مبتسما وهو يقول:

- لن أترك حاتم.. نخرج سويًا أو لا نخرج.. اذهب يا فتى وانجُ بحياتك.

دموع سيطرت على الطرفين، ونظرات بمشاعر مختلفة بالتأكيد الحزن هو سيدها، انهار المكان بالكامل؛ ليغلق المخرج والمكان الفاصل بين فهد وجمال، وجد جمال نفسه يسلك ذلك الممر متحاملا على الجدران حتى صعد سلم من أمامه ليجد نفسه في باحة مليئة بالناس، تحرك لخطوات وهو يتأمل كل شيء من حوله وذلك المخرج الذي اختفى بمجرد خروجه، غلبه البكاء والألم والحزن ليسقط أرضًا فاقدًا الوعي، أما فهد فقد بدأ الجري عائدًا أدراجه باحثا عن

صديقه وهو يمسح دموعه محاولا التمسك برباطة جأشه، ممر في ممر وكأنها متاهة حتى غاب عن أنظار العمالقة، سمع صوت صديقه فأخذ في تتبع مصدر الصوت ليجد الباب نفسه الذي ظهر لهم في الباحة الثانية في نهاية أحد الممرات ومن أمامه حاتم، ولكنّ عينيه سوداوتان بالكامل، وفي يده زجاجة صغيرة كتلك التي في حفظ العينات في المعامل وهي مليئة بالدم!

- هل أنت بخير يا صديقي؟!

لم يجب عليه، ولم ينظر له حتى؛ فأخذ فهد يهز في جسده بعنف وهو يصيح:

- حاتم.. حاتم.. ماذا حدث لك يا صديقي؟!

التف حاتم في لا مبالاة لفهد وصياحه وفتح زجاجة العينات المليئة بالدم وعلى أحد الخطوط المنقوشة على ذلك الباب الحجري والذي يلتف حول نفسه في دائرة مغلقة تؤدي لوجه قبيح لتيس عابث يخرج لسانه وله قرنان على الرأس، بدأ في سكب قطرات الدماء ليبدأ المكان في الاهتزاز للحظات ثم يعود لسكونه، ويبدأ الباب في التحرك، في اللحظة نفسها كان ذلك القط المتحول أعور العينين في هيئة الرجل الطويل من خلف فهد وهو يغرس رمحا طويلا في منتصف ظهره ليخرج من الجهة الأخرى مخترقا صدره

ويرفعه ويلقيه في غضب جانبا.

*****

استيقظ حاتم في مكان ما، وهو لا يتذكر شيئًا على الإطلاق، بدأ النظر من حوله ليجد نفسه تحت محراب ما في أحد أركان مسجد له باحة واسعة كبيرة، وهناك صبيٌّ يحدق له في غرابة شديدة ليشير إليه بالاقتراب، شعر بألم شديد في رأسه فوضع يده عليها وهو يتألم، ثم حدث الصبي:

- اقترب يا فتى ولا تخف.

تقدم الصبي وجلس بجواره في خوف.

- هلّا أخبرتني أين أنا؟!

- تحدث الصبيُّ على استحياء وبصوت متقطع:

- أنت في المسجد الأموي الكبير.. سيدي الغريب.

- وأين يقع هذا المسجد في مدينة مراكش تحديدًا؟!

سكت الصبي للحظات وهو ينظر في بلاهة شديدة فاتح فمه، بدأ في حك مؤخرة رأسه ثم أجاب:

- عن أيّ «مراكش» تتحدث سيدي الغريب؟! أنت في مدينة دمشق.

- دمشق! يبدو أنّي أحلم، أو الألم في رأسي سبب في هذه التخيلات!

- هل أنت بخير سيدي الغريب؟!

- لم تستمر بمناداتي هكذا يا فتى.. هاه؟!

صاح حاتم في الصبح لينهض الأخير خائفا ويهم بالرقض، استوقفه حاتم:

- عذرًا يا فتى على وقاحتي.. هلّا جلست وأخبرتني أين أنا تحديدا؟!

- لقد أخبرتك أننا في المسجد الأموي في وسط دمشق!

حدث حاتم نفسه في غرابة شديدة مما يحدث:

- دمشق! كيف جئت إلى دمشق.. إنّ هذا جنون لا محالة! ثم بدأ في لطم خديه وهو يقول بصوت مسموع:

- أفق يا حاتم.. أنت تحلم بالتأكيد.

زحف الصبي للخلف مبتعدا عنه خائفا من تصرفاته الغريبة تلك، لاحظ حاتم نظرات الصبي ثم توقف عما يفعل قائلًا:

- يبدو أنّي لست أحلم، وكل هذا حقيقيٌّ!

- بالطبع حقيقي، وسأذهب بنفسي لكبير الحرس ليأتي

ويأخذك للخليفة.

- خليفة! هلّا أخبرتني في أيِّ عام نحن يا فتى؟!

- نحن في العام الخامس والتسعين من الهجرة سيدي الغريب.. خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان.

تراجع حاتم برأسه للخلف في موضع النوم، وهو يصيح:

- لا لا لا.. هذا كله غير حقيقي.. ماذا يحدث لي؟!

- سأذهب الآن لأخبر كبير الحرس بأمرك سيدي قبل أن يرفعوا أذان الظهر، ويراني شيخي هنا وأتعرض للعقاب.

- هلّا أحضرت لي بعض الطعام قبل ذهابك؟ فأنا جائع.

قالها حاتم في مكر ليمنح نفسه بعض الوقت، ويفكر فيما يحدث، أحضر له الصبي بعض الطعام ليأكله، وهو يتأمل كل ما يفعله حاتم حتى ظن الصبي أنه مجنون، بعد القليل من الوقت دخل جندي باحة المسجد، رآه الصبي من بعيد فتبسم قائلًا:

- سيوفر هذا على الذهاب لكبير الحرس، وقد يساعدك - أيضا - أيها الغريب.

- ماذا تقول يا فتى؟!

- هناك جندي دخل المسجد لتوه سأذهب لأخبره عنك.

همّ الفتى بالنهوض والإشارة للجندي فلحقه حاتم بضربة خفيفة أفقدته الوعي.

- ستعذرن على هذا يا فتى وتسامحني.

تحرك بخطوات خفيفة وسريعة خارج المسجد ليجد حصانا على بعد خطوات من المدخل، خاطب نفسه قائلًا: سأستعير هذا الحصان قليلا.. إنها ليست بسرقة في النهاية. ليركبه ويطير به بعيدا عن المسجد مختفيا عن الأنظار.

*****

الفصل الرابع

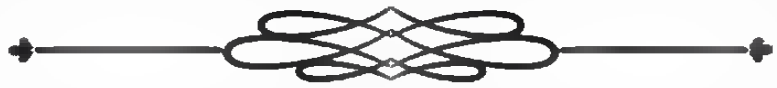

مكان صحراوي مجهول:

فتح الفتى أحد عينيه بالبطء مغمضا الأخرى وهو يغطي وجهه بظهر كفه الأيسر، السماء من فوقه صافية، والشمس في المنتصف شديدة السطوع، رمال كثيرة ممدودة من تحته وتغطي أجزاء من جسده شبه المدفون ليبدأ في النظر من حوله في عدم استيعاب! صحراء لا ترى عيناه آخر لها، وهناك جسد لفتاة ملقاة على بعد ثلاثة أمتار منه حالها لا يختلف كثيرا عن حاله، صداع يصحبه ألم شديد في الرأس.

- أفق يا فتى.. لقد مر قرابة الساعتين وأنت على هذه الحال.

تجاهل ذلك الصوت في رأسه وحاول النهوض متحاملا على قدميه، ولكن سرعان ما وقع أرضا!

- لا تتحامل على نفسك وتجهدها يا فتى؛ فلديك التواء في الكاحل الأيسر. نظر حوله مفزوعا فلم يجد من يحدثه!

- علام تبحث يا فتى؟!

تراجع زحفا للخلف وهو يصيح خائفا:

- من يحدثني؟!

- أرجوك لا تفزع.. لست شخصا فعليا ستراه.. أنا صوت يحدثك داخل رأسك، ويمكنك مناداتي بشداد.

حدّث الفتى نفسه وهو يستلق يبظهره مجددا على الرمال:

- يبدو أنّي أهذي بفعل الشمس!

- هل ما زلت ستكمل غفوتك؟! لا وقت لدينا لهذا، ولست تهذي.. الصوت الذي تسمعه حقيقيٌّ، ويجب أن نجدَ حلًّا للمصيبة التي نحن فيها.

- لقد سمعت هذا الصوت من قبل!

- بالطبع سمعته من قبل.. لقد أخبرتك عن الحارث وأنتم في بداية دخول المقبرة.

- ولكن كيف؟!

- اهدأ وركز معي قليلا وسأخبرك كل شيء.

عدل سراج من وضعية نومه ليبقى في وضعية الجلوس وهو غير مستوعب أو مصدق لما يحدث من حوله حتى الآن.

- صوت في رأسي يحدثني، ويبدو أنني جننت! ربما أكون مت تحت الأنقاض!

- لم تمت، وما يحدث من حولك حقيقي جدًا.. يا سيدي أنا أدعى شداد كما أخبرتك من قبل، وأنا كبير خدمة الجن الموجودين في خدمتك ورهن إشارتك.. أنا هنا لحمايتك.

- أيّ خدم؟!

تغيرت نبرة الصوت الذي يحدثه داخل رأسه لتصبح حادة بعض الشيء:

- لو صبر القاتل على المقتول.. اسمع يا فتى حديثي حتى النهاية، ولا تكن غبيًا متسرعًا كبني جنسك الذين لا يعرفون شيئًا عن الصبر إلا أنهم سيتعلمونه من الصيد.. مجددًا اسمي هو شداد، وأنا من الجن الأخيار.. استدعاني الخاتم الذي ترتديه فور شعوره بالخطر عند دخول حامله المقبرة.. لا أعلم حقيقة كيف لشاب صغير مثلك بخاتم كذاك! ثلاثة آلاف خادم من الجن في خدمة مالك الخاتم.. أنت تفكر وتعطي الأمر، وأنا ورجالي علينا التنفيذ والطاعة والحماية بالطبع.

ضرب سراج كفًّا على كف وهو يضحك حائرًا من أمر ذلك المدعو شداد وسخرية القدر التي تفعل به كل ذلك، حك رأسه بيمناه ثم استلقى على الرمال مجددًا، وهو يفكر

بصوت مسموع.

- ثلاثة آلاف خادم من الجن! يمكن فعل الكثير بهؤلاء أليس كذلك؟!

ابتسامة مصحوبة بنظرة مليئة بالأمل للسماء حتى قاطع شداد صفائه

- هذا إن خرجنا من هنا أولًا يا فتى.

- يا لك من هادم للحظات الجميلة يا شداد، ولكنك من الجن بطرقعة إصبع تعيدنا للديار أليس كذلك؟!

- ليس الأمر بالسهل كما تعتقد يا فتى.. نحن في وسط شيء أكبر منا جميعا.

- ولم لا أراك إذا يا شداد؟!

- يمكنني الظهور والتجسد في أيّ هيئة أريد، ولكن ذلك سيعرضني للخطر في الوقت الحالي.

زحف سراج ببطء نحو الفتاة الملقاة على بعد خطوات منه:

- لورين!

كرر النداء عدة مرات مع هزة بسيطة في الكتف، فتحت عينيْها وفي رد فعل تلقائيٍّ لطمته على خده بقوة، ثم ابتعدت

للخلف وهي تنهض فزعة..

- مَن أنت يا هذا؟! وكيف جئت هنا؟! هل أنا مخطوفة؟!

وضع سراج يمناه على خده يتحسس موضع اللطمة في ألم، جاءته ضحكة شداد وهو يقول ساخرًا:

- هذه اللطمة كفيلة لإخراجك من توهانك لبقية الوقت يا فتى.

تجاهل سخريته ونظر لها محاولا تهدئتها:

- أنا سراج مساعدك! عليك الهدوء واستيعاب ما يحدث من حولنا.. بطريقة ما نحن في صحراء لا أرى نهاية لها! ولا أعلم كيف جئنا إلى هنا!

- لا أعرفك يا هذا.. لقد خطفتني.. أليس كذلك؟!

بدأت البكاء كالأطفال والنظر من حولها في خوف وتوتر شديدين، جلست على ركبتيها مسلمة، قائلة:

- هل ستنتهك عرضي، ثم تقتلني وتلقي بجثتي في هذه الصحراء؟!

ضحك شداد ساخرًا مرة أخرى.

- يبدو أنها ترى الكثير من أفلام الجريمة يا فتى، وستتعبنا

معها!

أكملت لورين وهي تتوسل باكية:

- أرجوك لا تفعل بي شيئًا وسأعطيك ما تريد.. أعدني لبيتي أرجوك.

عويل كالأطفال من جانبها، وضحك وسخرية من جانب شداد، صاح سراج غاضبا:

- اسكتا كلاكما في الحال.

تحامل الفتى على قدميه من جديد وتقدم نحو لورين واضعا يده على كتفها..

- أرجوك لا تخافي.. ليس هناك وقت لهذا الهذيان فنحن في ورطة حقيقية هنا.. أرجوكِ تذكري ما حدث في المقبرة من لحظات.. أستاذ جمال والشيخ تمام! سراج مساعدك الذي ورطتيه في كل هذا! المكان الذي انهار فوق رؤوسنا!

أصابها ألم في الرأس لتنهض متراجعة للخلف وهي ترى ومضات مما حدث، سراج يجري عليها ويحتضنها قبل سقوط الحجارة عليها، صاحت وهى تجري لتحتضنه بقوة!

- أنت من أنقذت حياتي.. أنا مدينة لك بالكثير، وسامحني على تلك اللطمة.. ولكن كيف؟!

حدثه شداد:

- قبلها يا فتى فهن يحببن تلك اللحظات.

أبعدها سراج عنه سريعا وهو يقول:

- ماذا! بالطبع لا.

اعترت علامات الخجل وجه لورين، واحمرت وجنتاها مما فعل سراج!

- لم أقصد ذلك صدقيني.. هناك أحمق يخاطبني في رأسي لتصدر مني أفعال حمقاء مثله.

قالت في خجل ووجهها في الأرض:

- لا عليك.. أنا الآسفة عما بدر مني.. أردت شكرك فقط على إنقاذك حياتي.

نهض سراج وأخذ يبحث عن حقيبة ظهره ليجدها مدفونة في الرمال على بعد خطوات من مكان استيقاظه، لمح بعينه خاصة لورين فذهب وأحضرها لها ثم تحدث:

- ماذا الآن يا شداد؟

- لقد جُبت تلك الصحراء خلال نومك، ولم أجد نهاية لها.. تحيط بنا الرمال من كل جانب، ولكن على بعد مسيرة يوم

وليلة من هنا غربًا توجد قرية مهجورة لا أثر للحياة فيها.. يبدو أنّ من جلبنا إلى هنا يريدنا أن نذهب إليها، وربما نجد بعض الزاد والمياه لكما.. لم أستطع دخولها واستكشاف ما فيها للأسف؛ فهناك قوة غريبة تحمي المكان وتحصنه.. ما يقلقني هو أنه لا أثر للحياة فيها رغم ذلك فمن يحميها إذن؟!

- عظيم.. أنت الجنيُّ هنا وتسألني!

- إنها مخاطرة ولا أعتقد أن لك قرارًا فيها فإذا بقيت هنا أنت ميت لا محالة.

- حسنا سنذهب إذن.

- هل تحدث نفسك يا سراج؟!

قالتها لورين وهي تمقته بنظرات استغراب ليجيبها:

- هذا موضوع يطول شرحه صدقيني.. سأخبرك به ونحن في طريقنا.. سنغادر من هنا في الحال فأمامنا مسير يوم وليلة لنرى ماذا يخبئ لنا هذا المكان!

*****

بدأوا السير داخل هذه الصحراء التي لا آخر لرمالها، والدليل صوتٌ يتحدث داخل رأس سراج، لورين بدأت تنظر له على أنه قد جن بالكامل، لم يتوقف عن الحديث إلى نفسه

بصوت مسموع منذ استفاقت واستعادت وعيها، غربت الشمس، وبدأ الليل في الدخول عليهم ليعم الظلام أرجاء المكان وتبدأ السماء في إنارة الطريق من أمامهم تدريجيًّا بنجومها، تململت لورين وشعرت بالتعب وتوقفت من خلفه لحظات ثم جلست على الرمال وصاحت:

- لقد تعبت من المشي يا سراج، وبصراحة لا أصدق أنّي أتبع مجنونًا مثلك، ولكن دعنا نستريح قليلا ونستبين بعض الأمور.

توقف بدوره وعاد نحوها وجلس بجوارها..

- حسنا لنستريح فقد تعبت أنا أيضا.

استلقوا على ظهورهم وبدأوا في تأمل النجوم والسماء من فوقهم، عمّ الصمت الأجواء للحظات فقد خطفتهم السماء بسحرها وجمالها الخلاب حتى قطع شداد صفوهم قائلًا:

- يا لها من لحظة رومانسيّة تستدعي منك أن تمسك يدها يا فتى!

ضحك سراج بصوت عالٍ ليكمل شداد:

- أخبرها بأن تلك النجوم ما هي إلا إنعكاس لجمالها، وأن الشاعر الفلسطيني «محمود درويش» عندما قال «على هذه

الأرض ما يستحق الحياة» كان يقصد بالتأكيد النظر في عينيها.

تبسم وهو يقول ساخرًا في صوت مسموع:

- وهل تعمل شاعرًا بالليل يا شداد؟!

أكمل ضحكه وهو يوجه نظره نحو لورين قائلًا:

- أعلم أنّكِ تنتظرين تفسيرًا لما يحدث منذ تحركنا.

- أنا متأكدة أنّك مجنون يا سراج ونحن في عداد الموتى.. ولذلك سأخبرك بعض الأشياء التي تجهلها عني و...

قاطعها متحدثا:

- هناك صوت يحدثني في رأسي لجنيّ يدعى «شداد».. وهناك غيره ثلاثة آلاف في خدمتي وقتما أردت.. هو من أخبرني عن البلدة التي نحن في طريقنا لها.. نظراتك تقول إنّك لا تصدقين ذلك!

اعتدلت في جلستها، وفتحت حقيبة ظهرها وأخرجت دفترا ما وأمسكته في يدها لحظات قبل أن تبدأ الحديث.

- لا أستعجب ما تقول فحديثي أغرب وأعجب.. في العام ألفين وستة مات والدي تحت انقاض سرداب ما تحت قبور السعديين الشهيرة في المغرب.. لم يمت وحده بل وجدك

حاتم أيضًا.. ترك لي هذه المذكرات في يدي والتي تحوي الكثير من الأسرار عن مغامرته مع جدك وعنك.. نعم تحدث عنك كثيرا؛ فأنت محور الحديث في مذكراته.. سأريك كيف ختم تلك المذكرات. فتحت لورين الورقة الأخيرة من المذكرات والتي كتب فيها «عزيزتي لورين.. احرصي على دخول سراج المقبرة وافديه بحياتك إن تطلب الأمر فهو المنتظر والمخلص.. أحبك كثيرا».

أغلقتها واحتضنتها لتغلبها دموعها وتبدأ في التساقط على المذكرات، تنهدت ثم أكملت:

- لم يكن عملك معي مساعدًا محض صدفة.. لقد راقبتك لسنوات وانتظرت اللحظة المناسبة.. كلّ فترة من الزمن يظهر شيخ يتنبأ بمكان المقبرة الشهيرة التي لطالما أوجدت الكثير من التساؤلات ولم يعرف أحد سرها.. أنت هنا لأن هذا هو قدرك وأيًّا كان ما تقول سأصدقه وأكذب عقلي.. هذه المغامرة مهمة لك بقدر أهميتها لي وأكثر.

تحدث سراج في بلاهة:

- ولكني لست أفهم شيئًا!

- كما أخبرتك لقد ذكر والدي أنّك أساس كل شيء، وكل هذا يتمحور حولك.. قطرات من دمك كانت كفيلة لفتح باب

المقبرة في حين أنها تتطلب تضحية بشرية كاملة أي ذبح أحدهم على مدخلها كما أخبرني الشيخ تمام.. ولكن والدى كان قد ذكر في كتاباته أن جدك خطط لاستخدم دمك من قبل وعلم أنه سيفي بالغرض لدخولهم المقبرة في المغرب.. كنت محقة في تجربتي ذلك فقد نجح كما رأيت!

- وإن لم ينجح هل كنتم لتذبحوا أحدهم على المدخل؟!

- الشيخ تمام كان يخطط للتضحية بأحدهم بالطبع.

أخذتْ نفسًا عميقا وهي تمسح دموعها لتكمل:

- ليس هذا موضوعنا الآن.. بقدر ما ترك والدي من معلومات في مذكراته إلا أنها مبهمة وينقصها الكثير.

- هلّا أعطيتني تلك المذكرات لألقي نظرة؟!

- بالطبع تفضل.

أخذ سراج المذكرات وبدأ تفقد بعض أوراقها وما كتب فيها، حتى وصل عند ورقة مكتوب فيها «في مكتبة جده سيجد الإجابة فأنا واثق يا ابنتي أن حاتم سيرسل كل ما يخص أبحاثه عن المخطوط إلى مصطفى، والذي بدوره لن يجد مكانًا مناسبًا إلا المكتبة فهي مخفية عن الأنظار وقد بناها حاتم بنفسه، ولم يعلم أحد سواه ومصطفى بأسرارها».

نهض سراج وأخذ يتمشى مبتعدا عنها وهو يصيح:

- لست أفهم شيئًا.. كل هذا مخطط له من قبل!

- أعلم أنه كثير عليك ما يحدث يا سراج، ولكنه قدرك.. أخبرني والدي أنْ أبحثَ عن المقبرة وعند ظهورها أذهب للشيخ مصطفى فهو يعلم ما عليه فعله، ولكني وجدته قد مات.

- لماذا أنا؟!

- هذا ما علينا اكتشافه سويًّا.. يجب أن نصل لإجابات قبل أن يلاحقنا الشر الذي يبحث عن المخطوط، وتسبب في موت والدي وجدك.. لقد علم جدك حاتم بوجود شيء مهم جدًّا في تلك المقبرة.. ربما دليل على مكان المخطوط أو شيء ينهي كل هذا!

- شداد: يجب أن تتحركوا الآن؛ فأمامكم مسير طويل ولا وقت للمكوث هنا أو الراحة.. بدأت أشعر بشيء غريب كما حدث عند دخولك المقبرة وظهر الحارث.. إن ظهر مجددا ستقع بيننا معركة أخرى لا أحد يعلم نتائجها!

تنحنح سراج ليخبر لورين بذلك:

- يخبرني شداد بأن علينا المضي قدما في طريقنا.

- حسنا يا سراج.. أنا معك حتى النهاية، وأريدك أن تعلم أنه لو تطلب الأمر سأضحي بحياتي من أجلك.

هزّ رأسه مبتسما ونهضوا لإكمال المسير لوجهتهم، أشرقت الشمس عليهما وسرعان ما بدأت تضرب فيهما بأشعتها الشديدة، أصابهم ظمأ شديد فآخر شربة مياه لديهم نفدت منذ ساعات، تحاملوا على أنفسهم واستمروا في السير آملين أن يجدوا شرابا وزادًا في وجهتهم التي يقصدون، مع غروب الشمس من جديد لم تستطع لورين السير أكثر ووقعت أرضا ليحملها سراج ويسير بها بعض الوقت لما أخبره شداد بأنهم على مشارف القرية، كانت تقع في منطقة منخفضة قليلا عما حولها، رآها سراج من الأعلى لينزل لورين ويهلل في فرح وهو يخبرها أن تنظر، بيوت خشبية قديمة ضربتها الشمس حتى أحمرت واهترأت، عمود خشبيٌّ يصل طوله ثلاثة أمتار في بداية القرية ينتهي بنحت خشبى لتيس عابث يخرج لسانه مع قرنين على الرأس، منقوش عليه «الدخول هنا له ثمن فلا تدخل ما لم يسمح لك بذلك».. قرأها سراج بصوت عالٍ فنظرت له لورين قائلة:

- كيف استطعت قراءة تلك اللغة؟!

- ماذا تقصدين؟! إنها عربية واضحة.

- إنها ليست العربية يا سراج! هذا المكان يقلقني ويخيفني

كثيرا!

- كلامها صحيح يا سراج.. إنها ليست العربية فهي نقوش تخص عالمنا، ولا أظنك تدربت عليها من قبل!

- أنتم تخيفوني بما تقولون.

كانت قرية مهجورة، وبيوتها موحشة غزتها رمال الصحراء حتى غطت بعض أجزائها، تتألف من عدة صفوف من المنازل الخشبية المتطابقة ذات الطابق الواحد والمشيدة بمهارة ودقة، لم تسلم هذه المنازل من الشمس وبراثن الصحراء الزاحفة، الرمال تملؤ غرف تلك المنازل حتى ربع المسافة بين الأرضية والسقف، حمل سراج لورين ونزل لأحد شوارع القرية، وبدأ التحرك خطوات بحثًا عن أيّ شكل من أشكال الحياة، توقف لما رأى مجموعة من الأطفال يلعبون أمام أحد تلك البيوت تبسم وتوجه نحوهم فلما اقترب ورأوه جروا بعيدًا حتى اختفوا عن الأنظار، أنزل لورين لتجلس قليلا على عتبة ذلك البيت ويستريح هو الآخر، وجدوا عجوزًا يتكئ على عصاه ويمشي نحوهم بخطى متثاقلة فهمّ سراج لمساعدته وحاول إمساك يده ليجده خيالا يمر من خلاله ويختفي، دبّ الرعب في قلوبهم، وصاحت لورين بدورها خائفة ليتردد صوتها في أرجاء المكان، هناك ما منع شداد من دخول القرية ليصبحوا وحدهم في الداخل، بدأت

أعمدة الإنارة الخشبية في الظهور من أمامهم مشكلة طريق لأحد تلك البيوت بإنارتها، أكملوا مسيرهم في ذلك الطريق المضيء من أمامهم حتى اجتذبتهم بعض الأصوات الصادرة من ذلك البيت في نهاية الطريق، كانت لورين ملتصقة بسراج وقاربت على الصعود فوق كتفه من شدة الرعب ممسكة بكلتا يديها في يمناه، تكرر ظهور الناس واختفائهم كالأشباح في الطريق، تحركا في خوف نحو باب البيت وهما يقدمان قدمًا ويؤخران الأخرى.

- هل علينا أن نطرق الباب أم ماذا؟

- نعم.. افعل ذلك يا سراج.

- ولماذا عليّ أن أفعل أنا ذلك؟! لماذا لا تطرقيه أنت؟!

- لأنَّك الرجل هنا!

- المثل يقول: «السيدات أولًا».

دفعته لورين نحو ذلك الباب، وهي ترمقه بنظرة حادة وتقول في غضب:

- لا، والله!

تمسمر لحظات أمام الباب وهو يعد قبضته لطرق الباب في خوف، وقبل أن تلمس قبضته الباب علا صوت نسائيّ رفيع:

- من الذي يجرؤ على طرق بابي؟!

تراجع سريعا نحو لورين.

- أرى بأن نعود أدراجنا.

فتح باب البيت وخرجت منه امرأة ثلاثينية سمراء وشبه عارية إلا من بعض الأقمشة الخفيفة على مناطق أنوثتها، شعر أسود طويل تتخلله خصلات بنية داكنة ويصل تقريبا حتى كعب قدميها الحافيتين، عينان بنيتان يغطيهما الكحل، وشفاه ملونة بلون أسود لامع مع أنف صغير بعض الشيء. صاحت فيهما غاضبة:

- غرباء في القرية! هذا أمر لا يحدث كثيرا!

قالتها وبدأت التحرك والاقتراب منهما، تأملت فيهما لدقائق، وهي تدور من حولهما في دائرة مغلقة، بدأت تمشي بأصابعها على وجه سراج ثم قبضت على يمناه بقوة متسائلة:

- من أين لك بهذا الخاتم يا فتى؟!

- تركه لي جدي قبل وفاته.

أنتم تموتون عطشًا وجوعانين أشعر بذلك في داخلة نفسي.. هيا تفضلوا بالدخول سأحسن ضيافتكم.

نظرا لبعضهما البعض في خوف من طريقة كلامها ونظراتها التي تغيرت لما رأت الخاتم فى يد سراج، ولكن خوفهم الشديد لم يكن ليجعلهم يرفضون وجبة شهية وبعض المياه، في الداخل تفوح روائح كريهة من المكان بالإضافة لبيوت العنكبوت التي تملؤ السقف والجدران، الخشب في أرضية المنزل مهترئ ويصدر أصوات أزيز مع خطواتهم بالإضافة للكثير من الرمال كحال سائر بيوت القرية، على طاولة مستديرة يحيط بها بعض المقاعد جلسوا يتأملون الحشرات الزاحفة التي تملؤ المكان، أزاحت بيدها ما على الطاولة من حشرات، وقالت وهي تبتسم في خبث:

- لا نتوقع الكثير من الضيوف هنا!

تبسموا بدورهم بسمة صفراء وفي صوت واحد:

- لا عليك.

عادت بعد لحظات وفي يدها طبقان بهما لحم مقدد وخبز وبيض وكوبا مياه، جلست بجوارهم:

- تفضلوا

همت لورين بشرب كوبها من الماء أولا، ثم بدأوا الأكل بنهم وشراهة حتى امتلأت بطونهم، شعروا بحركة غريبة من حولهم ووقع لأقدام عديدة وتزامن ذلك مع شعورهم

بالغثيان وغيابهم عن الوعي، سقطوا أرضا وهم لا يستطيعون مقاومة ذلك الشعور وكان آخر ما سمعوه منها:

- مرحبا بكم في أرض الموتى.. مصيركم الأبدي.

لم يعلم سراج بعدها كم من الوقت ظل فاقدا الوعي حتى أيقظه صوت شداد في رأسه مجددًا:

- أفق أيها الغبي.

فتح عينيه ليجد نفسه ملقى على الأرض بجوار الطاولة والجملة «فالله خير حافظًا» المنقوشة على الخاتم شديدة التوهج مبعدة تلك المرأة عنه وعن لورين، ويبدو أنها تخيفها أيضًا!

- ماذا حدث يا شداد؟!

- يبدو أنّ الخاتم كسر التعويذة حول تلك البلدة، وناداني لما شعر بأنك في خطر وعلى وشك الموت.. هذه البلدة مسكونة بالأشباح وتلك الشيطانة كانت تخطط لقتلك وربما التهامك على العشاء.. لولا الخاتم وتدخلي بالطبع.

نهض سراج وأيقظ لورين ثم وجه خاتمه نحو تلك الشيطانة، واقترب منها، سرعان ما غطت وجهها بكلتا يديها وتراجعت للخلف خطوات.

- من أنت؟! وماذا تريدين منّا؟!

- أرجوك أبعد الخاتم وسأحكي لك كل ما تريد معرفته.

أبعد الخاتم وأحضر كرسيًّا ليجلس وهو مطمئن ليستمع لها، أحضرت بدورها كرسيًّا وجلست أمامه ثم بدأت الحديث:

- "هيا".. هذا هو اسمي، وأحبذ أن تضع لفظ "سيدة" قبله، وأنا الشيطانة المسؤولة عن حماية البلدة.. هذا الخاتم في يمينك وابن الملوك الذي يخدمك دليلان على أنك الطفل من النبوءة.

- عن أيّ نبوءة تتحدثين؟!

- لم أكن هكذا - دائما - ولا أي من أهل البلدة لعلمك.. لقد كنا بشرًا عاديين مثلكم حتى حل علينا ضيف ملعون غير كلّ شيء!

بدأت البكاء، وعلا معها صوت عويل أشباح تلك البلدة وكأنهم متصلين ببعضهم البعض! ثم أكملت:

- هناك قصة تحكى منذ قديم الأزل عن شياطين تمردوا على ملوك الجان السبعة الكبار، وخالفوا العهود السليمانية التي أخذها عليهم نبي الله سليمان.. ثم استعانوا بواحد من بني البشر في كتابة مخطوط فيه كل أسرار عالم الجان

والسحر الأسود الذي يضر ولا ينفع، بل وما يمكن البشر من استدعاء الموتى والتواصل معهم.. أما عن النبوءة فقد تحقق نصفها بكتابة ذلك المخطوط الذي أطلق عليه «مخطوط العزيف» على يد عربي اسمه «عبد الله بن محمد الماجني» عرف - أيضا - باسم «الحظرد».. اتحد الملوك السبعة وسيطروا على المتمردين، وسلسلوهم وحبسوهم في مكان لا يمكن لبشر أو جان الوصول إليه.. وحده المخطوط قادر على فعل ذلك.. أما عن نصفها الآخر فهو طفل سيولد، ويجد المخطوط ويتحكم في قوة لا مثيل لها على وجه الأرض.. يقال إنّه سيكون خادما وتابعا ويقوم بتحريرهم والتسبب في حرب عظمى لا مثيل لها، وستتملكه قوة المخطوط.. ولكن قلبك نقي أشعر بذلك، وإلا ما حماك الخاتم وأخرجك من المقبرة وأحضرك هنا.. هذا الخاتم في إصبعك هو مصدر قوة كبير صنع بواسطة الملوك ويمنح حمايتهم ورعايتهم لحامله!

- ولمَ لا يخرجنا الخاتم من هنا بكل بساطة إن كان بكل تلك القوة؟!

ضحكت المرأة وهي تنهض لتتجول في المكان، ثم تفتح باب البيت وتنظر للخارج في حسرة وحزن حيث تجمع كل أشباح القرية يتباكون.

- أنتم في اللا مكان يا فتى.. هنا حيث بدأت اللعنة التي صاحبت قدوم غريب إلينا.. هنا حيث كتب العربي المجنون الملقب «بالحظرد» مخطوط العزيف.. لقد كانت قرية هادئة مطمئنة يحب أهلها بعضهم بعضا، ويعمها الخير المصحوب بسعادة عارمة.. حتى أقبل علينا رجل غريب فارًّا من بلاده مرتحلًا من مكان لمكان.. استضفناه وأحسنا إليه وأكرمنا مثواه بل وزوجناه منّا أيضا.. بعد أعوام قضاها بيننا أصابه الجنون، وبدأ يتحاكى عن رؤيته لوحوش وكائنات غريبة في الصحراء، وادعى تحدثه إليهم وأنهم اختاروه ليكون سيّدًا على الأرض.. وبعد مرور عشر سنوات على مكوثه بيننا وحزن أهل القرية على ما أصابه خرج علينا بمخطوط كان قد ادعى أنهم يملوه عليه وأطلق عليه اسم «كتاب الموتى».. وفي أحد الليالي الحزينة من ذلك العام بدأ في استخدام ذلك المخطوط وتجربة تعاويذه ولعناته.. كلفه ذلك حياة زوجته وابنتيه.. لقد ظننا أنّ ذلك أسوء ما قد يحدث، ولكن ما حدث بعد أيام كان فيه هلاك القرية وأهلها.. بدأت أرواح شريرة ووحوش في الظهور، وقتلت كل ما وجدته في طريقها.. استوطنوها؛ لأنها الأرض الموعودة لسيد المخطوط من جديد.. من يدخلها من البشر أو الجان يعلق فيها إلى الأبد..

تحدث شداد:

- إنّها محقة يا سراج.. حتى لو خرجنا من هنا فلا نهاية لهذه الصحراء من حولنا.. نحن هالكون لا محالة، فلا أنا ولا أيًّا من خدامك قادرون على إخراجنا من هنا..

تحدث سراج بصوت خافت:

- لابد من وجود طريقة يا شداد!

- إنّ خادمك ابن الملوك هذا محق يا فتى.. مصيركم أصبح مصيرنا الآن.

- لابد من وجود طريقة لخروجنا من هنا سيدتي!

تحركت نحوه وهي تبتسم ونظرات الشر والخبث تسيطر على عينيها ثم تحدثت:

- هناك طريقة، ولكنها لن تعجبك يا فتى.

في تلقائية تحدثت لورين صائحة:

- أخبرينا إذن عنها لنرى!

نظرت لها وهي تبتسم مجددا ثم عاودت النظر لسراج:

- لقد جاء بشر إلى هنا من قبل واستطاع الهرب من القرية ولعنتها.. أخبرني أن اللعنة يمكن أن تكسر بتضحية ما وسيأتي الوقت الذي سأخبر فيه أحدهم بذلك.. لم يكن

خائفًا منّا على الإطلاق، ووعدنا بأنه سيخلصنا مما نحن فيه.. ظننت وقتها أنه المنشود، ولكنه غادر ولم يعد.. ذلك المحتال!

- وبما ضحى هو للخروج من هنا؟!

قالها سراج وهو ينظر لها في ترقب.

- لقد كان ماكرًا يا فتى وواسع الحيلة.. عجوزًا ذكيًّا استطاع الهرب بدهاء شديد.. فقط قطرات دماء من بطن يديه في رمال القرية واختفى.

- هكذا ببساطة!

- يا فتى أسرار هذه القرية كثيرة، ولا أحد يعلم بما ضحى العجوز للهرب.. السؤال هنا هو بما ستضحي أنت؟!

عم الصمت أرجاء المكان لدقائق حتى قطعه حديث المرأة من جديد:

- يبدو أنّ الفتاة قد اختارت بالفعل!

تحركت بسرعة كبيرة لدرجة أن سراج وجدها أمام لورين ولا يفصل بينهما شيء، انقلبت الطاولة ووقع سراج أرضا وهو يشاهد ما يحدث، أخرجت خنجرا حادا صغيرًا وهنا بدأ يستوعب ما يحدث وما تفعله لورين، صاح وهو ينهض ليجري نحوهما وهي تنظر له مبتسمة ومسلمة لموتها

وتضحيتها في سبيل خروجه، كان الأوان قد فات فبمجرد إخراجها الخنجر نحرت عنق لورين.

- لاااااااااااااا.

تذكر قولها له «أنا معك حتى النهاية وأريدك أن تعلم أنه لو تطلب الأمر سأضحي بحياتي من أجلك».

طرقعت أصابع يمناها فأخذ كل شيء ينهار، ونشأت دوامة من الرمال لتبتلع سراج وصدى صوت السيدة «هيا» يتردد:

- ما كنت لأختارك أنت حتى ولو رغبت في ذلك.. ستعود إلى هنا من جديد سيّدًا للمكان يا فتى!

وجد سراج نفسه يغوص في الظلام، ولا شيء من حوله سواه، لا تطأ قدمه الأرض من أسفله، ظهرت من حوله سبعة عروش مبهرجة وضخمة يجلس عليها سبعة رجال مهندمين في أزياء وحلى الملوك، لا تظهر له ملامح أي منهم فقط أجسادهم الجالسة على العروش والظلام يخفي الباقي! في المنتصف هناك عرش أكبر نسبيًا من مجاوريه، تحدث الجالس عليه في صوت جهور:

- أنت البشر الثاني الذي يأتي إلى هنا يا فتى.. الأول كان جدك حاتم.

- ولكن من أنتم؟!

- أنت في حضرة السبعة الكبار الذين يحكمون عالم الجان الموازي لعالمكم.. هذه الشيطانة المدعوة «هيا» كانت تعيدك لوعيك وجسدك الملقى تحت الحطام في المقبرة.

- أنا لم أعد أفهم شيئًا مما يحدث!

- كل ما يحدث هو في داخل عقلك يا فتى، ولكن جسدك لم يغادر المقبرة حتى.. لقد عرفت أنّك الطفل المنشود من النبوءة فور رؤيتها لك، وكانت تحبسك داخل عقلك حتى يمكنهم إرجاع سيد المخطوط مرة أخرى.

- ولكن ماذا عن لورين؟!

- لقد كانت ميتة في كل الأحوال.. دورها انتهى بمجرد إدخالك المقبرة.. إنها حبيسة قرية الأموات تلك الآن.

بكى سراج في حرقة متسائلًا:

- هل هذا يعني أنّي مت تحت الأنقاض؟!

- لا يا فتى لم تمت.. حماك خادمك من الحطام، ونقل الخاتم وعيك للأرض التي بدأ عليها كل شيء.. لما جريت على لورين حدث لها ما حدث لك وبقي وعيها ملازمًا لوعيك، ولكنها كانت ستموت في كل الأحوال.

تحدث أحد الجالسين على يمين من بدأ الحديث:

- ببساطة يا فتى «الحارث» هو مجرد خادم لتلك الشيطانة المدعوة «هيا».. وهي في الأساس مكلفة بحماية تلك المقبرة من الدخلاء، ولكنك لست دخيلًا عاديًا فأنت الطفل من النبوءة.. كما أن الخاتم في إصبعك لفت الانتباه إليك فما كان منها إلا أنها أرادته لنفسها.. كان سيمكنها من تحرير بعد الأعتياء الذين لا يتبعون ولا يعاهدون أحدًا.. تلك القرية التي ذهبت إليها تقع في بعد زمني يخضع لتعويذة قوية ألقاها ذلك البشري الذي كتب المخطوط وباع روحه للشيطان.. هل فهمت الآن؟!

- ليس كثيرا.. فما زلت حائرًا من أمري!

تحدث ثالث:

- إنها ليست قوة الخاتم، ولا قوة خادمك، بل أنت يا فتى.. في يداخلك يكمن كل شيء.. لا نعلم تحديدا ماذا حدث تلك الليلة حين قتل ذلك اللعين زوجته وابنتيه وغادر البلدة.. أيّ تعويذة تلك التي تتسبب في هلاك بلدة كاملة بكل أشكال الحياة فيها؟! حتى الحيوانات لم تسلم وعلى بعد كيلومترات وجدت ميتة.. لقد طرد كل عمار المكان من حوله حتى لا يشهد أحد جريمته تلك ويعلم بما حدث.. إنه لغز كبير لن يحله سواك، فأنت المنتظر الذي سيحمل المخطوط.

عاد الجالس في المنتصف للحديث مجددًا:

- لو تحرر المتمردون وجمعوا قواهم من القبائل التي تخدم بني الأبالسة وليسوا على العهد ستكون هناك حرب عظمى ليس فقط في عالمنا، بل ستذهب إلى عالمكم زاحفة بجيوش جرارة.. إننا نتحدث هنا عن حرب نهاية الزمان يا فتى!

- إن ذلك كثير عليّ وعلى استيعابي!

قالها سراج في صوت خافت، وهو لا يصدق كل ما يحدث من حوله منذ التقى بلورين، أصبح لا يعرف حقيقة متى سيستيقظ من ذلك الحلم المخيف، ضحك بعدها ساخرًا ثم عاد ليذرف دموعه مجددا وهو يقرر في داخلة نفسه مجاراة الأمور ليرى على ماذا سينتهي ذلك الكابوس المروع.

- هلا أخبرتموني ما هو المطلوب مني تحديدا؟!

تحدث رابع:

- وحده جدك حاتم استطاع التوصل إلى بعض الدلائل والأبحاث.. بالإضافة إلى ما توصل إليه آخر من قبله يدعى كامل الحسيني قبل أن يلقى حتفه على يد من باعهم روحه.. بطريقة ما كل ذلك كتب وخبئ بطريقة لم يشهدها أيّ من

عمار المكان على مدار أعوام من تنقل جدك.. تعويذة أخرى ألقيت لتحمي وتحجب كل ذلك!

- ولكن بدوري لا أعلم شيئًا عن تلك الأبحاث!

- لابد من أنه ترك لك شيئًا يا فتى يوصلك لمكان تلك الأبحاث.. تذكر جيّدًا.

نطق الجالس في المنتصف مجددا:

- ربما رسالة منه قبل مغادرته للمغرب! لقد تتبعناه في رحلة المغرب الأخيرة، ونعلم أنه ترك لك كل شيء.

أخذ سراج يفكر قليلًا حتى طرقع أصابعه صائحا:

- وجدتها.. ولكنها رسالة من صديق جدي المقرب الشيخ مصطفى.. اختتم وصيته لي قائلًا شيئا من هذا القبيل «عندما تجد النجمة تكون قد وصلت إلى ضالتك، وستفهم كل شيء يدور من حولك».

تحدث الجالس في المنتصف من جديد:

- كيف فاتنا مصطفى ذاك! سنعيدك لبيتك يا فتى للبحث عن تلك النجمة وستكون حمايتنا مرافقة لك.. لابد من أنه ترك لك علامات.. ابحث عنها وتذكّر جدك جيّدًا.

- ولك..

لم يكمل الكلمة حتى اختفوا جميعا من حوله، وأخذ يتساقط في ذلك الظلام من جديد!

*****

الفصل الخامس

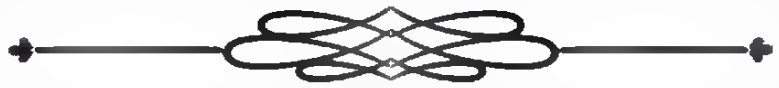

البيت في شارع المكتبات (أسيوط)..

وجد سراج نفسه يفيق على سريره في البيت لدرجة أصابته نوبة جنون مما يحدث من حوله، هاتفه ملقى على المكتب في غرفته، حدث نفسه:

- ولكن كيف؟! لقد تركته في ذلك البيت قبل نزول المقبرة مباشرة!

حقيبة ظهره - أيضًا - ملقاة على الأرض بجانب السرير وكأن شيئًا لم يكن. أمه طرقت الباب عليه فأذن لها بالدخول..

- صباح الخير يا عزيزي.. هل أعد لك الفطور؟!

- لست جائعًا يا أمي، ولكن ألا ترين أنّ شيئًا غريبًا يحدث؟!

- يبدو أنّك جئت فجرًا وأنا نائمة، ولم ترد إيقاظي.. شعرت بعودتك عندما استيقظت ودخلت الغرفة فوجدتك نائما كالقتيل على سريرك.. يبدو أنها كانت ليلة مرهقة لك.. كنت

قلقة عليك منذ غادرت البارحة يا ولدي.

- ثانية واحدة..أتقولين البارحة؟!

بدت علامات التوتر على وجهه واضعا إحدى يديه في وسطه والأخرى على جبهته، أحمر وجهه وبدأ في الذهاب والمجيء حتى قاطعته والدته:

- هل ضايقتك ربة عملك؟ أو حدث شيء البارحة جعلك متوترًا وقلقًا هكذا؟!

- هلّا خرجتِ وتركتني وحدي قليلًا يا أمي؟

أغلق باب الغرفة بالمفتاح من الداخل بعد خروجها مباشرة، وأخذ يذهب ويجيء مجددًا كالمجنون، الكثير من التفكير فيما حدث حتى الآن كاد أن يفتك برأسه، لم يعلم من أين يبدأ فتوجه نحو مكتبه وأخرج المظروف من أحد أدراجه وأفرغ محتوياته، أخذ بعض الوقت يقرأ في وصية الشيخ ويبحث عن العلامات التي قد تدله على شيء، ترك الورقة المكتوبة بخط يد الشيخ جانبا بعدما فقد الأمل في الوصول لشيء قد يساعده فيها، بدأ تفقد باقي الأوراق المرفقة مع الوصية فكانت أوراق تنازل عن كل ممتلكات الشيخ، والتي شملت محل العطارة والشقة التي يسكنون فيها وشقته في البيت المجاور لهم بالإضافة لحساب بنك كان قد فتحه

ووضع فيه كل ما يملك من أموال نقدية لصالح سراج، وهناك حجة لبيت في القاهرة! صاح:

- لم أكن أعلم بأن الشيخ يملك بيتًا في القاهرة!

عاد ليقرأ ما في الحجة من الجديد ليتأكد من صحته ثم صاح مجددًا:

- أمي.

فتح باب الغرفة وجرى على غرفتها وهو يصيح حتى وقف على باب غرفتها متسائلًا:

- هل كان الشيخ مصطفى يملك بيتا في القاهرة؟!

- بالطبع لا يا ولدي، فكل ممتلكاته هنا في أسيوط.

اقترب من سريرها وناولها الورقة.

- هلا أخبرتِني ما هذه الورقة إذن؟!

جلس بجوارها لتحضر بدورها نظارة القراءة وبدأت في تفقد الحجة لقرابة الخمس دقائق ثم أجابت:

- لم أعتقد - يوما - أنّ هذا البيت ما زال موجودًا!

نظر لها فرحًا لمعرفتها البيت في الحجة ثم احتضنها في تلهف:

- إذن تعرفين ذلك البيت يا أمي؟!

- إنه بيتنا القديم يا ولدي.. الموجود بمنطقة باب زويلة في شارع المعز لدين الله الفاطمي.. لم أكن على علم بأن جدك حاتم باعه للشيخ مصطفى! ولا أعتقد والدك حتى كان يعلم بذلك.

- حل اللغز كله إذًا موجود داخل جدران هذا البيت.. ترى ماذا تخبئ هناك يا حاتم يا سلكاوي!

شرد قليلا وهو يحدث نفسه بصوت مسموع حتى قاطعته والدته بطرقعة أصابعها أمام عينيه:

- عن أيّ لغز تتحدث يا سراج؟!

لا شيء يا أمي.. أسف على إزعاجك، ولكن هلّا أعددت لي كوبًا من القهوة من فضلك؟

قالها وهو يهم مغادرًا في اتجاه غرفته ليغلقها عليه من جديد.

- إذن بيتنا القديم ما زال موجودًا يا جدي، ولم تكتبه لأبي بل بعته للشيخ مصطفى.. ترى ماذا يوجد هناك يا حاتم؟! وكيف سأجد نجمتك تلك؟!

- لقد جعلنا جدك ندور حول أنفسنا في دائرة مغلقة حتى

الآن.

فزع سراج لما سمع الصوت، وكاد أن يقع أرضا من الخوف!

- لقد نسيت أنّك موجود يا شداد.. ألا يجب أن يكون دخولك هادئ بعض الشيء.. ستقطع خَلَفِي في إحدى المرات.

- آسف لمقتل صديقتك لورين.. لم أستطع فعل شيء يمنع ذلك؛ فالأمر كان خارج عن السيطرة!

- لا عليك يا شداد.. لا أعلم فيما كان يفكر من وضعك في خدمتي لحمايتي فأنت من تحتاج للحماية.

- هذه إهانة لقدراتي لعلمك يا فتى.

- هلّا تركتني وحدي قليلًا؟

- حسنا.. سأكون في الجوار إن احتجت إليّ.

أحضر هاتفه وجلس على السرير يتفقد الرسائل والمكالمات، هناك رسالة غريبة أخرى من الفتاة نفسها التي راسلته من قبل «هاتفني على هذا الرقم الذي أراسلك منه.. روان آغا»، تردد لحظات قبل أن يدوس على زر الاتصال ليأتيه الرد بعد لحظات:

- أخيرًا يا سراج! لقد انتظرت هذه المكالمة طويلًا.

أجاب في لهجة غاضبة وصارمة:

- مَن أنتِ؟! وماذا تريدين مني؟!

- اسمي روان جمال آغا.. والدي كان مقرّبًا من جدك حاتم و...

- انتظري قليلًا.. لقد رأيت الدكتور جمال بنفسي وأخبرني أن ابنته ماتت وأمها في حادث سير و...

- لقد مات أبي عام ألفين وستة في المغرب مع جدك!

قالتها وهى تضحك ساخرة مما يقول!

- صدقيني.. لقد رأيت والدك وأخبرني أنه نجا من ذلك اليوم ولما عاد للبيت وجد زوجته وابنته قد ماتا في حادث سير.. ذلك كان منذ عدة أيام قليلة!

عم الصمت لحظات بين الطرفين حتى نطقت روان:

- لقد ذهبت مع تلك المدعوة لورين أليس كذلك؟!

- يبدو أنّ هذه المكالمة دعابة من نوع ما، ولو كانت كذلك فعلا فهي غير مضحكة وأنا لست في مزاج لها.

- هل يمكنني أن أراك؟ أرجوك.. سأفسر كل شيء صدقني.

- أنا مضطر أن أغلق الهاتف الآن.

ألقى الهاتف بعيدا وهو يصيح:

- وكأن ذلك كان ينقصني أيضًا!

أخبر سراج أمه بعزمه الذهاب إلى القاهرة ليرى ذلك البيت، وأنه يحب أن تذهب معه بحكم معرفتها القديمة له، رحبت بفكرة ذهابها معه، بل وبدا على وجهها الحماس للعودة لبيتها القديم مجددا، في فجر اليوم التالي تحرك وأمه للقاهرة مستقلين القطار، مرت قرابة الست ساعات حتى نزلوا في محطة رمسيس ومن أمامها استقلوا سيارة أجرة لعنوان البيت، أنزلتهم أمام الباب ليتوقفا لحظات متأملين ذلك البيت العتيق الذي تفوح منه رائحة الماضي، بدأت أمه في تذكر لحظاتها حلوها ومرها داخل جدران ذلك البيت، مر أمام عينيها شريط متتابع من الأحداث منذ تزوجت من إمام وسكنت البيت حتى غادروه مع الشيخ مصطفى لتغلبها دموعها، تأمل سراج البيت القديم متعجبا من طريقة بنائه، والنقوشات على الطراز الإسلامي التي تزينه، سطحه الخشبي الذي تتدلى منه وريقات العنب الخضراء حتى الطابق الأرضي، غمرت السعادة وجهه والحماس المليء بالفضول لرؤية البيت من الداخل.

- لقد مر الكثير من الوقت يا ولدي.. لقد اشتقت كثيرًا لهذا البيت.

- لا أصدق أنّي عشت هنا حتى العاشرة، ولا أتذكر الكثير عن البيت!

قاطعهما عجوز يتكئ على عصاه قدم نحوهما لما نزلا من السيارة:

- هل يمكنني خدمتكما في شيء؟!

- أنا زوجة إمام السلكاوي، وهذا ابنه البكر سراج.. جئنا لنرى البيت.

نظر العجوز متأمّلًا سراج وهو يبتسم:

- لقد كبر حفيدك يا حاتم وأصبح رجلًا.. ألم تتعرفي عليّ يا ابنتي؟! وأين طفلك الآخر؟!

تنحنحت لتتحدث في حرج يصحبه بعض الخجل:

- اعذرني يا عم الحاج.. فقد مر الكثير من الوقت.. لقد أنجبت طفلين آخرين وثلاثتهم في أسيوط الآن.

- أنا عمك بسطاويسي يا ابنتي.. أحرس بعض الأماكن الأثرية هنا في شارع المعز، وبيت حاتم كان أمانة حتى قدوم الوريث والمالك.

فتح لهم الحاج بسطاويسي الباب وأعطى سراج مفتاحه

النحاسي الكبير والذي يحمل بقبضة اليد وليس الأصابع!

- البيت نظيف من الداخل يا ولدي.. اهتمت بناتي طيلة أعوام وكنّ يسقين العنب والورود على السطح والأشجار في الباحة باستمرار.

هز سراج رأسه شاكرًا مع ابتسامة وهو يقول في حرج:

- لا أعرف - صدقًا - كيف أشكرك يا عمي الحاج بسطاويسي على رعايتك للبيت كل تلك الأعوام و...

قاطعه العجوز وهو يربّت على كتفه:

- هذا بيتي يا ولدي، ومهما فعلت لن أرد ولو جزءًا بسيطًا من أفضال جدك.. لو احتجتم شيئًا يا ولدي فأنا على بعد منزلين يمين بيت جدك.. سأرسل حفيدتي بالطعام بعد قليل، ولتساعد والدتك إن احتاجت شيئًا.

- شكرًا على كل شيء.. أدام الله المعروف.

أخذ سراج قرابة النصف ساعة وهو يتأمل البيت من الداخل، صعد للطابق الثاني ثم السطح وأخذ يجري على سلّمي البيت يصعد من واحد وينزل من الآخر وهو يهلل في سعادة:

- ما هذا الجمال! أشعر أنّي أحلم!

استقر على السطح لوهلة يتأمل جمال المآذن والقباب والبيوت، المساجد الأثرية التي تملؤ شارع المعز والمنطقة من حوله ليصيح في حماس:

- ما إن ينتهي كلُّ هذا سأبقى هنا لبقية حياتي.

قاطعته والدته وهي تقبل نحوه وفي يدها كوبا شاي.

- أراك سعيدًا بالبيت يا ولدي!

- إنّه رائع يا أمي، والمنظر من حوله خلّاب.. يجب أن نترك أسيوط ونأتي للعيش هنا.

- أنت تذكرني بجدك.. لقد كان مولعًا بالبيت، ويحب كل أركانه.. كان يقضي الكثير من الوقت في مكتبته في الطابق الأرضي ويمنعني ووالدك من دخولها في غيابه.. لم يخبرنا بسفره للمغرب كعادته لا يحب لحظات الوداع، وبعدها بأسبوع سمعنا الخبر المحزن.. ليأخذنا الشيخ مصطفى لأسيوط ويجد وظيفة لوالدك خارج البلاد.. لم أعلم شيئًا عن البيت منذ ذلك الحين إلا أنّه تم بيعه.

- بالحديث عن المكتبة.. تركتها للنهاية وأفكر جديًّا أنْ أبيتَ فيها الليلة.

حدثه شداد:

- هلّا أذنت لي بالحديث؟

ترك سراج والدته تجلس، وذهب نحو شرفة السطح وهو يهمس:

- ماذا هناك يا شداد؟!

- أرى أنّه يجب أنْ تهاتفِ تلك الفتاةَ المدعوة «روان آغا».. ينتابني شعور بأنها جزء من الأحجية!

لم يفكر كثيرا في طلبها على الهاتف فهو الآخر ينتابه الفضول ليعلم ما قصتها.

- مرحبا.. بخير الحمد لله.. لقد وصلت أنا وأمي القاهرة منذ تقريبا.. بيتنا يقع في منطقة باب زويلة.. ماذا! ستأتين إلينا! حسنا نحن في انتظارك.. سأرسل لك الموقع.

أغلق الخط وحدث شداد:

- يا لها من فتاة غريبة الأطوار.. ستأتي لزيارتنا اليوم!

عاد نحو أمه وهو يتنحنح ويخبرها:

- يبدو أنّ لدينا ضيفة الليلة يا أمي.

بدأ يقص عليها حكاية تلك الضيفة والزيارة التي لم تكن في الحسبان، بعدها استأذنت وتركته لترتاح قليلًا ونزل هو

متجها لمكتبة جده، كانت مغلقة بقفل من نوع قديم، توقف لحظات للتفكير كيف سيفتح ذلك القفل، ذهب سريعا لذلك العجوز في جوار البيت وأحضر شيئًا حديديًّا ليحطم به ذلك القفل، مع أول ضربة على الباب رمته موجة إرتدادية للخلف في قوة.

- الباب محميٌّ بالطبع يا سراج.

- لمَ لا تحذرني أولا يا شداد.. في المرة القادمة!

أجاب ساخرًا:

- لا أريد تفويت أيّ شيء من حيل جدك يا فتى.

- أحمق غبي.. لا أعلم لمَ عليّ تحملك أكثر! هلا أخبرتني كيف سنفتح الباب وأصبحت مفيدًا قليلًا؟

- لن يفتح إلّا بمفتاحه، والذي لابد أنّ جدّكَ خبّأه جيّدًا.

- الخاتم!

قالها سراج فجأة وهو يطرقع إصابعه، ثم أكمل:

- ماذا لو وجهت لكمة قوية للقفل، وجعلت الخاتم يصطدم به؟!

- هيّا لنرى ارتدادة أخرى لك، فقد كانت الأولى ممتعة بعض

الشيء.

أغمض الفتى عينيه، وضم أصابع يمينه ثم توجه بأقصى قوته للقفل، ما إن لامس الخاتم القفل حتى انكسر لقطع صغيرة، وصاحب ذلك موجة ارتداديّة قوية تسببت في اهتزاز البيت بالكامل، أزاحَ سراج الباب بيديه وتقدم للداخل ببطء، كانت المكتبة من الداخل مليئة برفوف خشبية كثيرة في جميع أرجائها، وعليها الكثير والكثير من الكتب والمجلدات

والمخطوطات، مقسمة لممرات من الداخل تكفي لمرور شخص واحد

فيها، في واجهة الباب مكتب جده الخشبي الكبير ومن خلفه كرسي هزاز، على المكتب توجد جريدة قديمة للأهرام لونها أصفر وعفا عليها الزمن بتاريخ الخامس من أبريل عام ألف وتسعمائة وستة وتسعين، رفعها بيديه وقرأ في صوت عالٍ:

- حريق كبير في أحد البيوت المهجورة بمنطقة وسط البلد أودى بحياة رجل عجوز.. كامل الحسيني هل هو قتيل أم ضحية التعامل بالسحر الأسود؟!

أعادها مكانها مجدّدًا على المكتب، وأخذ ينظر مبتسما

لصورة جده المعلقة على الحائط أعلى الكرسي الهزاز، تحرك داخل ممرات المكتبة المليئة بالكتب، ضحك وهو يقول:

- عجبا.. وكانوا يستغربون بقاء جدّي هنا طوال الوقت! إنه كنز لو يعلمون! لقد ترك لي جَدّي إرثًا حقيقيًّا!

كانت المكتبة كبيرة بمساحة ثلاث غرف مجتمعين، وستأخذ منه وقتًا طويلًا لتفقدها كلها، ربما يكلفه قراءة العناوين فقط أسابيع! علا صوت هاتفه ليخرجه فيجدها روان!

- مرحبا.. أنت في الخارج! أنتِ تمزحين أليس كذلك! غيّرت رأيك بالطبع.. حسنا أنا قادم إليك في الحال.

- أظن أنّ عليك أن توقِظَ أمك!

- نعم سأفعل.. يا لها من فتاة مجنونة!

جرى ليوقظ أمه، ومن ثم نزل مجدّدًا ليفتح الباب ويخرج، كانت فتاة قصيرة في العشرينات من عمرها، وترتدي فستانًا أزرق فاتح حتى أسفل الركبة بقليل، وفوقه سترة سوداء تصل حتى منتصف الركبة ذات أكمام طويلة تبتلع كفيها، حذاء رياضي لونه أبيض يبرز عضمتي القدم، شعر أسود ناعم يصل حتى منتصف الظهر، عيون واسعة عسلية اللون، جبين مرتفع وذقن دقيق مع بشرة قمحاوية، ابتسامة

دودة الكتب حرابية

عريضة تبرز غمازة في خدها الأيسر، سحرته بابتسامتها وعيونها تلك ليبقى قرابة الدقيقتين ينظر أمام الباب دون حراك، شعرت بالحرج واحمرت وجنتاها لتقول في صوت خافت وهي تشير بيمناها:

- احم.. هل ستظل تحدّق فيّ كثيرًا؟!

أبعد نظره عنها في خجل وهو يقول في توتر:

- آسف.. لم أقصد إحراجك والنظر إليك طويلًا هكذا.. ولكن لم أتوقع أن أرى جميلين في يوم واحد.. أقصد البيت أولًا ومن ثم أنت.

مد يده ليصافحها مبتسما، وقلبه كاد أن ينخلع من مكانه من شدة الفرح!

- سراج إمام السلكاوي.

ابتسمت بدورها في خجل مما قال ومدت يدها مصافحة:

- روان جمال آغا.

تقدمها لدخول البيت، ونادى والدته لتسلم عليها وتنبهر بجمالها الساحر هي الأخرى، أخذت روان تتأمل البيت من الداخل وتصميمه الجميل، وتلك النقوشات التي تملؤ الجدران، السلالم الخشبية العتيقة والتي لم تر مثلها من قبل!

دودة الكتب حرامية

- اعذراني على تطفلي.. ولكن هل لي برؤية باقي البيت.. لقد خطف قلبي بجماله ذاك، وكل ذلك الورد.. شيء رائع!

- بالطبع يا عزيزتي البيت بيتك.. خذها يا سراج إلى الطابق الثاني والسطح.. سأعد ما نشربه وألحق بكما.

صعدا سويًّا للطابق الثاني وانطلقت تجول فيه بحرية في سعادة غامرة، استغرب سراج من ذلك، فعادة ما يكون الضيف خجولًا، وليس بهذا الفضول ويتجول بحرية داخل البيت كما تفعل!

- اعذرني على فضولي يا سراج؛ فمنزلكم جميلٌ جدًّا.. أريد أن أرى كلَّ جزء فيه.

- لقد كنت مثلك منذ ساعتين تقريبا.

- أتعلم أنّ أمنيةَ من أمنيات حياتي هي أن أسكن في شارع المعز لدين الله؟ أستيقظ باكرًا مع كوب قهوة ساخن وأجلس لأحتسيه في شرفة البيت على أنغام أم كلثوم وأنا أتأمل كل تلك المناظر الخلابة من حولي.

- عجبا! أنت تفكرين مثلي تمامًا.. هيّا نصعد لأريك السطح.

هرولت صاعدة وهو من خلفها يبتسم معجبا بما تفعل، ويحب أنها على طبيعتها تماما، على السطح بدأت الرقص

دودة الكتب مراجعة

على أنغامها الخاصة، رفعت يديها بمستوى كتفيها وأخذت تدور حول نفسها وتتراقص، توقفت للحظة وهي تنظر وتتأمل ما يحيط بالبيت، ثم تحدثت في حزن:

- هل رأيت والدي حقا؟!

- بالطبع رأيته.. لقد تقابلنا قبل دخولنا المقبرة منذ أيام، وكان يعرف لورين أيضًا.. بالمناسبة لما حذرتني منها؟!

- لقد كان مقتلُ والدي انتكاسة بالنسبة إليّ مما جعلني أبحث خلف رحلتهم للمغرب.. كان معهما رجل ثالث يدعى «فهد التميمي» وهو والد لورين.. تتبعتها وتحريت عن أمرها؛ فعلمت أنّها كثيرة السفر والترحال ولا تمكث في بلدة واحدة أكثر من سنة.. على علاقة بالكثير من تجار الآثار المريبين.. تواجدها في مصر مؤخّرًا، ووصولها لك كان مخيفًا بالنسبة لي.. لقد خفت أن يصيبك مكروه جراء تعاملاتها المشبوهة، كما أنها أرادتك لسبب ما بالتأكيد!

- فهمت قصدك وخوفك، ولكن المهم الآن هو أنّ والدك لم يمت ونجا من الحطام ذلك اليوم في المغرب.. الغريب في الأمر أنه أخبرني أنك وأمك متم في حادث سير! وأنتِ تخبرينني الآن أنه مات تحت الحطام.. هناك شيء لا أفهمه!

أخرجت روان على الفور هويتها الشخصية لتريها لسراج

وبعض الصور القديمة التي تجمعها وأمها بوالدها الدكتور جمال.

قاطعهم شداد:

- هناك شيء مريب يا سراج لست أفهمه!

- لم أعد أفهم شيئًا مما يحدث مؤخّرًا يا روان!

- وقتها قالوا لنا إنّهم استخرجوا جثة فهد فقط، ولم يجدوا جسد أبي أو جدك وهذا كان مريبًا بالنسبة لنا، فثلاثتهم ماتوا تحت الأنقاض.. على مدار تلك السنوات كنت أبحث عن أجوبة، وأظنّك ستساعدني في العثور عليه إن كان حيًّا يرزق كما تقول!

- لا أعلم - صدقا - كيف أخبرك بذلك، ولكن والدك ولورين وكل من دخل تلك المقبرة أموات الآن تحت حطامها.. لقد نجوت بطريقة ما، وما يحدث معي من وقتها لا يمكن لعقل أن يستوعبه.. نحن في وسط أحجية غير مكتملة الأركان.

صعدت والدته في تلك الأثناء لتجد الفتاة تبكي بحرقة والكحل يسيل على خديها مختلطا بدموعها..

- ما يبكيك يا ابنتي.. ماذا حدث؟!

وضعت العصير على الطاولة، وجلست بجوارها واحتضنتها

وهي تربّت على ظهرها، بدأت تحرك يديها على شعرها لتهدئها، تحدثت روان وهي تنطق كلماتها متقطعة بسبب البكاء:

- بحثت عن والدي طيلة حياتي، واليوم الذي أعلم فيه أنه نجا من الحطام وكان حيًّا يرزق طيلة تلك السنوات أعلم فيه - أيضا - أنه مات بالفعل منذ أيام!

- اهدئي يا ابنتي؛ فكلنا سنموت في يوم من الأيام.. لقد عرفت والدك فقد كان تلميذًا لحماي، وقد كان خلوقًا مهذّبًا يحسن الكلام.. لم يذكره حماي إلّا ويبجل فيه أمامنا.. يتحدث عن ذكائه وفطنته والعلم الذي عنده.

تنحنح سراج وهو لا يعرف كيف يواسيها، ولكنّه حاول قائلًا:

- هلّا نزلتِ معي لأريك المكتبة الخاصة بجدي حاتم؟! ستعجبك كثيرًا يا روان.

تبسمت أمه وأخذت تمسح دموع روان وكحلها السائل بكم جلبابها.

- اذهبي معه يا ابنتي، فقد تجدين ما يخص والدك في المكتبة.

نزلا سويًّا في اتجاه المكتبة ليأخر سراج نفسه بضع خطوات من خلفها وهو يحدث شداد في صوت يكاد هو يسمعه:

- أليست لديك أي جمل رومانسية في هذا الوقت يا شداد؟!

- ضحك شداد بدوره ساخرا:

- أوليست أقصر منك يا فتى؟!

- لقد سحرتني منذ اللحظة الأولى يا شداد.. كلماتي لا تسعفني وأنا معها في الوقت الراهن.. فهلّا ساعدتني قليلًا؟

توقفت ونظرت خلفها.

- هل هناك مشكلة ما؟!

- إحم.. لا ليست هناك أيّ مشكلة.. المكتبة أمامنا هناك تفضلي.

قالها وقد احمرت وجنتاه من الخجل، وهو يسبقها لباب المكتبة، في الداخل بدأت هي في تأمل عدد الكتب والمجلدات الذي لم تر مثلها طيلة حياتها، ليس مثلها في العدد فقط، بل هذا الكم من المخطوطات والمجلدات القديمة التي جمعها حاتم طيلة حياته، وقفت أمام صورته

دودة الكتب حرامية

المعلقة خلف المكتب تتأمل وجهه الوسيم وابتسامته الهادئة..

- أتعلم أنّ فيك ملامح كثيرة من جدك يا سراج؟!

- أنتِ تعتقدين ذلك إذن!

- بالطبع لديكم قاسم كبير مشترك في الشبه.

- كنت أتمنى أن أشبهه في طباعه أكثر.. لقد كان رجلا ذكيًّا ومحبوبًا من الناس.. يخفي الكثير والكثير ولا يعلم أحد أسراره حتى الآن!

أخذت تتمشى في الممرات بين الكتب وهي تقرأ العناوين بصوت مسموع.

- بعض هذه الكتب قد اختفت منذ زمن! مكتبة جدك هذه تساوي ثروة طائلة لو أخرجتموها للعلن يا سراج!

نظر سراج لصورة جده المعلقة، وهو يقول في صوت حزين:

- ما كان جدي ليحب ذلك.

- إذن هل ستسمح لي بزيارة المكتبة باستمرار؟!

ضحك شداد وهو يقول:

دودة الكتب حرامية

- سيضيع إرث جدك في غضون أسابيع يا فتى!

- بالطبع سأسمح لك؛ فأنتِ صاحبة مكان ولست ضيفة.. ولا أظنك تتعاملين على هذا الأساس أصلًا!

ضحكت روان وهي تعود في اتجاه سراج:

- يبدو أنّك بدأت تعتاد تطفلي!

- هل حكى لك أبوك عن مغامرته مع جدي؟!

أخذت مقعدًا وجلست عليه والضحكة تختفي من على وجهها:

- لم يخبرنا الكثير.. كانت علاقته بأمي متوترة في ذلك الوقت، ولكنه أخبرني بأنه سيعود من أجلي.. أتراه تخلى عني؟!

لم يجد سراج في داخلة نفسه إجابة على هذا السؤال، اكتفى بالنظر إليها أسفًا لما يحدث ليعم بينهما الصمت لحظات، تحرك في أحد الممرات يتأمل ما فيه.

- أتعلمين أنّها المرة الأولى لي في مكتبة جدي؟! لم يسمح لي بدخولها وأنا طفل صغير إطلاقا؛ لهذا ليست لديّ أي ذكريات عنها.

- هل كان جدك ضابطا بالجيش؟!

توقف ليسأل في دهشة:

- ماذا؟!

- جدك.. هل كان يعمل ضابطًا بالجيش؟!

- جدّي كانَ موظفًا بالآثار.

- ولكني أرى صورة له هنا في زي عسكري!

عاد نحو المكتب مسرعًا ليجدها تجولت مجددًا في أحد الممرات المجاورة:

- أنظر جيّدًا للصورة المعلقة هنا وستعلم ما أقصد.

كانت صورة لجده حاتم وهو يرتدي الزي العسكري المصري برتبة «ملازم»، أخذ ينظر لها مندهشًا:

- لم يخبرني أحدٌ قط بأنه كان ضابطًا في القوات المسلحة!

- يبدو أنّ جدك هذا يخفي في جعبته الكثير.

أخذ سراج ينظر لها طويلًا حتى قاطعه شداد قائلًا:

- النجمة يا سراج.. النجمة.

ضرب جبينه بيسراه وهو يصيح:

- ابحث عن النجمة تجد ضالتك.. لقد كانوا يقصدون تلك

الصورة إذن!

هلل واحتضن روان في لحظة سعادة عارمة وهو يقول:

- لقد حللت اللغز.. وجدت النجمة أخيرا!

أبعد روان عنه لما وجد أنه يحتضنها ويهلل دون قصد منه:

- أعتذر عمّا بدر مني.. إذن ماذا الآن؟!

أخذت روان تنظر له في غرابة لما يحدث وما بدر منه تجاهها فتحدثت في توتر:

- لقد تأخرت ويجب أن أذهب حتى لا تقلق أمي.. سأتصل بك لاحقا.

- دعيني أوصلك حتى الباب.

- لا عليك.. أنا أعرف المخرج.

قالتها وهي تهرول نحو مخرج المكتبة مغادرة.

تحدث شداد ساخرا:

- هل كان الحضن يستحق؟!

- هلّا أنهيت سخريتك المستمرة وأخبرتني ما نفعل الآن وبعدها نرى أمر روان؟!

- حاول تحريك الصورة أو إنزالها من مكانها ربما كان خلفها شيئًا ما.

تحرك سريعا وفعل ما قاله شداد، ولكن لم يكن خلفها شيئًا على الإطلاق سوى الحائط، أنزلها أرضًا وهو في حيرة من أمره.

- ترى هل كان يقصد نجمة أخرى يا شداد؟!

جلس أرضا واتكأ على الرفوف الخشبية من خلفه ليفكر، قرب الصورة منه ونظر لها بضع دقائق، لفها وفتحها من الخلف ليجد فيها مفتاحا من النحاس الأصفر ينتهي طرفه العلوي بنجمة، ضحك ساخرا:

- نجمة أخرى يا شداد.. ألا يمكنك اكتشاف ما يفتح هذا؟!

- لا أريد إحباطك، ولكن قواي لا تفلح في هذا البيت، ولا أعلم لماذا!

- وهل تفلح قواك في أي مكان أصلًا؟!

رفع إحدى قدميه ليحملها على الرفوف الخشبية من أمامه فوقع فوق رأسه كتاب كبير من خلفه لينهض ويعيده مكانه متألّمًا، رأى خطا ما على الجزء الخشبي الخلفي للرفوف، أخذ يزيح الكتب واحدًا تلو الآخر فكلما فعل ذلك ظهرت خطوط

أكثر، أوقع كل الكتب أرضًا لتظهر نجمة كبيرة وفي المنتصف هناك مدخل للمفتاح في يده، أدخل المفتاح ولفه مرتين لتبدأ المكتبة في الاهتزاز، تحرك ركن كامل من الرفوف من مكانه ليظهر من تحته مدخل ما.

- يا لك من ماكر كبير يا حاتم!

ظهر نور شديد السطوع من خلف سراج ليغطي وجهه لحظات قبل أن يظهر في المكان شاب وسيم أبيض بابتسامة عريضة وعينين زرقاوتين، شعر رأسه طويل ناعم، وليست لديه لحية فذقنه ملساء، أقصر بعض الشيء من سراج، ولكنه لا يتجاوز العشرين من عمره.

- ما.. من أنت يا هذا؟!

قالها سراج خائفا.

- ألم تتعرف عليّ يا فتى؟!

- هذا صوت ليس بغريب على مسامعي.. شدّاد!

- ومِنْ غيري إذن؟!

قالها الشاب ضاحكا ثم أكمل:

- رأيت أنه لا فائدة من اختفائي أكثر.. أردت أن أكون مفيدًا، وأنزل معك لنكتشف ما يخبئ جدك.

- لقد توقعتك أكبر.. ستحملني همّك بالأسفل يا فتى.

- لا تقلل مما أنا قادر على فعله يا سراج.

أضاء سراج بهاتفه الجوال ونزل السلالم ومن خلفه شداد، ما إن وصلا للنهاية بحث سراج عن مفاتيح إضاءة المكان وشغلها، كانت غرفة صغيرة تبلغ مساحتها ثلث ما يعلوها، مكتب خشبي صغير في أحد جوانبها، وعليه شريط وجهاز تسجيل صغير، تردد صدى صوته:

- هل هذا كل شيء؟!

تحرك شداد يتأمل الغرفة الفارغة وهو يضحك.

- يبدو أنّ جدك يسخر منا!

تحرك سراج نحو المكتب ووضع الشريط في جهاز التسجيل وقام بتشغيله، لحظات من الصمت والتشويش.

- يبدو أنّه شريط تالف يا سراج و...

- شششششش.. هلّا صمت قليلًا؟

"عزيزي سراج.. أتمنى أن تكون أنت المستمع لهذا الشريط، على الأغلب أنا ميت الآن، ولكن دعنا نوضح بعض الأمور، في الأعلى رأيت صورة لي في زيٍّ عسكري، وقد أثار ذلك

فضولك بالتأكيد! نعم لقد كنت ضابطا في سلاح المخابرات الحربية بالجيش، كلفت واثنان من زملائي أحدهم في رتبتي نفسها (ملازم) وهو من عرفته أنت باسم "الشيخ مصطفى" والآخر أعلى رتبة منّا (نقيب) وكان يدعى "كامل الحسيني" بمراقبة مجموعة من الناس الذين ينقبون عن الآثار في محافظة الأقصر بصعيد مصر، في البداية تعجبنا من الأمر فهذا ليس اختصاصنا أصلا! ولكن مع الوقت علمنا أن هناك فرنسيًّا يترأس تلك المجموعة، ويمدهم بأماكن التنقيب، اندسسنا وسط العمال لأشهر لنكتشف أنه ليس تنقيبا عن الآثار، ولكنه بحث عن مقبرة بعينها تظهر كل بضع سنين في مكان ما، ويريد ذلك الفرنسي دخولها بشدة، لم يكن نشاطا مريبا بالنسبة لنا على كل حال، فكتبنا ذلك في أول تقرير ورفعناه لقادتنا والذين أبلغونا بالاستمرار في العمل مع الفرنسي، طيلة أحد عشر شهرًا ونحن نحفر في مكان ما لأيام، ثم يأتي الأمر بردمه والتحرك لمكان غيره حتى تغير الأمر في الأسبوع الأول من الشهر الثاني عشر، قدم وقتها الفرنسي في زيارة مفاجئة، وكان معه رجل من أهل البلد يدعى «الأعمش»، بعد مرور أيام على قدوم ذلك الرجل وتوجيهاته لنا عثرنا على مدخل المقبرة المنشودة، كتبنا ذلك في تقريرنا الدوري ورفعناه سريعا لقادتنا والذين أبلغوا الجهات المعنية بالشرطة المصرية للتدخل، لتقوم بعدها

شرطة الآثار قبل فتح المقبرة مباشرة بالقبض على كل هؤلاء ليتم التحقيق مع ذلك الفرنسي لأسابيع في حضور وفد من رئاسة الجمهورية، ثم قاموا بترحيله لبلاده في النهاية، الغريب أن المقبرة بقيت تحت الحراسة ليلة واحدة وبعدها اختفت تماما وكأنها لم تكن! بعد فترة وجيزة على هذا الحدث الغير مفسر بدأت عمليات قتل متسلسلة تستهدف كل من كان يعمل مع ذلك الفرنسي ويعلم بأمر تلك المقبرة إلا نحن الثلاثة، فقد كانت أسماء وهويات مزيفة بالإضافة إلى حماية جهاز المخابرات الحربية لنا، طلب منا التكتم على الأمر وكأن شيئًا لم يكن! أصبحت بعدها أعمل متخفيّا بالآثار ولا يعلم أحد قط أنّي ضابط بالجيش حتى انتقلت بالكامل لتلك الوظيفة، ترك كامل العمل لظروف صحية مفاجئة واختفى لمدة من الزمن، حتى مصطفى هو الآخر بعد تعرضه لمحاولة قتل نجا منها بأعجوبة ترك العمل بالجيش عند رتبة «نقيب»، عاد كامل بعد سنوات ليخبرني بأنه وجد مخطوطًا غريبًا وشيئًا له علاقة بالمأمورية القديمة والمقبرة التي كان يبحث عنها الفرنسي وبدأأأ..

- يبدو أنّ الشريط أصابه خطب ما!

قالها شداد ليهم سراج بفتح جهاز التسجيل وإخراج الشريط ووضعه من جديد، ولكن الوضع لم يتغير، ضرب

سراج الجهاز بيده في لحظة غضب فأوقعه أرضًا وهو يصيح:

- لم أعد أفهم شيئًا!

- أنا سأشرح لك يا فتى..

لم يكن صوتا غريبا على آذانه، ولكنه ليس شداد هذه المرة، نظر نحو السلم الذى نزلوا منه فاتسعت حدقتا عينيه من الصدمة، وهو يقول في بلاهة:

- الدكتور جمال! ولكن كيف؟! لقد.. لقد رأيت الصخرة تفتك بك بأم عيني!

نزل جمال السلم وهو يضحك بصوت عالٍ، ثم توجه نحو شداد وأخذ يتأمله، قائلًا:

- ومن أنت؟ لم أرك من قبل!

- أنا..

قاطعه سراج سريعا:

- إنه صديقي يا دكتور، وبالطبع لن تعرفه.. هلّا وضحت لي كيف؟!

- ستعرف كلّ شيء في وقته المناسب يا فتى.

قالها وهو يطرقع إصبعيه مشيرا من خلفه لأربعة من الرجال الملثمين والذين يحملون السلاح بالإمساك بسراج وصديقه:

- خذوهم إلى السيارة واذهبوا بهم حيث أمرتكم ولا يمس أحد شعرة منهم دون إذن مني.

أومأ أحدهم برأسه علامة الإيجاب ثم أخذوهما إلى الأعلى ومن ثم للخارج، غطوا وجهيهما بعصبة سوداء حتى لا يروا شيئا، ثم وضعوهما داخل سيارة وانطلقوا بهما، أخذ جمال يتجول في الغرفة ثم مال والتقط جهاز التسجيل، حاول تشغيله عدة مرات ليكمل باقي كلام حاتم، ولكنه باء بالفشل، أخرج الشريط ثم ضرب بالجهاز عرض الحائط ليتكسر لأجزاء وهو يصيح غاضبا:

- هل هذا كل شيء يا حاتم! لن تفيده قصتنا على الإطلاق.

*****

الفصل السادس

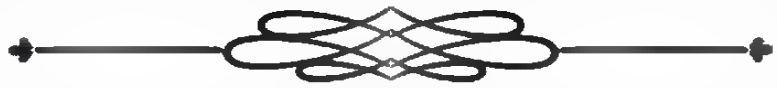

اليوم الثالث على تواجد الغريب في دمشق!

قصر الخلافة:

دخل القائد نصر الدين أنصاري القاعة التي يجلس فيها الخليفة الوليد بن عبد الملك ومن خلفه ذلك الغريب الذي أثار ظهوره ضجة كبيرة في المدينة، انحنى القائد للخليفة وهو يهز رأسه ويفرد زراعيه:

- مولاي الخليفة.

هز الوليد رأسه في رد لتحية نصر الدين، ثم أخذ يمقت بلال خلسة، وزع نظراته بين بلال ونصر ثم نهض من على كرسيّه متجها نحوهما وهو يتسائل:

- هل هذا..

- نعم يا مولاي.

صفق الخليفة مناديا:

- أخلوا المكان سريعا.. لا أريد غيري ونصر الدين هنا.

همس بلال بالقرب من أذن القائد نصر الدين متسائلًا في خوف من رهبة حضور الخليفة القوية:

- هل أغادر أنا أيضًا؟!

همس القائد بدوره:

- لا تقلق.

أغلقت أبواب القاعة، وطغى الصمت لحظات على أجوائها، أخذ الخليفة يدور حول بلال لتعلو ضحكاته تدريجيًّا:

- هذه هي الأخبار الجيدة التي يبدأ بها الواحد منّا يومه يا نصر الدين.. لم تخب ثقتي فيك قط.. أنت أهلها وحلال العقد!

- هذا واجبي تجاهك وتجاه المدينة يا مولاي.

أوقف الضحك فجأة وتخطى نصر ليقف مباشرة أمام بلال، نظرات حادة أثارت المزيد من الخوف في نفس بلال!

- أنت إذن الغريب! شكلك لا يبدو مخيفًا على الإطلاق!

نطق في صوت خافت مكتوم:

- وهل من المفترض أن يكون كذلك؟!

هنا تدخل نصر الدين ليهدأ الأجواء:

- إنه ليس كما شاع عنه يا مولاي.. إذا اتسع صدركم لسماع الحكاية فسأقصها عليك لتحكم بنفسك.

تراجع الخليفة وبدأ في السير نحو كرسيّه ليجلس مشيرًا لهما بالجلوس.

- يمكنك الحديث يا نصر الدين فكلي آذان صاغية لما ستقول.

بدأ القائد نصر الدين في إخباره بحكاية الغريب واسمه وكيف وقع أثيرًا في يد الهاربين في الجبال، أخذه الحديث لمخططاتهم ومكيدتهم التي دبروها لقتله باستخدام الغريب كطعم، وكيف أنه أنقذ حياته وثمانية من فرسانه، تجنب القائد في حديثه ذكر المخطوط الذي يريده بلال.

إذن هو ليس بجاسوس أو ساحر كما شاع عنه بين الناس يا نصر الدين؟!

- بالطبع لا يا مولاي.

- حكايتك عجيبة أيها الغريب.. ولكن ملابسك التي وجدناها أغرب وأريد أن أعرف ما قبل ظهورك في المدينة؛ فهلّا حكيت لي بصدق؟ لست من مصر حقًّا كما قال صديقي نصر الدين منذ قليل.. أليس كذلك؟!

نهض بلال من مكانه وبدأ يتحرك في القاعة بحرية مقتربًا من الخليفة ثم همس مبتسما:

- هناك أشياء من الأفضل لها أن تظل طي الكتمان، ولا يعرفها أحد مولاي الخليفة.. حقيقتي واحدة من تلك الأشياء.. الشيء الذي ينبغي أن تعرفه هو أنّي لا أمثل أيّ تهديد أو خطر، كما أنّي سأطلعكم على مكان الهاربين في الجبال، وسأساعدكم في التخلص منهم.

هنا تدخل نصر الدين مقاطعا:

- هذا بالضبط هو ما يجب مناقشته الآن يا مولاي.

- حسنا.. هات ما عندك يا نصر.

- قبل أنْ يخبرك سيدي القائد بخطته التي سألعب فيها الدور الأهم.. هناك شيء أريده في المقابل مولاي الخليفة.

نظر له الخليفة غاضبا:

- أهذه مساومة ما يا هذا؟! لأمرت بقطع رأسك في الحال لو كانت كذلك!

- حاشا لله يا مولاي.. من أنا حتى أساوم رجلًا في مكانتك.. إنه طلب صغير وفي مقدورك فعله لي، ويمكنك اعتباره هدية صغيرة مقابل خدماتي.

- هلّا التزمت الصمت قليلًا يا بلال؟ فأنت في حضرة الخليفة في النهاية!

قالها القائد نصر دين غاضبًا ليكمل بالنبرة نفسها:

- لا تجعلني أندم على ثقتي فيك وجلبك إلى هنا.

- ما الذي تريده أن يتخطاه ولا أعرفه يا نصر الدين! هيّا أخبرني.

نهض الخليفة مجدّدًا وهو يصيح:

- هلّا شرح لي أحدكم ما يحدث الآن؟

- سأخبرك أنا يا مولاي الخليفة بالأمر.. هناك مخطوط أهدي إليك في مطلع الفتوحات، ويتوقف على إيجادي له الكثير من الأمور.

- عن أيّ مخطوط تتحدث أيها الغريب؟!

- مخطوط العزيف، ويعرف - أيضًا - باسم كتاب الموتى.

-لابد أنك تمزح معي فمثل هذا المخطوط لا وجود له.. مجرد حكاية خيالية يقصها الرحالة في البلدان التي يقصدونها لتسلية أهلها والحصول على الطعام والشراب في المقابل.. أنت أحمق في النهاية!

كانت الصدمة واضحة تماما على وجه بلال الذي وزّع نظراته بين الخليفة وقائده نصر الدين، تراجع ليجلس واضعا يديه على جبهته متحدثا بصوت مسموع:

- هناك شيء غريب يحدث لا أفهمه! من المفترض وجود المخطوط هنا في حوزتك!

نظرا له في تعجب واستغراب، حدثه القائد نصر الدين:

- هل أنت بخير يا بلال؟!

- لا، لست بخير على الإطلاق.. إن لم أغادر ومعي المخطوط بحلول غروب شمس اليوم ستحدث كوارث لا يعلم أحد مقدارها إلا الله.

- لم أعد أفهم شيئا مما يحدث يا نصر الدين!

- ولا أنا يا مولاي.. صدقني، لا يريد أن يحكي شيئا في هذا الموضوع.

بدأ بلال في البكاء ثم علا صوت نحيبه تدريجيًّا ليتردد في أرجاء القاعة:

- إن لم أجد المخطوط سينتهي العالم الذي تعرفونه.. أرجوكم صدقوني!

- ألقِ بهذا المجنون في السجن يا نصر الدين.. لا أريد

السماع أكثر.

- ولكن يا مولاي..

- يا حراس.

صاح الخليفة في غلظة ليدخل بعض الجنود من باب القاعة الأمامي في الحال فور سماع النداء.

- ألقوا بهذا الرجل في السجن حتى أرى ما نفعل في أمره.. وليناد مناد في الناس بأنه قد تم القبض على الغريب، واتضح أنه رجل مجنون لا يملك من رجاحة العقل إلا قليلًا.

أخذ الجنود الرجل الغريب وتحركوا به خارج القاعة وهو يصيح باكيًا:

- سينتهي عالمك الذي تعرف ويزول ملكك.. لن يذكرك التاريخ وكأنك لم تكن.. يجب أن أغادر قبل الغروب.. أيها القائد أرجوك افعل شيئًا.. لقد وثقت بك!

تنحنح القائد نصر الدين مستوقفا الخليفة قبل مغادرته القاعة:

- هل هناك حقا مخطوط بهذا الاسم يا صديقي؟!

توقف الخليفة وعاد أدراجه وهو يسأل متحديًّا:

- وهل سيغيّر هذا شيئًا؟!

- بالطبع سيغيّر فهذا يعني أنّ بلالًا على حق في تحذيره لنا من كارثة ستحدث إن لم يغادر!

- لقد أهدي إليّ هذا المخطوط، ولكن الرسول الذي جلبه حذرني من أن يقع في الأيدي الخطأ، أو يفتح بواسطة أي شخص عادي.. لقد كان تحذيرًا شديد اللهجة يا عزيزي!

- وأين هو هذا المخطوط الآن؟!

- لم أخبرك سابقا؛ أفأخبرك الآن يا نصر الدين؟! من الأفضل أن لا يعلم أحد مكانه.. لقد حذروني من لمسه بيدي حتى!

- وما هو مصير ذلك المسكين الآن؟!

- عند غروب شمس اليوم سنكتشف ذلك.

قالها ضاحكا ثم همّ بمغادرة القاعة تاركا القائد نصر الدين حائرًا من أمره، فلو كان الغريب محقًّا في كلامه فستكون كارثة لو انتظروا حتى المغيب، ولو كان كاذبا فقد أنقذ حياته من الموت، ولا يجب أن يتركه هكذا ليقطع الخليفة رأسه، إذا قام بتهريبه من السجن فستسوء الأمور بينه وبين الخليفة، الكثير والكثير من التساؤلات التي تدور في رأسه جعلته عاجزا عن فعل شيء في الوقت الراهن، حدث نفسه:

- في داخلة نفسي شيء قويٌّ يصدق الغريب وينبئني بأن هناك كارثة قادمة ستفتك بالجميع.. سأنقذه حتى لو كلفني الأمر حياتي، ولكن أولا يجب أن أعرف أين يخبئ الخليفة ذلك المخطوط!

همّ بمغادرة القاعة وهو عازم كل العزم على تحرير ذلك الغريب ومساعدته على الفرار ومعه المخطوط مهما كلفه الأمر.

*****

في سجن القصر علا صياح الغريب ليتردد في أرجاء المكان، لم يكن تهديد الحراس له بالأمر الكافي فأخذوا يضربونه بشدة حتى يلزم الصمت، انتفض الحراس في الممر المؤدي للزنزانة لما رأوا القائد نصر الدين أنصاري مقبلًا عليهم، تقدم نحو الجنود الذي يضربون الغريب غاضبا:

- هلّا توقفتم عن فعل ذلك؟! من أمركم بضربه حتى؟!

تراجع الجنود معتذرين ليسمحوا له بالدخول، تقدم نحو بلال وأخذ يعتذر له عما يحدث وما فعله هؤلاء الجنود به.

- اتركوني معه قليلًا وحدنا.. سأتولى أمره من هنا.

قالها مخاطبا الجنود من خلفه ثم أشار للجند في الممر

بالأنصراف أيضًا.. وعاد ليحدث بلالًا من جديد:

- اسمع أيها الغريب.. أعلم أن اسمك ليس بلالًا، وأنّ قصتك التي حكيت قصة مكذوبة، ولكن شيئًا ما في داخلي يخبرني أنّك صادق فيما يتعلق بالمخطوط؛ لذلك سأساعدك على إيجاده والفرار من هنا وهو بحوزتك.

نظر له الغريب باكيا متألّما:

- ممتن لك على كل شيء أيها القائد!

- يجب أن نذهب الآن قبل أن يعود الجنود.. سنبدأ البحث عن المخطوط سويًّا هنا في القصر.

قالها القائد نصر الدين وهو يتقدم الغريب خارج الزنزانة ليتأكد من أنه الممر خاليًا أمامهم، تحدث الغريب وهو يتحامل على نفسه وينهض:

- حاتم.

- ماذا؟!

- اسمي هو حاتم السلكاوي.

- يسعدني أنّك بدأت تثق فيّ يا حاتم.. والآن هيا لنذهب.

تحركوا في الممر بعدما أحضر القائد ملابس جنود القصر

وأعطاها لحاتم ليرتديها ولا يشك فيه أحد، كان القائد على يقين بأن ذلك المخطوط لن يغادر محيط الجناح الخاص بالخليفة والذي لا يدخله أحد إلّا في وجوده، مرّوا بالكثير من الغرف التي تتصل ببعضها البعض حتى وصل لمكان بابه كبير ومغلق ليشير القائد لحاتم بالتوقف هامسا:

- هذا هو مبيت الخليفة.. يجب أن ندخل ونخرج بسرعة قبل أن يشعروا بهروبك من السجن.

أومأ حاتم علامة الإيجاب، ثم دخل القائد من الباب وهو من خلفه وأغلقه خلفهما، كانت غرفة كبيرة مبهرجة بها الكثير من الستائر، سرير كبير مذهب ذو سقف من الحرير والورود، العديد من الخرائط التي تملؤ جدران الغرفة، بدأ حاتم البحث كالمجنون دون توقف حتى قلبت الغرفة رأسا على عقب، تحرك القائد نصر الدين أنصاري نحو إحدى الخرائط على الجدار لشبه الجزيرة الأيبيرية «إسبانيا والبرتغال ومنطقة جبل طارق حاليا» وبدأ تفقدها والتأمل فيها لحظات، كانت بعض النقاط عليها مظللة وتمثل المناطق التي فتحها المسلمون حتى الآن، نطق في دهشة مشيرًا بأصبعه على إحدى النقاط:

- هذه النقطة على الخريطة مظللة ولم يفتحها المسلمون بعد! هناك شيء غريب في تلك الخريطة!

تقدم حاتم ليقف بجوار القائد نصر الدين متأملًا:

- عن أيّ نقطة تتحدث سيدي القائد؟!

وضع القائد أصبعه على النقطة بقوة وهو يجيب:

- هذه النقطة هنا.

اهتز السرير وبدأ في الدوران لينحرف عن مكانه قليلًا فظهرت فتحة وسلم من تحته، أخذا ينظران لبعضهما البعض في فرحة لينطق حاتم:

- يا له من ماكر!

تقدم القائد نصر الدين ونزل السلم ومن خلفه حاتم، في الأسفل كان هناك صندوق خشبي متوسط الحجم مكتوبًا عليه «ما في داخل الصندوق إذا مسته يد غير مؤهلة لذلك مات صاحبها في الحال»، ابتلع القائد نصر الدين ريقه قائلًا:

- يبدو أنّنا وجدنا المخطوط يا حاتم!

ضحك حاتم دون توقف ثم جلس على ركبتيه ليتحول ضحكه لبكاء من الفرحة:

- أخيرًا بعد الكثير من الأعوام والبحث وجدته.. كدت أن أفقد الأمل سيدي القائد.

- لا تخبرني أنّك ستفتح هذا الصندوق؛ فالتحذير واضح!

- ولن نسير بيه متجولين في أرجاء القصر أيضًا.. سنخرج المخطوط ونلفه في قطعة قماش ونغادر سريعا.

فتحوا الصندوق ليجدوا المخطوط مستقرًّا فيه، هو كتاب جلديّ كبير أسود اللون وبه قفل حديدي يحتاج لمفتاح لفتحه، في نصفه السفلي دائرة بيضاء بداخلها الكثير من الخطوط مكونة بضع نجوم، بالإضافة للعديد من النقوشات الغريبة وخطوط بارزة تملؤ باقي المخطوط من الخارج مكونة شكلا كروكيًّا لوحش قبيح الشكل، غطاه حاتم بالقماشة التي تبطن الصندوق وقام بربطه بإحكام حتى لا يراه أحد، أغلقا الصندوق وهما بالصعود للغرفة ليعيدا كل شيء لمكانه كما كان، ما إن فتحا الباب حتى وجدا الخليفة ويملؤ الغضب وجهه ومن خلفه الكثير من الجند:

- لماذا يا نصر؟! فأنا لا أثق بأحد كما أثق بك!

- الأمر أكبر مما تعتقد يا صديقي.. وأنت لا تريد سماع الغريب أو تصديقه فجميعنا في خطر.

- الخطر هو ذلك المخطوط الذي سرقتماه للتو.. لقد كان الرسول واضحا في تحذيره من فتح الصندوق، وأظنكما رأيتما ما كتب عليه!

- ولكننا فتحناه ولم يحدث شيء!

قالها حاتم وهو يخرج المخطوط الملفوف بالقماش ويرفعه في وجه الخليفة، أشار الخليفة لجنوده بالتقدم:

- اقبضا عليهما في الحال.

أشهر القائد نصر الدين سيفه ليقف حائلًا بينهم وبين حاتم قائلًا:

- فلتجعلهم يقتلوني ويتخطوني جثة هامدة ليصلوا إلى الغريب يا صديقي.

- لماذا تفعل كل ذلك يا نصر؟!.. أتفديه بنفسك!

- هذا الرجل يدعى «حاتم» وهو على حق في كل ما قاله، وسأجعله يثبت ذلك لترى بعينيك.. أو أموت وأنا أدافع عنه.

أشار الخليفة لجنوده بإنزال سيوفهم والتراجع للخروج من الغرفة.

- وكيف سيثبت لي يا نصر؟!

نظر القائد نصر الدين لحاتم وهما يتبادلان هز الرأس أن يتحرك حاتم ويقوم بالتحدث:

- مولاي الخليفة.. اسمي هو حاتم السلكاو...

قاطعه أحد الجنود قادم يجري نحوهم من الخارج وهو يلهث:

- عذرًا على هذا يا مولاي، ولكن هناك شيئًا طارئًا قد حدث!

- تحدث مباشرة.. أخبرني ماذا هناك؟!

- لقد بدأت أجزاء من المدينة الانهيار والاختفاء ولا نعلم ما يحدث!

هنا تدخل حاتم:

- هذا ما كنت أحذركم منه ولم يستمع لي أو يصدقني أحد.

- كما أنّ هناك أمر طارئ آخر.

نظر الخليفة للجندي في غضب وهو يصيح:

- ماذا أيضًا؟!

- لقد نزل الهاربون في الجبال المدينة في أعداد غفيرة ويستعدون للهجوم علينا.

- اذهب في طلب قادة الجيش، ولينادِ منادٍ بجمع كل الجنود في المدينة استعدادا للحرب القادمة.

- ماذا عن أهل المدينة يا مولاي؟!

- لا يريدون أهل المدينة أيها الجندي.. إنّهم قادمون إلى

هنا.

*****

لم يمر الكثير من الوقت حتى احتشد الكثير من جند الخليفة أمام القصر استعدادا لصد هجوم المتمردين، في الداخل كان الخليفة لا يزال في غرفته برفقة صديقه نصر الدين وحاتم الذي يرفض إرجاع المخطوط لمكانه، كانت الأجواء بين ثلاثتهم مشحونة بالكثير من الغضب، فالخليفة بدوره غاضبٌ لما يحدث لمدينته منذ ظهر ذلك الغريب، وحتى تتابعت الأحداث بانهيار واختفاء أجزاء منها، وانتهى كل ذلك بتجرّءِ الهاربين والمنفيين بالهجوم على قصر الخلافة، وليس هذا فقط، بل خيانة صديقه المقرب وعصيانه أوامره وقيامه بسرقة المخطوط، وأما حاتم فقد قارب اليوم الثالث على الانتهاء، ولم يغادر دمشق برفقة المخطوط الذي قضى ثلثي عمره تقريبًا يبحث عنه، وكل تلك الصعوبات والمتاعب التي واجهها منذ مقتل صديقه «كامل الحسيني» وبعدها مقتل الرجل الأحب إلى قلبه أمام

عينيه، والذي كان دائما جنبًا إلى جنب في جواره ولم يتركه قط (فهد التميمي)، وانتهى كل ذلك بدخوله غرفة غريبة في المقبرة في المغرب ليرى المخطوط بأم عينيه، وعندما يقترب من إمساكه في قبضة يده تظهر له امرأة

لعينة تلقي به في بعد آخر وسط صحراء لا أول لها ولا آخر! ومنها إلى زمن الخلافة الأموية ليجد أنّ ليس أمامه الكثير من الوقت للبحث عن المخطوط والعودة لبلدة الأشباح الملعونة تلك، وأخيرا القائد نصر الدين أنصاري الذي يعتلي وجهه الغضب الشديد بسبب عدم إخبار الخليفة له بأمر المخطوط، وعدم استماعه له فيما يتعلق بالغريب وأخْذ مشورته كالعادة، بل وصلت به الحال لإعطاء الأمر بالقبض عليه! لم ينته تبادل النظرات الحادة المليئة بالغضب بينهم حتى عندما تحدث الخليفة:

- هلّا أخبرتني بما سيحدث تاليًا على الأقل أيها الغريب؟!

تقدم حاتم خطوات نحو الخليفة وهو يقول في صوت هادئ:

- ما سيحدث تاليًا إذا لم أعد أدراجي ومعي المخطوط يسمى «تداخل الأزمنة».. بمعنى أنه ستختفي وتنهار أماكن وتظهر أماكن أخرى لا تنتمي لهذا العصر.. سأموت موتة بشعة، وتحتجز روحي أبد الدهر في قرية الأشباخ الملعونة التي أخذت عليّ عهدَ تحريرِها والعودة إليها.. سيختفي اسمك وكل الخلافة الأموية من بعدك.. لن يكون لها وجود.. الله وحده يعلم ما سيحدث تاليًا!

- وكيف تتوقع منّا أن نساعدك الآن لينتهي كل ذلك ونمنع

حدوث تلك الكارثة؟!

- يجب أنْ أذهب بالمخطوط للمكان الذي ظهرت فيه أول يوم.

- المسجد الأموي!

- نعم.. هذا هو.

- سيذهب معك نصر الدين إذن حتى يتأكد من أنك ستصل بسلام لهناك.. هيّا يجب أن تتحركا؛ فليس أمامكما الكثير من الوقت، وسيكون في انتظاركما بعض الجنود لمرافقتكما إلى هناك.

قالها الخليفة وهو يهمّ بمغادرة الغرفة استعدادا لمقاتلة الدخلاء، استوقفه حاتم وهو ممتن وعلى وجهه ابتسامة راضية:

- شكرًا لك مولاي الخليفة.. لقد كان شرف لي مقابلة الخليفة الذي فتحت في عهده الأندلس.. سيذكرك التاريخ لاحقا بالكثير والكثير.

ابتسم الخليفة بدوره، وهزّ رأسه محيّيا ثم أكمل في طريقه مغادرا.. نظر القائد نصر الدين ضاحكًا وهو يتحدث مندهشا:

- هذه ليست عادته صدقني! يجب أن نغادر الآن قبل أن يرجع عن كلامه.

- كيف سنخرج إلي ضواحي دمشق وهؤلاء القادمين من الجبال فيها؟!

- لا تقلق.. دع هذا الأمر لي.. ولكن!

- ولكن ماذا سيدي القائد؟!

- لقد عشت بما فيه الكفاية يا عزيزي حاتم.. جبت الكثير من المدن والبلدان.. وصدقني لن أغادرَ القصر حتى أعرف حكايتك.. حتى وإن كلفني ذلك حياتي فأيّ حياة تلك التي سأعيش وهناك جزء مفقود في مغامرة كتلك التي نعيشها الآن!

بقى حاتم لحظات متسمّرا في مكانه ينظر بشفقة تجاه القائد نصر الدين وهو يعلم أنه لو أخبره بحقيقته فهو ميت لا محالة، تردد كثيرا في داخلة نفسه فهو الرجل الوحيد الذي ساعده ووقف حائلا بينه وبين الخليفة، على الناحية الأخرى كان القائد مصمّمًا على معرفة الحقيقة، لم يعلم حاتم من أين يبدأ تحديدا، ولكنه أخبره عن عمله الذي جعله يعلم بأمر مقبرة غريبة في البداية، ثم إيجاد صديقه لمخطوط قديم بعد سنوات يتحدث عن قصة منسية من الأساطير وبعض

الخرائط الغريبة، ثم تطرق للحديث عن حفيده الذي تحدثت عنه نبوءة قديمة في عالم الجان، وأنّ كلّ ما فعله حتى الآن كان لحمايته من الشر الذي يريده والمخطوط معًا، ثم في النهاية كيف جلبته المقبرة لبلدة الأشباح التي ظن أهلها أنه الطفل من النبوءة، وأنه سيخلصهم، أخذت عليه البلدة عهدًا بقطرات من دمائه أنه لو لم يعد من آخر مكان شوهد فيه المخطوط قبل غروب شمس اليوم الثالث فستتداخل الأزمنة والعوالم وستحدث الكوارث، في النهاية سيموت موتة بشعة وتجلب روحه لتظل حبيسة بلدة الأشباح تلك حتى يأذن الله بنهاية الأرض ومن عليها، تعجب القائد نصر الدين من تلك المغامرة العجيبة التي استمرت لأعوام وكل تلك المتاعب التي عاناها حاتم من أجل ذلك المخطوط!

- حكايتك تلك يجب أن تروى في المجالس، ويتغنى بها الرحالة الذين يجوبون البلاد يا حاتم!

هربت دمعة من عينه وجرت على خده وهو ينظر في حزن للقائد ليداعبه الأخير مبتسما:

- لا عليك يا حاتم، فقد حققت كلّ ما جعلني سعيدًا حتى اليوم.. عشت حياتي بحلوها ومرها راضيًا، وأظنني جاهزًا لألقى الله؛ فأنا لست نادمًا على شيء فعلته في حياتي.

احتضنه حاتم بقوة وهو يبكي حتى علت أصوات الأبواق

ودقت طبول القصر، أبعده القائد متحدثا:

- لقد دقت طبول الحرب يا حاتم.. ليس أمامنا الكثير من الوقت!

غاب عنه لبضع دقائق، وعاد مرتديًا زيّ الحرب، معتمرا خوذة حديدية وسيفه مستقر في يساره، أحضر معه درعا وسيفا وأنزلهم أرضًا وهو يقول:

- يستحسن أن تكون لديك خبرة في استخدام السيف.

نظر حاتم مبتسما، ثم قام بارتداء الدرع سريعا، وأمسك بالسيف في يمينه:

- لماذا لم أولد في هذا الزمان؟! لكنت قائدا عظيما لعلمك!

ضحك القائد نصر الدين بدوره ثم همّ بالتحرك للخارج.

- اتبعني إذن أيّها القائد العظيم.. لقد جاءتك الفرصة لنرى ذلك.

أخذه القائد عبر ممرات سرية في القصر ليجد نفسه عند أحد الأبواب الخلفية له، كان هناك بعض الجنود في انتظارهما بأمر من الخليفة وجوادين، ركبا الجياد وهمّا بمغادرة القصر في اتجاه المسجد الأموي حيث ظهر حاتم لأول مرة، كان من خلفهم بمسافةٍ رجلان آخران يتبعونهم

دون أن يلاحظ أحد، عند مدخل المسجد كان هناك الكثير من الرجال الذين هجموا على المدينة وسيطروا على ضواحيها؛ فكان من الصعب دخول المسجد دون قتال.

- لا أجد طريقة لدخول المسجد إلا القتال يا حاتم.. فما رأيك؟!

- عددهم كبير بالمقارنة بعددنا سيدي القائد!

- سنشتت انتباههم ونقاتلهم بشراسة واستماتة حتى تدخل وتجد طريقة للمغادرة.

هزّ حاتم رأسه علامة الإيجاب ليستل القائد وجنده سيوفهم ويتقدموا على جيادهم وهم يصيحون، دارت معركة شرسة أمام المسجد تفوق فيها العدو الجبان بالعدد على القائد وجنده، تقدم حاتم خلسة ليدخل كما اتفقوا ليقطع أحدهم طريقه غاضبا:

- الغريب من جديد! سيسر سيفي كثيرًا بدمك.

أخرج حاتم سيفه وبدأ في صد الضربات القوية التي وجهها له ذلك الرجل، سقط أرضا من قوة وشراسة الضربات لينجده القائد نصر الدين في اللحظة الأخيرة ويضرب الرجل ضربة قوية فصلت رأسه عن جسده.

- هل أنت بخير يا حاتم؟!

هز حاتم رأسه التي غطتها الدماء، ولم ينطق من شدة الخوف ليتابع القائد:

- التقط سيفك إذن ولندخل بسرعة.

نهض حاتم وتحرك في ظل القائد نصر الدين لينبهر ببراعته في القتال واستعمال السيف؛ فكلما اعترضهم رجل هزمه شر هزيمة وأرداه قتيلا، دخلا المسجد وتحرّكا بخطوات سريعة نحو المكان الذي استيقظ فيه أول مرة، مرت لحظات على توقفهما لينظر القائد نصر الدين متسائلًا:

- ماذا الآن؟!

أجاب حاتم في بلاهة شديدة:

- لا أعلم! من المفترض حدوث شيء ما!

ضرب القائد جبينه وبدأ في هز رأسه يمينا ويسارا، عند مدخل المسجد كان هناك الكثير من الرجال القادمين في اتجاههم.

- حريٌّ بك أن تسرع وتكتشف ما العمل؛ فليس لدينا الكثير من الوقت!

توتر حاتم وجلس على ركبتيه وهو يصيح:

- ماذا الآن؟! لقد أحضرت المخطوط.

كانت هناك أصوات أبواق قادمة من الخارج، وكأنه جيش المتمردين بالكامل قادم نحو المسجد، تقدّم رجل من الأعداء وهو يضحك بصوت عالٍ ويصيح:

- لم يكن هدفنا القصر أو الخليفة إطلاقا فالسيد يريدك أنت أيها الغريب.. أنتما ميتان الآن.

بالفعل كان العدو يتجمع بالخارج أمام المسجد ويقودهم رجل طويل ضخم البنية، ويحمل سيفا يكاد يكون في حجم السيف العادي ثلاث أو أربع مرات، وشاح أسود على الرأس يخفي معالم الوجه، تقدم الرجل الضخم نحو القائد نصر الدين وحاتم قائلًا:

- لعلّك ما زلت تذكرني يا حاتم؟!

نظر حاتم للأعلى وهو جالس على ركبتيه فاقد الأمل ليرى رجلًا أعور العينين، على وجهه غضب لم ير مثله من قبل، نطق في خوف:

- هذا الصوت ليس بغريب على مسامعي!

- أنظر جيّدًا لعيني يا حاتم وستتذكر.

نهض حاتم وهو يصيح مصدوما:

- الحارث!

- كل شيء مدبر لتكون هنا وبحوذتك المخطوط.. سأجعلك تتمنى الموت يا حاتم جراء ما فعتله بعيني.

تراجع للخلف خطوات وهو يشير للرجال من خلفه بالهجوم على القائد نصر الدين:

- احصلوا على انتقامكم، وافعلوا ما شئتم بالقائد وأحضروا الآخر حيًّا.

كانت هناك الكثير من السيوف والرماح التي تتطلّعُ إلى هذا الانتقام، لطالما كرهوا القائد نصر الدين أنصاري، وكنّوا له الحقد والكراهية، لطالما وقف حائلًا بينهم وبين تحقيق مساعيهم البشعة، أخذ القائد يصدهم واحدا تلو الآخر في شجاعة لم ير حاتم مثيلًا لها من قبل، كان يصيح فيهم ودمائهم المتطايرة تملؤ وجهه ودرعه، في نهاية الأمر طعنه أحدهم من الخلف برمح خرج من صدره لتتوالى الطعنات بالسيوف في اختراق جسده ليسقط على ركبتيه متكئا على سيفه، وهو ينظر لهم مبتسما للحظات ثم سقط بكامل جسده أرضا ليهللوا بدورهم، انتصار مكذوب مليء بالخسة والجبن والغدر، صاح حاتم باكيًا في حرقة:

- لاااا.. سيدي القائد.. قتلوك غدرا هؤلاء الخونة الجبناء!

جروه جرًّا حتى ذلك الأعور الذي كان يجلس بالقرب من مدخل المسجد يتلاعب بسيفه، لم يتوقف حاتم عن الصياح والنظر للموضع الذي سقط فيه القائد، نظر له الحارث وهو يضحك ساخرًا:

- يحيّرني أمركم أنتم بني البشر.. لم تكمل حتى ثلاثة أيام هنا وتبكي بهذه الحرقة على رجل غريب!

- لن تفهم فأنت ملعون بلا مشاعر، وأيّ لعنة أشد من تلك لتصيبك!

- سأقتلع عينيك من مكانهما يا حاتم، ثم سأقطع يديك ورجليك وأقوم بصلبك هنا في قلب مدينة دمشق.. ولكن قبل ذلك سأخبرك بما حدث.

نهض الحارث واقترب من حاتم ونظر مباشرة في عينيه ليكمل:

- لقد جلبناك هنا حتى تحضر المخطوط لنا.. بلدة الأشباح تلك وسيدتها لن يحررهم سوى عودة سيد المخطوط «عبد الله الحظرد».. بالمناسبة كلنا نخدمه وننتظر عودته.. حفيدك - أيضًا - معنا الآن.

- سراااج!

- نعم سراج.. لن تكتمل الأحجية بدونه فهو الطفل من النبوءة.. لدينا المخطوط، ولدينا سراج وتتبقى الطقوس لعودة سيد الأرض من جديد.

جرى رجل من الخارج وهو ينادي:

- جيش الخليفة يتوجه بكامله نحونا يا سيدي.

ضحك الحارث قائلًا:

- يبدو أنّ في العمر بقية يا حاتم وستبقى معنا قليلا.. فليتوجه الجميع للخارج فالخليفة يريد أن يلحق بقائده وصديق طفولته.

- لماذا تفعل ذلك؛ فلديك المخطوط ويمكنك المغادرة الآن!

ضحك الحارث ساخرًا:

- لا تكون الأحداث ممتعة هكذا وأنا في المقبرة.. فلنمرح قليلًا.

بدأ القتال سريعا أمام المسجد ليسقط المتمردون الجبناء واحدا تلو الآخر فلا قلب لهم بجند الخليفة الذين يفوقونهم عددا وتنظيما، لم يمر الكثير من الوقت حتى عاد الحارث نحو حاتم، تحدث وهو يلتقط القماشة التي تلف

المخطوط ويصيح في من تبقى في المسجد للخروج

والقتال:

- حان وقت ذهابي الآن يا حاتم.. أراك على الناحية الأخرى.. حريٌّ بك أن تنهض الآن.

ظهرت فجوة سوداء من خلفه لينهض حاتم وهو ينظر للحارث الذي سيفر هاربا ويتركه، في داخلة نفسه يعلم أن انتصار الخليفة بالخارج لا فائدة منه إذا بقي هو في مكانه ولم يغادر، جرى حاتم نحو الحارث قبل مروره من الفجوة وألقى بنفسه عليه لتبتلعهما وتختفي، دخل الخليفة المسجد على هذا المشهد العجيب وهو يقول مخاطبا نفسه في صوت مسموع:

- أيها الغريب لقد جئت بني أمية ساحرًا وغادرتهم ساحرًا!

صاح مناديا أحد قادته ليخبره متأثرا بعدما رأى من أحداث وشاهد صديق طفولته وقائدا عظيما من قادته ملقى أرضا غارقًا في دمائه مدافعا عن الغريب:

- فليأتِ أشهر شعراء المدينة، وليدوّنوا قصة «الغريب» والقائد العظيم «نصر الدين أنصاري» ليتغنى بها الناس ويتحاكوا بها في المجالس!

- هل تقترح اسمًا للحكاية مولاي الخليفة؟

- "ساحر بني أمية" سيكون مناسبا.. ولتستعد المدينة كلها لتخرج خلف جثمان القائد نصر الدين أنصاري.

*****

على الجانب الآخر في بلدة الأشباح ظهرت الفجوة السوداء التي ابتلعت الحارث وحاتم في المسجد الأموي بدمشق، ألقت بهما أمام بيت تلك الشيطانة التي قابلها حاتم سابقًا، خرجت تهلل فرحة:

- أخيرًا عاد المخطوط للبلدة!

سجد لها الحارث على الفور وهو يرفع القماشة التي تلف المخطوط لتعلو رأسه قائلًا:

- سيدتي هيا.

بدأ كل أشباح البلدة الظهور والتجمع من حولهم صائحين في صوت واحد بدا مرعبا ومخيفا لحاتم:

- حظرد.. حظرد.. حظرد.

ضحكت بدورها ضحكات عالية يملؤها الشر ثم رفعت المخطوط عاليًا وهي تحدثهم صائحة:

- سيعود سيد المخطوط من جديد وتنتهي معاناتنا!

ثم نظرت لحاتم في ابتسامة ماكرة:

- حفيدك في طريقه إلى هنا.. فهذا هو قدره.

- إن كنتم ستعيدون الحظرد بطريقة ما فما حاجتكم إلى حفيدي إذن ولديكم المخطوط؟!

تركته وهي مستمرة في الضحك، وهو يشعر بأنه غبيّ نوعا ما.

- ستفهم كلّ شيء قريبًا يا سلكاوي.

فجأة شعر بوميض غريب في عينه، حدث كل شيء سريعا قبل أن يرتد إليه طرفه حتى، اسودت الرؤية من أمامه وما عاد قادرا على رؤية شيء، صاح باكيًا من شدة الألم:

- عيناي.. لاااااااا.

كان الحارث قد دب إصبعيه بقوة في عين حاتم بمجرد أن التفت بوجهه بعيدا عن السيدة هيا، فقأ له عينيه وهو يضحك بهيستيرية غريبة:

- لم يجرؤ أحد أن فكر حتى بمهاجمتي من قبل أيها البشري الأحمق.. هذه فقط البداية، ولولا السيدة هيا لكنت أكملت.

قام بعدها بجره من ملابسه ليجلسه أمام بيت السيدة هيا

منتظرين جميعا قدوم الفتى سراج وبدأ طقوس عودة عبد الله الحظرد سيد المخطوط، في هذه الأثناء فكت السيدة هيا القماش من حول المخطوط وحاولت لمسه متذاكية فألقى بها في قوة خارج البيت ليضحك الحارث عليها ساخرًا:

- لا يمسه إلا الفتى من النبوءة سيدتي.. يبدو أنّك نسيتِ ذلك!

نهضت غاضبة لتشير بيسراها فيلقى بالحارث نحو أحد أعمدة البيت بقوة، ثم تحركت نحو حاتم وأخذت تمشي بيدها على شعر رأسه ووجهه، جلست بجواره وهي تسرح بعيدا بناظريها ثم بدأت التحدث:

- كان عبد الله الحظرد زوجي وأبا أبنائي، وكنا سعيدين للغاية سويًّا، لم يكن يحبني بقدر ما يحب الترحال والتنقل من بلد لبلد، ولكني كنت راضية بذلك!

ضحكت في حزن ثم أكملت:

- حتى رأى في منامه ذلك اللعين الذي جعله ينهض من الفراش ودفئه ليبدأ كتابة مخطوط فيه الكثير من أسرار القدماء، مخطوط جاء بالوباء واللعنة وصاحبه دمار البلدة بأكملها، أخبرني أنّه لا يستطيع السيطرة على ما يحدث

في حياته منذ جاب تلك الصحراء، ورأى الوحوش وحدّث الأموات، كان يأتي كلّ ليلة إلى حضني ما إن ينهي ما يملونه عليه خائفا مرتعبا، أخبرني أن روحه لم تعد ملكه، وأنه سيذهب إلى الجحيم بعد كتابة ذلك المخطوط، اليوم الذي اكتمل فيه العزيف لقنوه تعويذة ما ليغلق المخطوط ويبعده حتى وقت الحاجة إليه، وكأنهم كانوا يعلمون أنه سيتم نفيهم وحبسهم بعيدًا، وحده الحظرد قادر على فتح المخطوط وإعادتهم، وأيضا إنهاء معاناة البلدة وأشباحها..

قاطعها حاتم:

- إذا كان كل شيء يتمحور حول الحظرد وعودته، فما الحاجة إلى حفيدي؟ لست أفهم!

ضحكت مجددا وهي تنهض قائلة:

- ما زلت ساذجًا ولا تفهم حتى الآن يا حاتم! سيعود الحظرد في جسد حفيدك.

صاح غاضبا:

- لا تتركيني وتذهبي هكذا.. أريد أن أعرف كيف؟!

ضحك الحارث قائلًا:

- كما أخبرتك سابقا.. سأقطع يديك ورجليك وأصلبك أمام

ناظري حفيدك الذى سينضم لنا قريبًا.

بكى حاتم وحدث نفسه في حزن وأسى:

- سامحني يا سراج يا ولدي.. لقد فعلت كل ما بوسعي، ولكن يبدو أنّه قدرك وسيلاحقك مهما فعلت!

اشتعلت النيران في المشاعل لتضاء شوارع البلدة بأكملها، خرجت عليهم السيدة هيا في زي أنيق وشبه عاري يكشف أكثر مما يغطي، تكحلت وزينت وجهها بخطوط غريبة، ثم تقدمت للسير في شوارع البلدة وهي تحمل المخطوط في صندوق خشبي صغير، ومن خلفها كلُّ أشباح البلدة يتراقصون، أمسك الحارث بجسد حاتم يجره خلفه ليسير وسط الأشباح، على أطراف البلدة توقفت السيدة هيا عند بيت من الطوب اللبن على عكس بيوتها الخشبية، ألقى الحارث بجسد حاتم على حائط البيت ليتكِأ عليه بظهره ثم تراجع ليقف بجوار السيدة هيا التي خلعت زيها الأنيق لتبقى عارية تماما، بدأت في رسم دائرة على الرمال ثم خطوطًا في المنتصف مكونة نجمة، أخرجت نصلًا حادًا ثم جرحت كلتا كفيها وبدأت في تقطير دمائها على خطوط الدائرة، وضعت الصندوق في المنتصف ثم فتحته وأخذت تتلو عليه بعض الكلمات بلغة غريبة ثم رفعت كلتا يديها بمحاذاة الكتف فأخذ الأشباح يدورون من حولها مكررين كلماتها الغريبة،

تشققت حوائط البيت وانهار سقفه ليزحف حاتم مبتعدا، ارتفعت النيرات من قلب البيت مشكلة وجها غاضبا فسجدوا جميعا ليتأملهم بدوره ثم يقع نظره على المخطوط في الصندوق:

- المخطوط! لقد مر وقت طويل.

رفعت السيدة هيا وجهها ببطء ناظرة لذلك الوجه في خوف:

- سيدي الحظرد.. لقد قارب وقت عودتك.

- لقد انتظرتِ طويلا عزيزتي هيا.. لم يكن إحضار المخطوط من عقر ديار بني أمية بالأمر السهل.

- الفضل في كل ذلك يعود لكامل الحسيني وأبحاثه وتخطيطه لاستخدام ذلك الأحمق حاتم الذي كنا نحركه ونوجهه كيفما نشاء.

- كامل في طريقه إلى البوابة الآن، ومعه الفتى.. سأعود عندما يحضران لنبدأ المراسم.

خمدت النيران لتنهض السيدة هيا مخاطبة الحارث:

- يمكنك قتله؛ فما عدنا بحاجة له بعد الآن.

اعترض حاتم صائحًا:

- ماذا؟! ستجعليه يقتلني قبل أن أعرف ما قصة كامل التي تحدثتم عنها تلك! ثم أريد أن أكون شاهدًا وحاضرًا عودة الحظرد.

توقفت السيدة هيا وقالت ضاحكة:

- أنتَ تماطل يا حاتم، ولكن مع ذلك سأخبرك بتلك القصة الطويلة.

عادت لتجلس بجواره على الرمال مكملة في مكر:

- أو ربما لن أفعل.

أخرجت النصل الحاد الذي جرحت به كفيها ونحرت به عنقه وهي تنظر في عينيه دون أن يرمش لها جفن:

- أنت ميت منذ زمن طويل يا حاتم.

- لم أتوقع ذلك على الإطلاق سيدتي هيا!

- هذا لأنّك أحمق.. يمكنك صلب جثته إن أردت، فسيكون مشهدًا رائعًا يراه الفتى عندما يحضر!

- كنت أريد أن أكون من يقتله.. كنت سأمرح معه أولًا.

*****

الفصل السابع

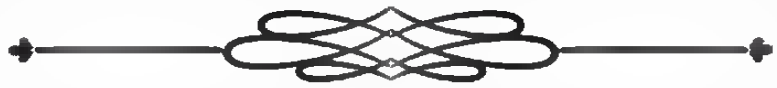

أحد البيوت الفخمة بمنطقة وسط البلد – القاهرة.

عام ألفين وعشرين..

توقفت السيارات أمام بوابات بيت كبير من ثلاث طوابق، ويحيط به من الخارج سور يصل ارتفاعه ثلاثة أمتار تقريبًا، تزينه الكثير من أعمدة الإنارة الفخمة المليئة بكاميرات المراقبة، فتحت البوابة الحديدية السوداء الضخمة ليظهر من خلفها بعض الرجال المسلحين في أزياء أنيقة ونظارات شمسية على الوجه، تقدمت السيارات وكان عددهم ثلاثة على الممر الحجري الذي يتوسط نباتات الزينة، وبعض الأشجار على الجانبين حتى توقفت عند مدخل البيت تباعا، نزل من السيارة الأولى والثالثة رجال ضخام البنية كهؤلاء على البوابة، تقدم أحدهم لفتح باب السيارة في المنتصف لينزل منها الدكتور جمال مشيرًا لهم بإخراج الفتى واللحاق به للداخل..

- أدخلوه لقاعة البيت الكبرى، واجلبوا الفتاة أيضًا.

في تلك القاعة جلس الدكتور جمال في زيّه الأنيق على كرسيٍّ فخم واضعا قدم على الأخرى، ومن خلفه اثنان من الرجال المسلحين، بالإضافة لثلاثة عند مدخل القاعة، دخل أربعة آخرون يحمل اثنان منهم الفتى سراج والآخران يحملان روان، أجلساهما على ركبتيهما أمام كرسي الدكتور جمال الذي نهض يتحدث مبتسما:

- أعتذر عن الطريقة التي أحضرناكما بها إلى هنا عزيزي سراج!

تحدث سراج غاضبا:

- كيف ما زلت حيا؟! وما هذا المكان؟!

تحرك الدكتور جمال وسار حولهم وهو يتأمل قاعة البيت الفخمة متحدثا:

- لم يكن البيت هكذا دائما، فقد كان مهجورا عندما ولدت أنت، ولكن بلمسة مني أصبح من أغلى الأماكن في المنطقة.. لقد كلفتني تلك التعديلات الكثير من الأموال حتى أجعله هكذا!

نظرت له روان باكية وهي تتأمل حاله:

- يستحيل أن تكون والدي الذي عرفت!

ضحك ساخرا:

- روان المسكينة وأمها! عزيزتي أنتِ لا تفهمين شيئا، وما كنا لنقحمك في هذا لولا مجيئك لزيارة سراج في بيت حاتم.

- رأيتك تموت بأمّ عيني! لقد حزنت عليك من كل قلبي!

أسودت عيناه بالكامل، واختفى منهما البياض وهو يصيح بصوت أغلظ:

- كلما دخلت المقبرة أموت يا فتى.. المقبرة في الأقصر كانت بداية اللعنة فقد خرجت منها شخصا آخر.. ثم في المغرب مع جدك حاتم.. وأخيرًا في أسيوط عندما دخلنا سويًا.. لقد حضرت كلّ شيء يخص مقبرة الحظرد يا فتى.. يقف أمامك التاريخ بذاته فيما يتعلق بتلك المقبرة.

- لم أعد أفهم شيئًا.. هلا وضحت أكثر ما تعني؟!

- سأقص عليك الحكاية منذ البداية لعل عقلك الصغير يستوعب ما يحدث.

*****

مبنى المخابرات الحربية – القاهرة..

أواخر السبعينات..

يافطة خشبية على مكتب صغير في غرفة بأحد الطوابق مكتوب عليها «نقيب/ كامل حامد الحسيني».. فتح باب الغرفة ليدخل ضابط على كتفه ثلاث نجوم، ومن خلفه اثنان آخران على كتف كلٍّ منهم نجمة واحدة، تحدث الضابط ذو الرتبة الأعلى ضاحكا:

- يريدونكما في مهمة تخفّي رسمية معي بداية من الغد.. يا لكما من محظوظين! لقد كانت مهمتي الأولى وأنا برتبة «ملازم أول».

تساءل أحدهما مندهشا:

- أهذه مزحة يا قائد؟!

- لا.. والله يا حاتم لقد جئت الآن من ذلك الاجتماع الطارئ مع قادتي وسنبدأ من الغد.

- هذا والله يوم سعدنا يا قائد!

قالها الضابط الآخر ليجيبه كامل مبتسما:

- نعم.. بالطبع فمهمتكما الأولى معي يا مصطفى.. ستتعلمان الكثير.

تسائل حاتم:

- وما هي طبيعة تلك المأمورية يا قائد؟!

- أولًا.. توقفا عن مناداتي «قائد» منذ هذه اللحظة وحتى انتهاء المأمورية.. ثانيا ستغادرون الآن لتستعدوا.. فغدا - صباحًا - سنكون في طريقنا لمحافظة الأقصر وسأخبركما وقتها بالتفاصيل المهمة.

في اليوم التالي فجرا كان الثلاثة يرتدون زيًّا ملكيًّا في محطة القطار، ركب كلٌّ منهم في عربة غير الآخر لينطلق القطار في طريقه، وجد كلٌّ من حاتم ومصطفى أسفل مقاعدهم جريدة يوميّة خبئت بها تفاصيل مهمتهم، كان اليوم قد قارب على الانتهاء عندما دخل القطار محطة الأقصر، ذهب كل منهم في طريق غير الآخر، وبعد أيام من تواجدهم في محافظة الأقصر تقابلوا مجددا كعمال حفر في أحد مناطق التنقيب عن الآثار، كانت منطقة صخرية مليئة برجال من الصعيد في جلابيبهم التقليدية وبعضهم يحمل بنادق آلية على كتفه، انخرطوا وسط العمال وعملوا معهم لأيام ثم بدأوا في التنقل من مكان لآخر حتى قابلوا الفرنسي المنشود لأول مرة في أحد المواقع، والذي طلب مسحا كاملا للعمال والمتواجدين في المكان قبل الحفر، وقتها رفعوا أول تقرير لقادتهم عن ظهور الرجل الفرنسى وطابقوا مواصفاته وما إلى ذلك، استمرت هذه الحال أحد عشر شهرا، يتنقلون من مكان حفر لآخر، وعندما يحين الوقت يرفعون

تقريبًا لقادتهم، وكانت معظمها سلبية فلم يروا شيئًا يلفت انتباه المخابرات، ولكن قادتهم استمروا بإعطائهم الأوامر بالاستمرار فيما يفعلون، حتى جاءت بداية الشهر الثاني عشر من تخفيهم بين العمال، ذلك اليوم كان الفرنسي قد وصل لتوه مبتهجا ونادى سريعا على المترجم ليخبره بالمكان الجديد للبحث، تقدم الرجل الذي يترأس الرجال المسلحين ويحضر العمال للحفر، وفي جواره رجل آخر قائلًا:

- هذا هو «الشيخ الأعمش».. رجل مبارك، وله كرامات وسيعطينا التعليمات في الموقع الجديد بدلا من الفرنسي.

تقدم كامل يقول ساخرًا:

- لا يهم من يعطينا التعليمات ما دمنا نقبض أموالنا باستمرار.

لم يعطه الرجل أيّ اهتمام ثم صاح في الجميع:

- سنتجه غربا، وسيتم الحفر على بعد كيلو متر من هنا.. هيّا جميعا إلى السيارات.

على مدار أيام استمروا في الحفر حتى وجدوا مدخل المقبرة المنشود في الأسبوع الثاني من الشهر الثاني عشر لتواجدهم مع الفرنسي، هلّل الجميع وصاحوا فرحين، ولكن الأعمش حذرهم من دخول المقبرة في عدم وجود الفرنسي

الذي كان قد غادر لظروف طارئة، كانت فرصة جيدة لرفع تقريرهم بما حدث لقادتهم الذين سرعان ما وجهوا الجهات المعنية من الشرطة المصرية بالقبض عليهم في تواجد الفرنسي، وقبل الدخول مباشرة بأمر من المخابرات الحربية أطلقت الشرطة المصرية سراح الضباط المتخفيين فى اليوم نفسه، تم إبلاغ كامل بأن مهمتهم انتهت ويمكنهم العودة لمكان عملهم من الغد ليبلغ بدوره حاتمًا ومصطفى، في داخلة نفسه لم يستطع مقاومة رغبته في دخول تلك المقبرة ومعرفة ما الذي كان الفرنسي يريده بشدة إلى هذه الدرجة! حدث نفسه وهناك شيء غريب يتملكه:

- انتهى الأمر بهذه البساطة! سأدخل المقبرة مهما كلف الأمر.

اسودت عيناه بالكامل، واستحوذت عليه فكرة دخول المقبرة، ولم يعد يفكر في شيء سوى كيف سيفعلها؟!، وكأنه هناك شيئًا غريبًا قد سيطر عليه، ولم يعد قادرا على السيطرة على أفعاله، بطريقة ما استطاع إخراج الأعمش من قسم الشرطة وأخذه في سيارة وهو يغطي وجهه بقماشة سوداء تمنعه من الرؤية، وصل عند مدخل المقبرة التي كانت عليها حراسة مشددة من الشرطة، توجه نحو المسئول وهو يخرج بطاقة هوية خاصة بضباط المخابرات الحربية:

- كامل الحسيني.. نقيب مخابرات حربية وسأتولى الأمر من هنا.

أشار المسؤول للجنود في امتعاض بالابتعاد والسماح لضابط المخابرات ومن معه بالمرور، كان الأعمش مستغربا مما يحدث وينظر لكامل في استعجاب:

- لماذا تفعل ذلك سيد؟!

أوقفه أمام مدخل المقبرة بعد أن نزع ما يغطي به وجهه قائلًا:

- اتلُ تعاويذك فسندخل المقبرة الآن، وأنا على عجلة من أمري لذا إن لم تفعل ما آمرك به قتلتك في الحال.

- ولكن سيدي.. عيناك سوداوتان!

حدثه في صوت غليظ مخيف:

- ابدأ في إلقاء تعاويذك اللازمة لفتح الباب.

بدأ الأعمش التمتمة بكلمات غريبة والتمايل أمام المدخل ثم توقف قائلًا:

- تحتاج المقبرة لأضحية بشرية حتى تفتح سيدي.

أخرج كامل نصلا حادا وجرح كفه الأيمن ولامس به الجدار

الحجري للمدخل لتسيل دمائه عليه!

- أكمل ما تفعل.

أكمل الأعمش في خوف من عينِ ولهجةِ الضابط حتى اهتز الجدار وانهار.. دخل كامل في خطوات واثقة دون خوف أو تردد ومن خلفه الأعمش، كان الظلام يعم المكان بالكامل ليخرج قداحته ويذهب يمينا ليضيء المشاعل واحدا تلو الآخر، بدأ الأعمش في التألم وهو ينظر نحو كامل منتظرا منه تفسيرا ومساعدة في موقفه هذا.

- نسيت أن أخبرك بأن الهواءَ هنا ملوث ومسموم.. حاول أن تنجو بحياتك وابتعد قدر الإمكان فهذا دين ستسدده يوما ما.. احفظ هذا جيّدًا.

جرى الأعمش نحو مخرج المقبرة، وهو يختنق ويخرج الدماء من عينيه وأذنيه، بدأت الرؤية تصبح أضعف حتى اختفت نهائيًا وهو يخرج من حيث أتى ويسقط أرضًا، في الداخل أخذ كامل يسير في ممر ما وفي يده أحد المشاعل وكأنه يحفظها من الداخل ظهرا عن قلب حتى جاءه صوت أوقفه:

- لقد اخترتك لتكون خادمي أيّها البشري.

اختفى السواد الذي طغى على عينيه، وأصبح مدركًا تماما

ما يحدث من حوله، أخذ ينظر في تعجب للدقة التي بنيت بها تلك المقبرة من الداخل، ثم تحدث في صوت متقطع وهو يبتلع ريقه:

- من أنت؟! ولم أحضرتني إلى هنا؟!

تشكلت من حوله العديد من الخيالات منعدمة الملامح، أضيء المكان بالكامل ليرى قبرًا ما من بعيد، ولكن الصوة رغم ذلك قريبة لعينيه، تحدث الصوت نفسه:

- هذا هو قبر «عبد الله الحظرد» سيد مخطوط العزيف، والوحيد القادر على التحكم في قوته.. القبر مخفي بعناية داخل هذه المقبرة والتى تظهر بدورها كل بضع سنين فى مكان ما.. لا يمكن لأي بشري كان الوصول لهذا القبر وفتحه.. في يدك بعض البرديات التي تحكي تلك القصة بالتفصيل عليك أن تحفظها جيّدًا.

- ولكن ليست في يدي أي برديات؟!

ما إن أنهى سؤاله حتى ظهرت في قبضة يده اليسرى، ألقاها أرضا وتراجع في خوف..

- ستكون لك قوة كبيرة لم يملكها بشري من قبل.. خدم من الجن الأعتياء الذين ينفذون لك ما تريد وقتما شئت.

- وهذا في مقابل؟!

- ستكون هناك بعض العادات اليوميّة الإجباريّة التي ستمارسها بالطبع للحفاظ على تلك القوة.. بالإضافة لأنّك ستكون في خدمتنا وستبحث لنا عن شيء نريده بشدة.

- وما هو هذا الشيء؟!

- إنها أحجية يا كامل.. أحجية تتكون من طفل ومخطوط والحظرد.

- لديكم جسد الحظرد، وبالتأكيد لديكم المخطوط.. إذن ينقصكم الطفل!

- ليس تمامًا فالمخطوط أصبحت له قوته الخاصة وأخفى نفسه جيدًا.. وحده ذو القلب النقي يمكنه إيجاده عندما يدخل المقبرة.

- لا أعتقد أنّ هذا أنا، وإلا لكنت وجدته الآن!

- مهمتك الحالية هي البحث عن الطفل.. سيشيخ جسدك سريعا، ولكن روحك ستظل خالدة تنتقل من جسد إلى آخر بطقوس سنعلمك إياها فيما بعد.

ضحك كامل وهو يكمل متأمّلًا:

- أعجبني ذلك كثيرا.. متى سنبدأ؟!

- سيدلك أحد خدامك على مكان البيت الذي لنا فيه تواجد دائم، وهو بوابة لمكان عودة الحظرد.. ستذهب إلى هناك عندما يحدث أي تطور في بحثك عن الطفل أو الرجل الذي سيجد المخطوط لنا.. لذا عندما يستدعي الأمر ستعرف كيف تجدنا.

- لي سؤال أخير.

- وما هو؟!

- ماذا كان يريد الفرنسي بالضبط من المقبرة؟! هل كان يعرف بكل ذلك؟!

- بالطبع لا.. إنّه باحث من أصول يهودية ويعلم فقط بأمر ظهور المقبرة في أماكن عدة، ومن ضمنها فلسطين ومصر.. لذلك يريدون وضع بعض المتعلقات التي تخصهم فهم بلا هوية أو تاريخ، ويريدون صنع واحد مزيف كما يحاولون دائما.

- فهمت.

- على كل سيموت جميع المشاركين في هذا الأمر، وستختفي المقبرة وكأنّها لم تكن.. تذكر أنّ ما سيخبرك به خدامك هو شيء يومي ستفعله باستمرار ولا يمكن التقصير

فيه.. وقتها سيكلفك ذلك أكثر من حياتك حتى.

بعدما أعطوه أمر بالانصراف خرج سريعا ليجد الأعمش ملقى على الأرض فيحمله ويذهب به لسيارته مغادرا المكان، في اليوم التالي اختفت المقبرة وكأنها لم تكن، وعلى مدار أيام بدأت عمليات القتل الغريبة تستهدف كل من عمل مع الفرنسي في ذلك المشروع، استطاع كامل حماية كل من مصطفى وحاتم لأمر ما في نفسه، سرعان ما بدأ في إجراءات خروجه من الخدمة لأسباب صحية واختفى عن الأنظار، ترك مصطفى أيضا الخدمة للأسباب نفسها عند رتبة «نقيب» وأكمل حاتم بعدها متخفيّا كموظف في الآثار ليتم إجراءات نقله بعد سنوات من ضابط بالقوات المسلحة لموظف دائم في الآثار.

*****

التسعينات:

سرعان ما أصبح كامل الحسيني من كبار السن كما أخبروه، كان قد بدأ أبحاثا كثيرة بهدف إيجاد المخطوط الذي خبأه الحظرد جيدا قبل موته، ولكن المخطوط أعاد إخفاء نفسه بطريقة ما ليصبح الأمر أكثر تعقيدا من ذي قبل، عاد للظهور مجددا في حياة حاتم السلكاوي الذي تفوق وطور من نفسه كثيرا في مجال البحث وكل ما يخص الآثار، وبعد أن علم

تحديدًا أن حاتمًا ما زال مهتما بأمر تلك المقبرة التي ظهرت في الأقصر واختفت مجددا، أخبره خدامه بالنبأ اليقين من أمر حاتم فهو نقي القلب الذي يبحثون عنه وسيجد لهم المخطوط، قرر كامل الذهاب لزيارته في بيته في منطقة باب زويلة بشارع المعز لدين الله الفاطمي في بداية العام الرابع والتسعين، لم يعرفه حاتم في بادئ الأمر فقد تغيرت هيأته كثيرا، ولم يكن كامل الذي عرفه من قبل، عندما فتح الباب وجد رجلا عجوزًا أمامه يبتسم متأملًا ليتسائل حاتم بدوره:

- كيف أخدمك سيدي؟!

- بالطبع لم تتعرف عليّ فقد مر الكثير من الوقت يا عزيزي حاتم!

تأمل حاتم وجهه مجددا ثم صاح مندهشا:

- القائد! كيف أحوالك سيدي؟ لقد بحثنا عنك كثيرًا!

- هل سنظل على الباب إذن؟! أنا رجل مريض ولا تحملني قدماي كثيرا!

ابستم حاتم في بلاهة وهو يتنحي جانبا ليدخل الضيف.

- اعذرني فقد تغيرت ملامحك كثيرا وكبرت في السن!

- إنّه المرض يا عزيزي حاتم.. المرض الذي يجعلك تشيخ

قبل أوانك.

دخلا إلى المكتبة وجلسا سويًّا وكامل يتأمل عدد الكتب والمخطوطات التي جمعت في هذا المكان.

- أنت كعادتك لا تكف عن إبهاري يا حاتم!

- هذا إطراء جميل، ولكني تعلمت منك الكثير سيد كامل.

ضحك كامل بدوره ثم نظر في جديّة لحاتم:

- بالطبع تتسائل عن الظهور الغير مبرر والمفاجئ لي بعد كل تلك السنوات! لذلك سأدخل مباشرة في الموضوع.. لدي بعض الأوراق التي قد تهمك في موضوع بحثك عن مقبرة الحظرد.

- كيف عرفت بذلك؟!

قالها حاتم وهو يهم بالنظر خارج باب المكتبة جيّدًا ويغلقه عائدا لمكانه..

- لست وحدك المهتم بالبحث في الأمر في النهاية.. ثم هل نسيت أني كنت ضابطًا بالمخابرات؟! المهم.. هناك نبوءة تتحدث عن ميلاد طفل سيقدر له حمل المخطوط والتحكم في قوته.

- تعلم بأمر المخطوط أيضًا!

- بالطبع فالمقبرة هي متاهة للوصول إلى المخطوط.. تداخل بين الأزمنة والعوالم.

- إذن هذا يثبت صحة نظريتي!

قالها ونهض ليحضر بعض الأوراق ويفرشها على المكتب الخشبي أمام كامل ثم أكمل متحمسا:

- في التاريخ ذكر المخطوط في أماكن عدة، وأزمنة متباعدة.. سأشرح لك أكثر.. كلما ظهرت المقبرة التي دخلناها سابقا في مكان غير المخطوط مكانه، ويبدو أنّ متاهة المقبرة تنتهي ببعد آخر له علاقة قوية بالمخطوط.. وكأنها بوابة ما أوجدها المخطوط نفسه.. لقد وجدت نصوصا كثيرة تتحدث عن كتاب ملعون، وكلما ظهر في بلد حدثت الكوارث والمصائب!

- إنّه مخطوط العزيف!

- نعم بالضبط هذا هو.

مد كامل يده ببعض الوريقات القديمة ووضعها على المكتب وهو يهم بالنهوض..

- إنها قصة كاتب المخطوط ستساعدك كثيرًا في حل هذا اللغز يا حاتم.

- ولكن ألن تتناول الغداء معنا سيدي؟!

تحرك نحو الباب ليفتحه شاب يبدو أنّه في التاسعة عشرة من عمره..

- ألديك ولد كبير هكذا يا حاتم!

- نعم.. إنه إمام.. سيتزوج بعد أسابيع ويجب أن تحضر.

- أتمنى ذلك، ولكن قد أكون خارج البلاد وقتها.. بالتوفيق في بحثك.

قالها وهم مغادرا ليترك حاتمًا متعجبا مما حدث، ولم يجب حتى على سؤال ولده إمام وكأنه لم يسمعه.

- من هذا العجوز يا أبي؟!

حدث نفسه:

- ترى ماذا يهم كامل بكل ما أفعل؟! ما سر تلك الزيارة المفاجئة بعد كل تلك السنوات؟!

*****

الرابع من أبريل من العام السادس والتسعين..

البيت المهجور بمنطقة وسط البلد – القاهرة..

في تلك الغرفة التي توجد في نهاية الممر المظلم بالطابق

الأرضي كان هناك ظلّا جالسًا على عرش مخيف تزينه الجماجم والعظام وبعض النقوشات الغريبة، بالإضافة إلى عجوز يسجد من أمامه ويتنحنح قائلًا:

- لقد توصلت إلى حل لتلك الأحجية أخيرًا، وستكون نهاية لكل هذا البحث المتواصل الذي بدأناه.

- وما هو يا كامل؟ أخبرني.

نهض كامل وأخذ يتجول في الغرفة ليتحدث في ثقة:

- لقد وجدت وخدامي نقيَّ القلب الذي سيحضر لنا المخطوط، وأيضًا الطفل من النبوءة، ولكني كنت أنتظر اللحظة المناسبة.

هلّل الظل فرحا لتتصاعد النيران من الجماجم التي تزين العرش مضيئة الغرفة:

- أتعني أنّ الطفل قد ولد أخيرًا؟!

- نعم.. والرجل نقيُّ القلب يكون جده من حسن حظنا.. إنها سخرية القدر أليس كذلك؟!

توقف قليلا وأخذ يذهب ويجيء بعرض الغرفة ثم أكمل:

- لن يفيدنا طفل رضيع لا حول له ولا قوة، ونحن لم نصل بعد للمخطوط.

- وماذا تقترح أن نفعل إذن؟!

- هلّا أخبرتني متى ستظهر المقبرة مجددا؟! وفي أي البلاد؟!

- ستظهر في عام ألفين وستة.. في المغرب «تحت مقابر السعديين».

- عظيم.. سأذهب إلى حاتم وأخبره بأمر حفيده، وأمر عملي فى خدمتكم.. سأخبره عن ندمي وحسرتي على روحي التي خسرتها.. الشر الذي سيطر على حياتي ودمرها.. سأخبره بحماية حفيده بتعويذة تخفيه عن الأنظار حتى يتمكن هو من إيجاد المخطوط وتدميره.. سيزيد هذا من حماسه ويجعله يقرر دخول المقبرة مجددا.. ليس فقط لإيجاد المخطوط لأغراضه البحثية بل لحماية حفيده في المقام الأول.. سأكون أنا القدوة والمثل الأعلى الذي ضحى بحياته من أجل حفيده.. وقتها سيكون لدينا الطفل حين يكبر والمخطوط الذي سيجلبه لنا حاتم بنفسه..

- يا لك من ماكر خبيث.. سيخرج من رأسك قرنان إن استمررت على هذه الحال!

ضحك كامل مشيرا برأسه في بسمة متواضعة لهذا الإطراء ثم أكمل:

- بالطبع سنقوم بتمثيلية صغيرة سأموت فيها محروقًا داخل هذا البيت.. لقد أصبحت أكره هذا الجسد في كل الأحوال.

- سيصبح لك شأن عظيم عند عودتنا يا بن الحسيني!

حيّاه كامل بدوره مبتسما، ثم همّ مغادرًا في طريقه لبيت حاتم، وهناك أعطاه المزيد من الأوراق البحثية، وحكى له عن دخوله المقبرة في الأقصر، وعن الشر الذي تمكن منه، ولكنه يريد أن يتوب ويقوم بإنقاذ الصغير سراج من قبضة الشر، فعل تماما كما خطط ثم غادر سريعا، في اليوم التالي انتشر في الجرائد خبر موت كامل الحسيني محروقا في أحد المنازل المهجورة بمنطقة وسط البلد، حزن حاتم كثيرا وهو يعلم أنّه ضحى بحياته من أجل حفيده ليقرر استكمال أبحاثه عن المقبرة، وكيفية ودراسة المتاهة بداخلها جيّدًا حتى يصل إلى نهايتها ويدخل ذلك البعد الذي سيمكنه من الوصول للمخطوط، حتى جاء العام ألفان وستة وظهرت المقبرة مجددا في المغرب.. جاءته رسالة من رجل يدعى «الأعمش» بأن الوقت قد حان لدخول المقبرة من جديد!

*****

عام ألفين وستة..

المغرب:

إحدى غرف الطابق الأخير من فندق عمر الخيام بمدينة مراكش حيث ينزل حاتم وصديقيه، كان الأعمش يجلس وحيدًا عندما ظهر له طيف من الماضي يتذكره جيّدًا، ريح لم تكن غريبة عليه أبدًا، وصوت علق في أذنيه دائما.

- لقد جاء وقت رد الدين يا صديقي القديم.

- لقد فعلت كما أمرتني سيد كامل وجعلتهم يأتون إلى هنا.

- أريدك أنْ تجعلهم يظنون أن هناك من يراقبهم ويريد دخول المقبرة أيضًا.. وأريدك أن تجعلهما (حاتم وفهد) يبتعدان عن ذلك الشاب المدعو جمال فأنا أريد أن ألهو معه قليلا، وسأحتاجه أن يأتي إلى غرفتك.

- لك ما شئت يا سيد كامل.. سأحضره إلى هنا.

- أنت حر.. لتفعل ما تشاء بعد انتهاء ذلك.

كان الأعمش يرد دين إبقائه حيًّا وينفذ بالضبط ما طلبه منه كامل عندما زاره مؤخرًا كروح هائمة لا جسد لها، لقد كان الأعمش منذ البداية من يوحي إلى حاتم ورفيقيه بأنه تتم مراقبتهم وهناك شر يريد دخول المقبرة أيضا، لقد كانوا رجاله الذين يوهمونهم بذلك ويتبعونهم أينما ذهبوا، ما

حدث عندما ترك حاتم وفهد الفندق متذاكيين أنه تلبست روح كامل الدكتور جمال وسيطرت عليه بالكامل ليعود للحياة مرة أخرى في جسده، في الطابق الأخير صعد جمال متجها لغرفة الأعمش كما أخبره حاتم بأنه سيجد المساعدة هناك، وسيوفر له الرجل الذي يقطن الغرفة المواد المطلوبة، دخل الغرفة التي كان بابها مفتوحًا في بطء خائفا ليتوقف عند رؤية الرجل الأعمى جالسًا في انتظاره:

- اجلس يا جمال.

- لقد أخبرني الأستاذ حاتم أني سأجد المساعدة هنا في هذه الغرفة!

نظر له العجوز الأعمى مبتسما:

- ستجد هنا كل المساعدة التي تريد يا جمال.. ولكن تفضل واجلس.

تأمل جمال حال الغرفة وهذا الرجل الأعمى في خوف ليأتيه صوت في عقله محدثا:

- أنت ملكي الآن، ولن يحميك أحد مني.

هبّ فزعا ليهدئه الأعمش ببعض الكلمات الغريبة فيسقط أرضًا فاقدا الوعي..

رسم حوله بعض الرسومات الغريبة وأخذ يلقي تعويذة سبق ولقنه إياها كامل، جرح كفه وقطر بعض الدماء على وجه جمال وهو يكمل، وبعد عدة دقائق من انتهائه من الطقوس نهض وهو يضحك بطريقة أخافت الأعمش نفسه..

- ستكتمل طقوس انتقالي لهذا الجسد في المقبرة.. أكمل ما اتفقنا عليه ولا أريد أيّةَ أخطاء.

في المقبرة عندما نزلوا تحت قبور السعديين أمر الأعمش رجاله بالذهاب إلى ساحة مسجد «الكتبية» وانتظار الدكتور جمال عندما يخرج لنقله إلى المشفى سريعا جراء الطقوس التي ستحدث بغرض اكتمال انتقاله وستصيبه بالضعف، وربما غيبوبة لبضع أيام، بالطبع قتل فهد في الداخل على يد الحارث، ولم يستطع حاتم فعل شيء حيال ذلك، وخرج كامل في جسد جمال كما خطط بعد اكتمال طقوس معينة تمت في الداخل بعدما جعل فهدًا يظن أنه أنقذه، ولكنه لم يكن يعلم أن ذلك المخرج ظهر خصيصا من أجل كامل الذي سيفر هاربا في جسد جمال، وصل حاتم لنهاية المتاهة ليدخل من الباب الحجري، ويرى المخطوط وعندما يقترب من لمسه يجد نفسه في بلدة الأشباح التي كتب فيها المخطوط وتحكمها السيدة «هيا» التي أوجدها المخطوط لحمايته في الأساس، عندما عبر حاتم ذلك البعد الزمني وجد

نفسه في قلب بلدة الأشباح ليصيح:

- ما هذا المكان؟! أين أنا؟!

تردد صوتها في أذنيه:

- أنت في بلدة الأشباح يا عزيزي.

ظهرت من أمامه في ملابس شبه عارية، وبدأت الأشباح في محاصرته لتكمل:

- لن تخرج من هنا أيّها البشري.. هذا أصبح مصيرك الأبدي الآن.

نهض وبدأ يتحدث في نظرات متحدية:

- سأخرج من هنا بحثًا عن المخطوط.. وسأعود لتخليصكم من عذابكم هذا.. لكم كلمتي، ولكن عندما يأتي بشريٌّ آخر بعدي أخبريه أنه ليخرج من هنا عليه أن يضحي بشيء ما في المقابل.

- اقطع لنا عهدا بالعودة إذن، وفي المقابل سأحفظ ما تقول جيّدًا.

تحرك حاتم مبتعدا عنهم بضع أمتار ثم أخرج نصلا حادًّا وجرح به كفيه لتسيل الدماء منهما على رمال البلدة تمتم في صوت لا يسمعه أحد:

- هذا عهد على أن أعود مجددا لتلك البلدة وتبقى روحي حبيسة فيها إلى الأبد كسائر أشباحها.. في المقابل أريد العثور على المخطوط.

ظهرت دوامة سوداء من خلفه لتبتلعه والسيدة هيا تصيح فيه محذرة:

- تذكر أن تعود إلى هنا قبل غروب شمس اليوم الثالث لتواجدك في المكان الذي أنت ذاهب إليه، وإلا سيختفي ذلك العالم كأنه لم يكن!

لم يجرِ كلُّ شيء كما خطط له منذ البداية فثلاثة أيام في زمن مختلف عادلت سنوات كثيرة في وقتنا هذا! خرج حاتم من ذلك المكان الذي ذهب إليه وهو في عالم ألفين وستة ليجد أنه العام ألفين وعشرين! وذلك بعد معاناة لنكتشف أين ذهب ونرسل الحارث خلفه ليزيد من اضطراب الأحداث والذي من شأنه أن يسرع من خروج حاتم ومعه المخطوط.

*****

صاح سراج غاضبا منفعلا في وجه كامل الذي يتلبس جسد جمال الآن:

- لماذا قتلت الشيخ مصطفى إذن؟!

- لقد أقحمه جدك في مجرى الأمور.. وحكى له تفاصل كثيرة ما كان يجب أن يعرفها وأعطاه الخاتم.. بالإضافة أنه أخبره بطريقة تدمير المخطوط وهذا كان كافيًا لقتله وإخراجه من الأحداث.. وهذا بالضبط ما سيحدث لصديقتك هنا وذلك الأحمق المحبوس بالأسفل.

نهض وتحرك نحو نهاية القاعة وهو يخبر رجاله بأن يحضروا سراج ويلقوا بالفتاة في الأسفل..

وضع بصمة إبهامه الأيمن وعينيه على جهاز مثبت على ذلك الحائط، فتح باب سريّ في قلب الجدار، وكان من خلفه ممر شديد الظلام، أمر رجاله بفك قيد سراج والذهاب خارج القاعة، دخل وهو يمسك بزراع سراج ليغلق الباب من خلفهما..

- لا تدري كم شعرت بالرعب والخوف عندما سرت في هذا الممر المظلم لأول مرة!

طرقع إصبعيه لتنار المشاعل على الجانبين ويتحركا حتى الباب في نهاية الممر، أغمض عينيه وتمتم بكلمات غريبة لتهتز العظام المترابطة على جانبي الباب وينفتح على الفور، خرجت منه ريح غريبة أصابت الفتى بالخوف، في الداخل صاح كامل:

- أخيرًا وبعد سنوات وسنوات من الانتظار تحققت خطتي بنجاح، ولدينا الفتى هنا والمخطوط هناك وسيعود الحظرد من جديد.. سنحكم الأرض بكاملها يا فتى!

ظهر كرسيّ العرش الذي تزينه الجماجم والنقوشات الغريبة من جديد، كان الظل الجالس عليه يضحك سعيدا بهذا الخبر، جاء صوته جهورا:

- نعم يا كامل.. وقد آن الأوان أن تترك هذا الجسد أيضا وتعود إلى بلدة الأشباح مع الفتى لتشهد عودة الحظرد من جديد.. لا يجب أن يفوتك هذا.

صاح محاولا الرقض نحو الباب الذي دخل منه لتوه:

- ماذا؟!

اشتعلت النيران وظهرت الفجوة السوداء لتبتلع ثلاثتهم من جديد تاركة جسد الدكتور جمال الذي سقط أرضًا ليظل وحيدًا في الظلام..

على الجانب الآخر في بلدة الأموات ألقتهم الفجوة السوداء على الرمال بجوار البيت المبني من الطوب اللبن وسبق وانهار سقفه وبعض جدرانه، نهض سراج ينفض عنه الرمال ليرى منظرا بشعًا لرجل قد فقأت عيناه.. ونحر عنقه مصلوب على جدار ذلك البيت والدماء تغطي جسده وتملؤ

الرمال من تحته، حدثه صوت ليس بغريب عن مسامعه:

- يبدو أنّك لم تتعرف على الرجل المصلوب!

- ويبدو أنّهم لم يفوا بوعدهم لك يا كامل، وستبقى روحك هنا إلى الأبد.. لقد كانوا يستغلونك ويتلاعبون بك كالعرائس لتنفذ ما يريدون.

- يبدو أنّه في النهاية قد مات كل من شارك في التنقيب عن تلك المقبرة اللعينة.. مسكين عزيزي حاتم! فقد لقي أبشع موتة!

- أتقصد أن ذلك..!

- نعم هو.

تقدم سراج ببطء نحو ذلك العجوز المصلوب ليلمسه باكيًا، علا نحيبه ليتردد فيس أنحاء تلك الصحراء من حوله:

- ماذا فعلوا بك يا جدي؟!

احتضنه سراج بقوة مغمضا عينيه ليأتيه صوت حاتم:

- يمكنك النظر يا عزيزي سراج.

فتح سراج إحدى عينيه ليختلس النظر، لقد كان جده حاتم مبتسمًا ويشع وجهه بياضًا كما تركه آخر ليلة وهو يحكي له

حكاية ما قبل النوم قبل أن يغادر صباحا ولا يراه مجددا، أخذ سراج يتأمل حاله في غرابة شديدة وهو يعود طفلًا صغيرًا من جديد! تحدث في صوت طفوليٍّ متسائلًا:

- أين نحن يا جدي؟! أنا أحلم أليس كذلك!

- ليس ذلك هو المهم يا ولدي.. إنها المرة الأخيرة التي ستراني ونتحدث فيها.. كل ما يحدث من حولك حتى الآن لا يتعلق بما يريدونك أن تفعله، بل بما تريد أنت أن تفعله عندما تمسك مخطوط العزيف بين يديك!

- كنت أتمنى أن أكبر وأنت في جوارى يا جدي.. ننعم بحياة هادئة سويًّا.

- مثلنا لا ينعمون بتلك الحياة يا ولدي..إنّه قدرك يا سراج أن تكون هنا.. يجب أن ينتصر الخير الموجود داخلك، وتجد الطريقة التي ستدمر بها المخطوط مرة واحدة وإلى الأبد.

- لقد انتصروا علينا يا جدي.. قتلوا كل من وقف في طريقهم حتى اليوم!

تحرك حاتم ماضيًا في طريقه بعيدا وصوته يتردد حول سراج:

- استدعِ شداد فستحتاجه فيما هو قادم فهو قدره أيضا.

- ولكن كيف يا جدي؟! كيف؟!

جاء صوت الحارث ساخرا:

- هل ستظل ملتصقا بجسد حاتم اليوم كله يا فتى؟!

فتح سراج عينيه ليجد أنهم جميعا من حوله، السيدة هيا وشبح كامل الهائم والحارث وكل أشباح البلدة، تحدثت السيدة ضاحكة في سعادة:

- ها نحن نلتقي من جديد يا فتى.. هل أنت جاهز لقدرك؟

هز سراج رأسه علامة الإيجاب..

أمرته بخلع كل ملابسه عنه ليقف بينهم عاريًا تماما كيوم ولدته أمه، أخذت السيدة هيا تقوم برسم الكثير من الخطوط على جسده، وقامت بتكحيل عينيه، رسمت دائرة بمحيط كبير وأمرته بالوقوف في المنتصف، أحضرت الصندوق الذي يحتوي المخطوط ووضعته من أمامه قائلة:

- عندما أشير إليك مع بدأ الطقوس ستمسك بالمخطوط بين يديك وسيفتح من تلقاء نفسه.

أشار برأسه علامة الإيجاب مرة أخرى دون أن ينطق بكلمة واحدة حتى، علا صوت كل أشباح البلدة في الغناء بلغة لم يستطع سراج فهمها، ولكنها متجانسة وذات وقع رنان على

أذنيه، أحاطوا بالدائرة لتقوم السيدة هيا بدورها بإحضار دماء حاتم النقية وتقطيرها على الخطوط التي تشكل نجمة كبيرة داخل الدائرة، نظر سراج متأمّلًا ما يحدث ليتردد على ذهنه فجأة:

"وعندما تجد النجمة تكون قد وصلت إلى ضالتك، وستفهم وقتها كلّ شيء يدور من حولك"، حدث نفسه مندهشا:

- بالطبع هي تلك النجمة التي يقصدونها.. لقد كانوا يريدون مني السيطرة على ما يحدث من طقوس هنا في بلدة الأشباح لتنقلب الأحداث لصالحنا.. شكرًا يا جدي على النصيحة؛ فلولاها ما فهمت.

مرت ومضة سريعة للقائه مع جده أمام عينيه.

- ولكن كيف يا جدي؟! كيف؟!

ابتسم حاتم وهو يغادر بعيدًا:

- اكسر الخاتم بقوة عندما يحين الوقت.. وحده المخطوط قادر على إطلاق العنان لقوة الخاتم.

ضحك سراج في هيستيرية غريبة في وسط استعجاب من أهل البلدة والسيدة «هيا» التي جلست على ركبتيها على أحد أطراف الدائرة التي رسمتها وبدأت تنفيذ طقوسها

الغريبة، اشتعل البيت من جديد وظهر الوجه نفسه الغاضب لتشير هيا لسراج بأن يفعل كما طلبت منه، أمسك سراج بالمخطوط بين يديه حتى بدأت الاهتزاز بشكل لا إرادي، وبدأت عينيه في التحول إلى اللون الأسود بالكامل، سالت الدماء منها حتى سقطت قطرات على المخطوط بين يديه، فتح المخطوط وأخذت أوراقه الجلدية تجري سريعا دون توقف، تحركت النيران بالكامل لتصب في فم الفتى الذي صاح متألما وغاضبا.. ألقى المخطوط من يديه ليقع أرضا ثم ضم أصابع يمناه التي تحمل الخاتم وضرب قبضته على غلاق الكتاب فتكسر الخاتم وصدرت موجة ارتدادية من اصطدامهما هزت البلدة بأكملها، تغيرت ملامح سراج بالكامل، وأصبحت عيناه مشتعلتين تماما، ونما له قرنان ضخمان على الرأس وأصبحت بنيته أضخم قليلًا ليصيح قائلًا:

- لقد عدت أخيرًا!

قالها وهو يضحك في صوت غليظ متحشرج ليقاطعه صوت آخر:

- وأنا أيضًا.

نظر للخلف وهو غير مصدق ما حدث ليراه واقفا أمامه بأم عينه!

- ماذا؟!

- يمكنك مناداتي «حاتم» وإذا أضفت «السلكاوي» سأكون ممتنا.

كان حاتم واقفا بشحمه ولحمه يبستم متحديًا، نظر له عبد الله الحظرد في جسد الفتى سراج مغتاظا متسائلًا:

- ولكن كيف؟!

اختفى حاتم من مكانه وظهر خلفه من الناحية الأخرى:

- يمكنك مناداتي «شداد» أيضا.

خافت السيدة هيا مما يحدث وابتعدت للخلف بضع خطوات هاربة، ولكنه ظهر من أمامها وضربها بقوة جعلت روحها تخرج من جسدها ليسقط الجسد متحولا لرماد على الرمال، حاول الحارث فعل المثل، ولكن حاتم ظهر من أمامه مباغتا:

- لم أنته منك بعد، فعينٌ واحدة لا تكفنيي.

وقع الحارث أرضا في خوف وضعف في هيئته البشرية التي ظل متجسدا فيها بفعل تلك البلدة الملعونة..

- أرجوك لا تقتلني فأنا خادم ضعيف لا حول لي ولا قوة.

- أنت لا تفهم.. لن يظل أحدكم حيًّا.. قويًّا كان أو ضعيفا.. ستختفي هذه البلدة الملعونة إلى الأبد، ولن تكون هناك مقبرة يعود لها الحظرد بعد الآن.

همّ الحارث بالجري مجددًا، ولكنه ظهر من أمامه ونحر عنقه، ظل الحظرد يوزع نظراته بين ما يحدث وذلك الجسد المصلوب على الحائط:

- هذا مستحيل!

-لا شيء يحدث مستحيلًا منذ ظهرت المقبرة أول مرة.. فقد كنت أسبق صديقي كامل بخطوة دائما.

- ولكنك رغم ذلك لا تستطيع فعل شيء، فقد عدت والمخطوط في يدي.

- هذا بالضبط ما كنت أخطط له طيلة هذه السنوات.. لا يمكن تدمير المخطوط دون صاحبه، ولا يمكن قتل صاحبه دون تدمير المخطوط.

- أنت تكذب وتماطل يا هذا!

- سأخبرك إذن.. عندما جاءني كامل للمرة الأولى وأعطاني الأوراق التي تخص قصة الحظرد تعجبت كثيرًا، لقد تغيرت هيئته وأصبح عجوزًا بطريقة مريبة! كان مصطفى وقتها قد

ترك العمل أيضا واتجه للأعمال التي ورثها عن أبيه وأجداده، أسفل متجره كانت توجد غرفة محصنة لا يمكن لأي خادم قط دخولها إلا من يأذن له هو بذلك، فيها علم بعض الأشياء التي تخص صديقنا كامل وسرعان ما جلبني وأنزلني إلى تلك الغرفة وبدأ يقص على مسامعي ما عرف.

- عزيزى حاتم.. آسف على جلبك إلى هنا، ولكنها الطريقة الوحيدة حتى لا يتجسس فيها على كلامنا أحد.

- لا عليك يا صديقي.. أنا فقط مندهش من المكان.

- لقد علمت أنّ كامل الحسيني قد زارك في البيت وأعطاك بعض الأوراق!

- نعم فعل.. ولكن كيف عرفت ذلك؟

- كامل باع روحه للشر يا حاتم، ويريد أن يستغلك لتجد له المخطوط فهو ومن يخدمهم غير قادرين على ذلك.

- إذن هو لا يساعدني، بل يريده لنفسه!

- سأشرح لك أكثر.. يحتاجون رجلًا نقيّ القلبِ ليدخل المقبرة ويحل لغز متاهتها.. لقد دفن الحظرد المخطوط معه، وحصّن المقبرة لكي لا يدخلها الغرباء واللصوص، ولكن المخطوط شعر بالخطر فزاد حماية المكان وأصبحت

المقبرة تظهر كل بضع سنين في مكان مختلف وتغير أيضًا من تصميمها الداخلي في كل ظهور لها مما جعل الأمر محيّرا لعلماء الآثار الذين وقعت أمامهم المقبرة على مدار أعوام.

- ماذا سيحدث لو وجدت لهم المخطوط؟!

- سيعيدون الحظرد في جسد شاب ما ذكرته نبوءة في عالم الجن.. وسيتحكم في قوى المخطوط ويطلق العنان للأعتياء ليسيطروا على عالمينا.

- إذن لا يجب أن أحضر لهم المخطوط، أو أكمل أبحاثي حتى!

- على العكس.. أريدك أن تكمل ذلك.. بك أو من غيرك سيجدون المخطوط ويعيدون الحظرد إلى الحياة مرة أخرى.

- ماذا تقترح إذن؟

- يجب أنْ نعمل سويّا ونجعل كاملًا يعتقد أننا نبحث له عن المخطوط وننفذ خطته، ولكننا في الحقيقة سنبحث عن طريقة لتدمير المخطوط وسيده.

*****

- إذن كشفتما خطة كامل منذ البداية وسايرتماه فيها أيضا!

- ليس هذا فقط، بل عندما ولد سراج وعلمنا أنه الطفل من النبوءة وأقحمتموه في الأحداث أصابنا الخوف والقلق عليه.

العام السادس والتسعين..

الغرفة المحصنة أسفل متجر العطارة:

- لقد زارني كامل اليوم يا مصطفى، واعترف لي بالكثير من الأشياء.. هل تظنه يعلم بأمرنا؟!

- لكنّا ميتان الآن ويبحثون عن غيرك ليقوم بعملهم.

- لقد أخبرني أن حفيدي هو الطفل من النبوءة، وأنه سيحميه من الشر حتى لو كلفه ذلك حياته.

- لا تصدق هذا الماكر.. بالتأكيد في الأمر خدعة ما.

- كيف سنقتل الحظرد وهو في جسد حفيدي؟! سيفتك ذلك بكليهما.

نهض مصطفى مفزوعًا وهو يحدث حاتم في خوف:

- يقول أحد خدّامي إنّ الملوك السبعة الكبار لعالم الجن الموازي يريدون رؤيتك!

- أهذه مزحة ما يا مصطفى؟!

- لا، صدقني.. يخبروني أن أخرج الآن وأتركك وحدك في

الغرفة المحصنة.

هزّ حاتم رأسه وهو يبتلع ريقه ويلتقط أنفاسه، وهمّ مصطفى بدوره مغادرا، ساد ظلام حالك المكان لتظهر سبعة عروش ضخمة حول حاتم ليحدثه أحدهم:

- لقد ألقتك الظروف في موضع لا تحب أن تكون فيه لا أنت ولا حفيدك أيّها البشري

تحدث آخر:

- سنساعدك يا حاتم فهي حربنا قبل أن تكون حربك.

علا صوت الجالس في المنتصف:

- ستجد في أصابع يدك اليسرى خاتمًا لم يرتديه بشري من قبل.. فيه قوة قادرة على تدمير عالمك بحاله في ليلة.. ولكنك نقيُّ القلب، ولن يجد الشر مكانه بداخلك.

تحدث رابعهم:

- هذا الخاتم سيربط روحك بجنيٍّ قوي من سلالة الملوك.. ستظهر قوته عندما يتم كسره بواسطة المخطوط نفسه.

عاد الجالس في المنتصف للحديث:

- ستجد طريقة ليرتديه حفيدك، ويقوم بتحطيمه وهو

ممسك بالمخطوط وروح الحظرد تستقر فيه.

تحدث خامسهم:

- هذه هي الطريقة الوحيدة ليطلق العنان للخاتم لإظهار كامل قوته.

تحدث سادسهم:

- تذكر أن تظل روحك موجودة عندما يعيدون الحظرد مرة أخرى، وإلا كل ذلك سيضيع هباءً منثورًا.

تحدث سابعهم:

- رعايتنا تشملك أينما ذهبت، وتذكر أنّ لا تنزع الخاتم إلا في الوقت المناسب.

أريد أن...

لم يكمل حتى جملته ليجد نفسه جالسًا في الغرفة كما كان، ضحك ضحكة صفراء في غرابة، ورفع يده اليسرى ليجد الخاتم مستقرًا في أصابعه، منقوش عليه بخط عربيٍّ واضح: (فالله خير حافظًا)!

بدأ جسد سراج التحول ليزداد ضخامة وقبحا والنيرات تملؤ عينيه وقرنيه، وكلما تفوه حاتم بذلك الكلام كلما زاده ذلك غضبا!

- ومع ذلك لن تستطيع قتلي أو تدمير المخطوط.

ضحك حاتم ضحكات ساخرة متقطعة:

- ألا تريد أن تعرف حتى ما هي آخر مفاجأتي لك؟!

بدأ الحظرد إلقاء النيران على حاتم والتي مرت مرور الكرام من خلال جسده.

- لا تريد أن تعرف إذن! ولكني سأكمل رغم ذلك.

أخذ حاتم يظهر في أماكن مختلفة حول الحظرد، وهو يكمل حديثه:

- لم يكن الأمر يتمحور حول حفيدي سراج على الإطلاق.. لقد كنت أنا الذي تحدثت عنه النبوءة منذ البداية، ولذلك أظهر لي المخطوط نفسه بهذه السهولة في زمن بني أمية.

قالها وبدأ جسده يرتفع عن الأرض ثم أشار للمخطوط فترك يد الحظرد وارتفع للحاق بسيده، أخذ حاتم يتمتم بكلمات غريبة من صفحات الكتاب ثم صاح بصوت هز أرجاء المكان وتردد في سماء تلك الصحراء التي لا أول ولا آخر لها:

- لقد انتهى أمر الأشباح وبلدتهم.. هذه المرة موت أبدي.. الوداع يا عزيزي كامل.. كنت قد تأثرت بتضحيتك قليلًا لعلمك.

بدأت الأرض في التصدع والانهيار من أسفلهم لتبتلع القرية بكاملها، أشار حاتم للحظرد قائلًا:

- سيظهر الباب الحجري المؤدي للمقبرة.. ارقض بأقصى سرعة إن لم تكن تريد أن تخسف بك الأرض مثلهم.

جرى الحظرد نحو الباب الحجري الذي ظهر في المكان الذى أشار عليه حاتم والأرض تنهار من خلفه، حتى إذا اقترب من أن يخطو داخله صاح حاتم بكلمات غريبة من المخطوط فانفصلت روحه عن جسد الفتى وظلت حبيسة في بلدة الأشباح ليمر الجسد وحده خارجا.

- نسيت أن أذكر لك أنه عندما جاء السبعة الكبار في الغرفة المحصنة أخبرني الجالس في المنتصف بشيء هام للغاية قائلًا:

- تذكّر يا حاتم أن طريقة إنهاء كل ذلك تكمن في استخدام أحد طلاثم المخطوط القوية لفصل روح الحظرد عن جسد حفيدك سراج أولا.. ستخسف بعدها به الأرض مع بلدته اللعينة تلك.

ضحك حاتم ثم أكمل ساخرًا:

- عذرا.. إنّه خطئي.

نزل حاتم نحو سراج مبتسما دامعا ليبادره الفتى متسائلًا:

- هل انتهى الأمر يا جدي؟! هل قضينا على الشر؟!

- قضينا على الشر يا ولدي.. ولكن الأمر لم ينته فجدك يجب أن يذهب كما ذهبت أشباح البلدة.

- لن أتركك هنا.. سنغادر سويًّا.

- لكل شيء ثمن يا ولدي العزيز.. وهناك عهد لا يمكن تخطيه.

بكى سراج محاولًا احتضان جده مرة أخيرة، ولكنه أصبح سرابًا لا جسد له، ابتسم له حاتم وهو يتلاشى ويختفي تدريجيًّا ليتردد صوته:

- تعرف ما عليك فعله بالمخطوط يا سراج.. يجب أن تنهي الأمر.

*****

داهمت الشرطة في اليوم التالي المنزل القابع بمنطقة وسط البلد بعد الإبلاغ من مجهول عن وجود فتاة مختطفة وأبيها في ذلك البيت، لتعود روان ووالدها الدكتور جمال إلى البيت بعد غيابه عنه لأربعة عشر عاما تقريبا.

******

بعد مرور شهر على تلك الأحداث:

ذهب الدكتور جمال وابنته روان في زيارة مفاجئة لبيت حاتم في منطقة باب زويلة، والذي انتقلت له عائلة سراج بالكامل لتسكنه كما كان يريد، فتحت لهما أمه الباب وأدخلتهما ثم ذهبت لتطرق عليه باب المكتبة فقد ورث عادة جده في البقاء فيها طيلة الوقت، كان جالسًا على كرسيّه الهزاز ليجيبها:

- حسنا.. قادم يا أمي.

كان هناك خاتم كبير يتأمله على المكتب ومنقوش عليه (فالله خير حافظا)، لمع ذلك الخاتم في عينيه ليحدثه صوتًا ليس بغريب على مسامعه

- لقد افتقدني.. أليس كذلك؟!

- بالطبع فعلت يا شداد.

ابتسم وهو يرتديه في أصابع يده اليسرى، وهمّ بالنهوض ليغادر المكتبة، توقف لحظات لينظر إلى ذلك المخطوط القيّم الذي أضيف مؤخرا لمكتبة جده، أخذ يضحك في غرابة وينظر طويلًا في عينين سوداوتين بالكامل.

تمت بحمد الله.

******